

د . عصمت سيف الدولة

مشايخ جبل البداري

مقدمة بقلم .. مصطفى نبيل

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة ان يكتب سيرته الذاتية فأثر كتابة السيرة الذاتية لقريته "الهمامية" ، فلقد توحد مع أهلها، وكان على أكثر أحداثها شاهداً، فهو ابن القرية التي تسربت حكاياتها الى مسامه.

ومن يقرأ مذكرات قرية ، يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول في مقدمة كتابه : " تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لي منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، الا أنني لا أريد، فقد تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لا يمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع الى البقاء بعد الفناء، خوفاً دفيناً من الموت فحرصاً متيناً على الخلود، انها ذات الغريزة التي تولد في الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية ، يحب أولاده أكثر من ذاته حتى ولو كانوا مارقين ؟ ! " .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية على صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعداداً كبيراً بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة على ما أقول : الصورة التي رسمها للمرأة الصعيدية والتي قدمها بقوله : " تملك الزوجة ، ربة البيت ، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل ، الزوج ، وهي بعد التي قدمت حجر الأساس الاقتصادي لبيت الزوجية الذي تديره ، ولها فيه فضلان ، فضل الادارة وفضل التمويل ، ولزوجها فضل العمل ، فلا ينكرعليها أحد بعد هذا انها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا ، ولا زوجها ، وإنما تدير مملكتها في بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على اسئلة الرجل الزوج ، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة في القرية لا " تحب " ولا " تعشق " زوجها ، تلك وأمثالها اوصاف أدنى بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين ، أدنى وصف الي حقيقتها انها وحدة مصير.. لا بل وحدة وجود . فهما لايلتقيان منفردين الا نادرا ، وان تحادثا فلا يهزران ، ولايتلامسان غزلاً ، ولا يتغازلان حديثا ، ولا يعرفان عادة القبل على الشفاه ، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب ، ولا يفقدان في كل الظروف الوقار والتوقير والحياء ، ولا تنادي المرأة زوجها بإسمه ولا يناديها بإسمها إلا إذا كانا منفردين ، وإن تجادلا فصيافة النداء تدل على مدى الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له "ياخوي " ، فهي متفقة ، وان نادته " يا ولد عمي " ، فهي تتودد.. وان قالت له "ياولد الناس " ، فهي غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف انها إن غضبت فسيشقى . ستظل اسئلة في بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شيء ولا تخسره شيئا .

ولايعني هذا أن المرأة في القرية لاتعرف الحب ، بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء ، كل ما في الأمر إنها أحبت حتى الوله ، وعشقت بكل كيائها الزوج بصفته وليس شخصا بعينه .

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحي الحياة في الهمامية .

وما بين نشر الجزء الأول في كتاب الهلال في أغسطس ١٩٩٥ ، وبين نشر الجزء الثاني الذي سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦ ، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجع ، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته

وهي خلاصة حكاية قريته التي تقدم نموذجاً لكل قرى مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى ، وتؤكد تجربة قرية "الهامامية" ، على المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعاً يعودون الى أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلاً من فساد السلطة وتحيزها أحياناً للمستعمر البريطاني وأحياناً أخرى للاقطاع الذي انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الى حد فرار شباب القرية الى الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية فإن المقاومة الذكية التي قادها الشيخ عباس نجحت في حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربي البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى . ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ في استرداد أرض الجزيرة ، وبقي الصراع مع الطبيعة، الفيضان والجفاف ورمال الجبل، وفي مواجهة الفقر والظلم . وتقدم تجربة " الهامامية " التي نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع .

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل في نبعين لعبا أهم الأدوار في حياته، أحدهما الصعيد والثاني تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة على تكوينه، الصلابة التي لاتعرف المساومة، الشجاعة في التمسك بالحق كالقابض على جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة على أن الوجه البحري يستقبل الموجات الوافدة على مصر. ويأتي من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلها تتشكل البوتقة المتوازنة التي تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس في كتابه مصر ورسالتها .. " لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التي تركز اليه ، وما من شيء تراه في مصر الا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد .

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه في كل ميدان.

أما النبع الثاني الذي استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التي أثرت في جيل بكامله ، يتمثل فيه أصل من أصول فكره في الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة ، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطني ضد الاحتلال البريطاني، وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصري من سيطرة الاجانب .

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة في الثلث الأول من هذا القرن، أي أنه عاش طفولته في فترة غنية بالتحويلات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت- بالضرورة- الى الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعي كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب الظاهرة الاستعمارية ، وتولدت شخصية المفكر الذي يبحث عن أجوبة في مواجهة أسئلة شديدة التعقيد ..

وأعرف بعض تجاربه الأولى فقد كان ضمن التنظيم السري للحزب الوطني ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب في السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية ، والتمسك الشديد بالمبادئ ، والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية ، وهم أصحاب شعار ، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء ، والذي يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا ، وعمل الكاتب بعد تخرجه في كلية الحقوق في مكتب أحد أقطاب الحزب الوطني وهو مكتب زكي علي باشا والذي تشرب منه مهنة المحاماة هي مهنة ، " إغاثة الملهوف والوقوف الى جانب المظلوم " .

وانتهى بكاتبنا الحال إلى أن أصبح محاميا في معظم القضايا السياسية والوطنية ، يصول ويجول في ساحات المحاكم مدافعا عن جميع القوى السياسية في التعبير عن نفسها، وحقها في تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسي الذي يردده ... " انه يتبرع ولكنه لا يتطوع "، كما قدم خبرته السياسية الى

كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما في د. عصمت سيف الدولة ثباته على مبدئه، باع نفسه لأمتة ولم يتحول عن ذلك قط ، وظل يجاهد على الدرب حتى لقي ربه .

وما احوجنا الى تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذي قاتلوا الانجليز في القناة عام ١٩٥١. بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو من القلائل الذين يقفون الى جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته على صنع المستقبل، ولا يرى كما هو شائع إنه لا يوجد أفضل من أيام شبابه . يقول .. " الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا إليها أكثرهم شعوراً بافتقادها أولئك الذين لا يكفون عن إدانة الشباب ، انها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتياال أنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم في شباب غيرهم بأن يعطوه لعله يسلك ما كانوا هم سالقيه لو كانوا شبابا" .

وياليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذي بدأ حكمه بسجنه وانتهى حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين بتهمة تشكيل تنظيم عربي في مصر، وفي آخرعهده أودع السجن في اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلاً في الزنزانة رقم ١٦ في ملحق ليمان طره .

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الى الثورة العربية. فمن الطبيعي أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب الى الفكرة العربية .

كان مكتبه في وسط القاهرة ملتقى العرب ، لا يكاد يصل زائر عربي الى القاهرة الا ويسرع الى مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية .

وكان الدكتور عصمت من النوع الذي تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به ، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا

للإعجاب ، كان في مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم ، ويستعمل أسلوب الاقناع الهادىء .

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية ، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة ، مع الاستفادة من تجارب الماضي ، لذا اهتم بكبريات القضايا التي كانت تشد اهتمام الانسان العربي ، ومن هنا كان تفهمه وفتحه على التيارات الفكرية المختلفة في كل انحاء العالم .

وبعيدا عن أي انفلاق في اطار الوطنية الضيقة ، يبحث دائما على وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية . ، ولا يكتفي بالعواطف والمشاعر المشتركة ، ولا يركن للتراث الثقافي المشترك وحده ، ومن كلماته المأثورة " أن قابيل قتل هابيل ، رغم الأخوة التي بينهما ، فلا يكفي مجرد الانتماء ، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك .

اشترك في كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومي ، أو في زمن التراجع والضعف ، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق مشروع النهضة العربية ، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة ، التي لها دور حيوي في حياة العرب ، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم .

وأجمل أيام حياته هي تلك الأيام التي كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية ، وبعدها وضع اهتمامه في دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها ، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل ، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع في قلب القضية العربية يقول في كتابه الاعتراف المستحيل .. " لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم افئدة الناس ، فيجزعون و تثير الاضطراب في عقولهم فلا يعقلون و تعمي أبصارهم فلا يبصرون حتى مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة ، ان المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية .. ان مسؤولية هذا الميلاد التاريخي لاتقع على الثورة الفلسطينية وحدها ، وإن كانت تتحمل قدرا من المسؤولية ، أما باقي المسؤولية فيقع على أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنهم تحت عنوان القوى القومية " .

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب ، وعندما أتجول في العواصم العربية ، التقي بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت أدهش لشعبيته في البلاد العربية التي تزيد كثيرا عن شعبيته في مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذي تأثر بأفكاره أجاب على الفور إنه. د. عصمت سيف الدولة ، وقد نشر الحديث في حينها في مجلة المصور .

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة ، وتوزعت كتاباته في موضوعات شتى وفي كتب متعددة، كان آخرها " مذكرات قرية " ، ويتميز الكثير من كتبه ، " الشباب العربي" ، و " ما العمل " و " النظام النيابي " ، و " مشكلة الديمقراطية " ، والطريق الى الوحدة العربية "، و " بيان طارق " ، و " الطريق الى الاشتراكية العربية " الذي أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم في إحياء الشعور بحق الشعب العربي في أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة .

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، في مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق الى الحرية، ولا يعرف أحد انه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا ، ولا تقتصر كتبه على القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرون وحريق روما .

وبعد نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يرى احلامه تبعد، وآماله لا تتحقق ؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا. كمن زرع الشجرة و سوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل - الكلمات ؟ !

قال الراوي :

ياسادة ياكرام سئل أهل الذكر عما يتذكرون من تطور الحياة فى القرية.

فقال فلان، وتذكر علان، وذكر ترتان، وكثير غيرهم مالا يخرج عما قاله آخرون، كل منهم، وقد أوهنته الشيخوخة، يجهدده اعتصار الماضى من ذاكرة ضامرة، يستبدل بمذكرات القرية جمعا ذكرياته عن ذاته فردا. لم يجب أحد على سؤال صريح عن تاريخ القرية جوابا صريحا. أهملوه. وتحدث كل من سئل عن أكثر ما يعرفه واقعية، ذاته والدور الذى أداه ومع الصبر الطويل على الاستماع طالت وعرضت وتفرعت الروايات فكشفت، وهى لا تجيب على سؤال محدد، عن مفردات من مذكرات القرية غير محددة . قد يجد من يريد فى تلافيف الروايات المائعة اجابة على السؤال الأصيل حتى لو لم تكن قاطعة فننتقى من ركام ما رواه أصحاب الحكايات ما قد يفيد من يريد ويكفيينا ما كشفت عنه الروايات من وقائع أولى بها المذكرات، ولكن ليس قبل أن نرجع إلى أهم المراجع لعلنا أن نعرف منه ما أخفاه الآخرون من تاريخ القرية وعله الاخفاء .

هز رأسه مرات ومسح على لحيته البيضاء ثم قال : إن بعض ماتريد ان تعرفه، ياولدى، ثم ابتسم والتفت وقال : يا أستاذ قد بقى مستورا فلم يعد مذكورا. تلاشى فى ظلام الستر..

لا تؤخذنى ياعم الشيخ إن قاطعتك . إنما هو الحرص على أن أروي عنك من مذكرات القرية ما قد لا يعرفه سواك . فقد كنت وكيل شيخ الخفراء، ثم شيخهم، والخفراء هم مثقفو القرية ، فما الذى تعنيه "بالستر"، أو ما الذى كان " يعنيه " الستر وقد وصفته بأنه كان ظلما .

آه . أصل المسألة أو الأصول التى نشأنا عليها فاتبعناها منذ قديم الزمان أن لا أحد فى القرية أفضل من أحد من أسرته ولا أسرة أفضل من أى بيت . ولا بيت أفضل من بيت فى عائلة. ولا عائلة أفضل من عائلة فى القرية . بصرف النظر عن العدد والثروة . كلنا أولاد فرج قداح . وهكذا ترى أن " الستر" هو الاخفاء . ليس

اخفاء أى شىء أو أى موقف بل اخفاء ما يعتبر عيباً أو عورة، ومع أن ناس " الهمامية " مثل كل الناس يختلفون فيما بينهم حول ما يهم الافراد والأسر والبيوت والعائلات أو القرية جميعاً فقد كان الاختلاف يتوقف عند حدود " الستر" الذى يحول بين أى فرد و " فضح " ما يدور فى الأسر والبيوت والعائلات ، فحين تسأل أى واحد منهم عن شىء مما مضى يروي لك ماضى من تاريخه شخصياً ، لا يستطرد إلى غيره خشية أن يهتك أسرار غيره وهذه فضيلة أم أنك لا تراها كذلك .

كيف تراها أنت فضيلة؟..

لست أنا فقط . القرية تراها فضيلة . ألا ترى يا ولدي كيف تنشئ كل عائلة منضرة مزوقة تنبىء عن أسرة مالكة ميسرة لاستقبال واکرام أضياف الفقراء من الأسرة سترا لفقيرهم . أو لا ترى كيف يكفلون فى أفراحهم نفقة الفرح لصاحبه سترا لعجزه عن نفقاته و يسمونها نقوطا . و يتكفلون فى الجنائز والمآتم سترا لعجز أهل المتوفي عن نفقاتها . كذلك يفعلون حين يسألون عن أمر القرية فيجيبون بأمرهم . انهم يتسترون على ما قد يعيب قريتهم بما يجيبون به عن أنفسهم ومع ذلك إن سألت صغيرهم عن "الغارة" التى سبقت مولده بخمسين عاما أو أكثر لروى لك تفاصيلها، لأن المصائب العامة شائعة فهى فى غير حاجة إلى الستر ولا تقبله وهى وحدها التى "يجوز" أن تنسب إلى القرية جملة بدون فضح فرد أو أسرة أو عائلة.. فاسألهم إن شئت أو إسأل من تشاء عما مر بقريتهم من مصائب عامة فتسمع منهم جميعاً ما يتذكرون فيذكره كل واحد منهم لا يختلفون فيه ولا يخفون منه ثم اجمع ما يقوله كل واحد إلى ما يقوله غيره، تعرف ما تقوله القرية.

مثلا ياعم عزيز؟.

إسألهم عن أيام السلطة . أو عن كوارث الفيضان . أو اسألهم عن اغتصاب أرضهم فى الجزيرة ..

نفعل بإذن الله .

الفصل الأول

السلطة

قال الراوي ..

(١)

منذ أن شاع أن يونس عبد الله قد عاد من "السلطة" قبل أن يعود غيره، وهو جالس في مقعد داره يحكى ويعيد لاينقص ولا يزيد لمن يحيط به من رجال وشباب وصبية بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم يكن أحد يعرف قبل أن يحكى يونس عبد الله.

استطرد قائلا: ربعد خمسة وأربعين يوماً في "الغليون" وسط البحور، رسونا عند بلد من بلاد الفرنسية اسمها "كالي". عرفنا اسمها فيما بعد حين كانوا يسمحون لنا بأن نذهب إلى تلك البلد كل يوم أحد " قال عشان إيه قال عشان تتفسحوا " . نزل الخلق إلى الرصيف قبل غياب الشمس. أكثر من خمسمائة من جميع البلاد لكن أغلبهم صعايدة . قسمونا فرقا كل فرقة من خمسة وعشرين نفرا من ضمنهم الرئيس . يعنى الفرقة أربعة وعشرين نفرا وفوقهم الرئيس . وكان من حظي أن فرقتنا فيها أنا من الهمامية وسبعة من الرياينة وستة عشر من قاو العثمانية. يعنى بلديات، وهذا من ستر الله . لأن " اللي تعرفه أحسن من اللي ماتعرفوش ". وعينوا ريسا علينا ثابت نصار ولد نصار معوض من العثمانية . ولد ولا كل الرجالة. واستلمنا واحد مغربي اسمه خليفة لابس ضابط فرنساوي ويتكلم عربى"مكسر" ليتفاهم معنا ، حطوا كل فرقة فى عربية "كمبيل" كبيرة وساقوا بنا مسافة كمثل المسافة بين بلدنا والبداري . دخلنا فى المزارع . مزارع لا لها أول ولا لها آخر، ولا فيها جبل ولا بحر، بعد حوالى ثلاث ساعات وصلنا منطقة المعسكرات. خيام وعساكر وعربيات ومدافع بالالوف . أدخلوا فرقتنا خيمة كبيرة، وسلموا كل واحد ثلاثة ألواح من الخشب يرصها على الأرض وينام عليها. وثلاث بطاطين صوف يفرش واحدة ويتغى بواحدة والثالثة يفرشها أو يتغى بها أو يعمل منها مخدة

"هو حر " . وأعطوا كل واحد خد جزمة جلد برقبة طويلة لحد الركبة منها فيها. كنا ميتين من التعب وجعانيين . الريس ثابت كلم خليفة المغربي فى مسألة الاكل . قال الأكل بالميعاد و " لسه فاضل على العشا ساعة وربع " .. ناس تعبانة نامت من غير أكل والجعان انتظر. فى الميعاد جاءت عربية طويلة تجرها أربعة خيول فوقها " قازانات " مثل البراميل. وقفنا قدام الخيمة طابورا وكل واحد صحنه فى ايده . واحد فرنساوى صب فى صحن كل واحد مغرفة سليقة فيها " حاجة " زي قرى العصيرة. وأعطاه باكو ورق ملفوف ورغيف عيش طويل " ومبروم " وملأنا الجرادل ماء. كانت السليقة ساخنة حين غرفوها ولكنها بردت بسرعة وظهرت عليها طبقة سميقة من الدهان الأصفر، " زي الزبدة " . شربناها. فتحنا "البواكي" لقينا فيها لحم ورز. اللحم أغلبه دهن " زي لية الخروف " . والرز أصفر "زي الكركم " . رائحة الاكل زفرة . ولكننا "جعانيين يابوي" فأكلناه ونمنا...

بعد نصف ساعة الولد قبيصي ولد سالم من "أولاد مصبح "من " الرياينة "عيط على الريس ثابت " ياريس ثابت. ياريس ثابت. صحونا على صوته. ما الذى بك يا قبيصي أقلقت نومنا الله يخرب بيت أبوك . قال وهو يتلوى : ياريس ثابت " عاوز أعمل زي الناس بطنى وجعانى . فإلى أين أذهب " . أخذه الريس ثابت ليذهب إلى بيت الراحة وهو خيمة صغيرة قريبة. ولكن ما أن خرجنا حتى سمعنا صوت قبيصي وهو يستفرغ ويتأوه . عاد. فسألنا قبيصي مم يشكو. فقال ، " والله العظيم ، . والله العظيم ، ثلاثة بالله العظيم أن أولاد.. الكلب الكفار دول شربونا سليقة خنزير ووكلونا لحم خنزير .. يعنى قرفان يا قبيصي قال : آى . قلنا طيب نم والصبح رياح ونشوف شغلنا معاهم . فسكت ونام . لكن احنا توغوشنا ومصارينا كركبت. انما "برضه "نمنا من التعب.

أيقظونا فى الفجر.. كل واحد يطبق البطاطين ويضعها على الألواح . وأعطونا صابونة بريحة. غسلنا وجوهنا وتوضأنا وصلينا الصبح بعد أن سألنا المغربى عن القبلة. وفطرنا عيش من المبروم " أصله مافيش غيره " ولبن بارد وجبنة ملفوفة فى ورقة وشربنا قهوة خفيفة "زي الشاي الخفيف " . وأخذتنا العربيات ومشيت

بنا ساعتين أو أكثر وسط الخيام، وساعة في المزارع بعد أن فارقنا المعسكر.. وقفت بنا عند جمع من الضباط والمهندسين في أيديهم خرائط وقد رسموا الأرض بالجير الأبيض خطوطا ممتدة إلى مالا نهاية وقالوا لنا احفروا ابتداء من هنا ما بين الخطين على عمق متر.. أما الرديم فيلقى بالجرادل في الجهة الشرقية مثل الجسر..

كان ذلك هو عملنا من الصبح إلى الليل كل يوم ماعدا ساعة في الظهر للغداء ويوم الأحد . يوم الأحد تأخذنا العربيات ومعنا المغربي خليفة وتودي بنا إلى كالي " علشان ايه قال علشان تتفسحوا". نمشي في الشوارع الفرنسية وأغلبهم رجال "عواجيز" وحريم وعيال يشيرون إلينا ويضحكن. خليفة المغربي تركنا ودخل أحد البيوت " قال إيه قال علشان نبقى على راحتنا ". لما نتعب من المشي ونحب نقعد على قهوة الأهالي يمنعونا. مرة بعد مرة " معدناش نروح لا كالي ولا بالي" .. وقعدنا في المعسكر.

بعد شهرين كنا قد حفرنا ثلاثة كيلو . " زي من هنا للريانة " . والريس ثابت عرف يتعامل مع الفرنسية. مسك عليهم مسكة وعلمنا حيلة. حيلة ولكن نفعت. أهم ما يهمهم هو الا نتوقف عن العمل.. فكلما أردنا شيئا نتأخر في النوم فيأتي الفرنسية ويرطنون بلسانهم فيقول المغربي أننا لا نريد أن نشغل لأن الجراية قليلة فيعطونا المزيد . كل ما نريد حتى الشاي الثقيل حتى الدخان حتى اللحم الأحمر لا نطلبه. تعلمنا أننا إذا طلبنا لا نحصل على ما نطلب ، وأن " الناس تخاف وماتختشيش " . وسلاحنا جاهز. نتوقف عن العمل وثابت يقول : " أصل الرجالة عاوزين كذا فيحضرونه على طول ". وانبسطنا اخر انبساط .. إلى أن جاء الشتاء..

المطر مثل السيل ينحط من أفواه قرب مفتوحة في السماء . الأرض برك صغيرة وطين. ألواح الخشب تغرز في الأرض . الوحل يتجمع داخل رقبة الحذاء فتثقل أقدامنا. ما حفرناه أصبح مثل الترع أيام الفيضان . ننزح المياه بدلا من الحفر فيدفع المطر طين الجسر إلى ما حفر. وجبات الاكل تتأخر لانقطاع الطرق. أشنع من

هذا أن مياه المطر الجارفة تملأ حفر المراحيض فتفيض "الوساخة" وتسيل حتى تدخل الخيام وترى الفضلات عائمة في برك المياه كالضفادع. ثم البرد، البرد. أعوذ بالله من الزمهرير. هم يتقونه "بالخمرة" ليل نهار يشربون خمرا. أما نحن فنعود بالله من "الخمرة". يلف الواحد بطانية صوف حول رأسه لا يترك مكشوفاً منها إلا أنفه. يخرج من الخيمة فيشعر أن أنفه وقع. غير موجود. يتحسسه بيده ليطمئن فلا يحسه لأن أصابع يده لم تعد تحس من البرد. وفي ليلة سوداء، وبالمناسبة حتى النهار هناك أسود لأن الشمس لا تطلع طوال الشتاء، أقول في ليلة سوداء، نزل الثلج بدلا من المطر ونحن نيام. وكان الولد قبيصي "عيان" منذ ثلاثة أيام ولم يحضر له دكتور لأن السيول قطعت الطرق. كان نائماً بجوار طرف الخيمة. الريح قلعت التود فدخل الثلج في الخيمة وردم قبيصي. استيقظنا في الصباح وجدنا أنه مات وجسمه أزرق "زي النيلة". أول واحد منا يموت في الغربية. طلبنا ماء ساخنا لنغسله ثم نصلي عليه وندفنه بأيدينا. لا.. قالوا لا. أخذوه منا ولفوه في بطانية ورموه في صندوق عربية خشبية يجرها بغل أخذته إلى حيث لا ندري. يومها لم نذهب إلى العمل. عملنا جنازة في الخيمة وجاء خليفة المغربي ومعه مصحف قرآن وبقي الرئيس ثابت طول النهار يقرأ قرآن ونحن صامتون لا نتكلم. لم نأكل. رفضنا الأكل. كان كل واحد منا يفكر أن عليه الدور وأنه سيموت كما مات قبيصي في الغربية من غير غسل ومن غير صلاة. في العشاء قال الرئيس ثابت "كلوا يارجالة عشان عايزين نتكلم" أكلنا وتكلمنا واتفقنا على ألا نعمل ووضعنا أيدينا على المصحف وتعاهدنا على أن نبقى يداً واحدة حتى نعود إلى بلادنا. في اليوم التالي أحضروا الإفطار فأوصانا الرئيس ثابت أن نأخذ منه كثيراً "احتياطي" ربما لا يدوم. أخذنا ورفضنا الذهاب إلى العمل. قال لهم خليفة المغربي أنهم يقولون أنهم لن يعملوا أبداً، وقد ألقوا العهدة خارج الخيمة، وأنهم يريدون العودة إلى بلادهم. في اليوم الثالث قطعوا عنا الأكل إلا الإفطار. رابع يوم دعونا في الصباح إلى الخروج من الخيمة، أمرونا بأن نلتقط العهدة. الرئيس ثابت قال: "كل واحد ياخذ كريك وبلاش الجردل". لم نفهم ماذا يريد ولكن نفذنا ما أراد. أخذونا وراء صف

الخيام، ووقفونا صفيين وأمامنا الرئيس ثابت المطر نازل فوق رؤوسنا. وأمامنا صف عساكر " ماسكين سلاح ". قال خليفة المغربي أنه ذاهب ليرى حتى متى ذاك الوقوف. ثم حذرنا من أن نقعد وأنذرنا بأن العساكر ستطلق النار على من يخالف الانذار. طالت غيبة خليفة . قال لنا الرئيس ثابت وهو غضبان : " انتم رجالة ولا حريم ". قلنا : "رجالة " . قال : " الرجل من ظهر أبوه وشارب من بز أمه يقعد" .. قعدنا كلنا مرة واحدة. العسكر استغربوا الحركة. ولم يطلقوا " لا نار ولا حاجة زي مقال خليفة " . لقد ذهب " ولد الكلب " ليحتمي من المطر . فلما توقف المطر عاد ومعه خمسة ضباط ومعهم "جن النار" (جنرال). ووقفنا ووقف قدامنا الرئيس ثابت. أنا كنت واقفا في الصف الخلفي. أخذ، "جن النار" يتكلم بلسانهم وخليفة يترجم بالعربي . أول الكلام حلو أنا زرت مصر وأحب مصر وأنتم مثل أولادي وأنا عارف ظروفكم لكن نحن في حرب ، وأولادنا يموتون كل يوم، وليس في الحرب " حكاية أشتغل وما اشتغلش " ، لابد لكم من أن تشتغلوا ولو بالقوة . " لازم تعرفوا كده كويس " . وارتفع صوته وهو يقول : ثم أنى أعرف حالتكم قبل أن تحضروا إلى هنا. انكم متعبون ولكنكم تعيشون حياة الادميين بدلا من حياة الكلاب التي كنتم تعيشونها في بلادكم .

ما أن قال هذا حتى سمعنا الرئيس ثابت يصرخ ويقول: " يوه. عيشة كلاب ياولد الكلب ". وطخ ضرب "جن النار" الواقف قدامه بالكريك في صدره شقه وقع " مانطقش ". والعساكر والضباط ضربونا بالنار " طوالي " وقعدنا كلنا. بعد أن توقف اطلاق النار بصيت بعيني وأنا نايم فوجدت الرجال كلهم "غرقانين في دمهم " . ماتوا كلهم وأولهم الرئيس ثابت ضربوا فيه الرصاص ففتتوا جسمه. لمحني خليفة فجاء ووقف فوق رأسي وقال لي لا تتحرك . بعد نصف ساعة جاءت العربة الخشبية التي يجرها البغل . لا. جاءت عربتان يجرحهما بغلان ، وبعد أن يتأكد العساكر من موت الواحد يلقوه في العربة كما هو. وصلوا عندي فقال لهم خليفة كما قال لي بعد ذلك أنه جريح ولا يجوز قتل الجرحى . والآن سأحملك إلى المستشفى . وحملنى على ظهره وأنا "عامل نفسى ميت " حتى خيمة المستشفى . هناك قال لي خليفة

هامسا تحرك حتى لا يظنوك ميت فحركت رأسي وفحصوني وانتهوا إلى أنني غير مصاب بل أغمي عليّ . حبسوني في خيمة صغيرة وعينوا لي حارساً . وبعد أسبوع أخذوني إلى كالي . ومنها إلى "غليون " وصلت بورسعيد بعد خمسة وأربعين يوماً ، وهناك تركوني على الرصيف. مشيت لغاية الاسماعيلية وسألت عن محمد سلمان. رجب بي وأعطاني جنيهاً و" نص " . وهنا أنذا عدت.. والحمد لله.. "

قال شيخ جالس : حمد الله على سلامتك. شوف حكمة الله . "ماحدث راح السلطة من الهمامية غيرك. وما حدث رجوع من السلطة حي غيرك . نجاك الله وجزاك خيراً على ما عملته.. قال يونس : الحمد لله . والله تعبت وتعذبت كثيراً ولكني ، ويعلم الله ، غير نادم على ما عملته..

ما الذي عمله يونس؟..

(٢)

أصل الحكاية وفصلها أنه في صيف عام ١٩١٤ اندلعت حرب مجنونة بين دول أوروبا. حرب مثل المعارك التي تنشب بين رواد المقاهي في المولد. تبدأ بضربة تطفئ "النور" وتخليها ضلماً "ثم يتعارك الجميع .. يضرب كل واحد القريب منه قبل أن يضربه بدون أنه يكون ثمة سبب إلا أن المعركة بدأت. وهي فرصة للهروب من دفع اثمان المشروبات على الاقل. كذلك فعلت دول أوروبا المتجاورة في قارتها . ضرب شخص مجهول من الصرب الارشيدوق فرديناند بالرصاص في سراييفو فقتله . فضربت النمسا الصرب . فضربت المانيا فرنسا وبالمره ضربت بلجيكا. فضربت روسيا هنغاريا. فضربت تركيا روسيا . فضربت انجلترا المانيا . فضربت ايطاليا النمسا .. الخ وانداحت أمواج العنف المجنون من أوروبا حتى اجتاحت الكرة الأرضية فأسموها الحرب العالمية وهي حربهم . المهم أن أمواجها قد أغرقت مصر واندفع منها تيار من الإثارة هز الحياة في مركز البداري . وامتد إلى الهمامية فدخلت الهمامية الحرب العالمية.

أما بالنسبة إلى مصر فقد كانت تحت الاحتلال الانجليزي والانجليز طرف في الحرب، وكانت في الوقت ذاته تابعة لتركيا (العثمانية) وهذه دخلت الحرب ضد

انجلترا وحليفاتها روسيا وبالتالي باقى حلفائها. فقطعت انجلترا خيط العنكبوت الرسمي الذى كان يربط مصر وتركيا ، وفرضت الحماية على مصر فأصبحت مصر تابعة لها. واكتمل الاحتلال الانجليزي شكلا بعد أن كان موضوعا. كان الجنرال كتشنر الحاكم الفعلي لمصر، قبل الحرب فى لندن عاصمة انجلترا حين اندلعت الحرب. وكان الخديو عباس الثاني ، الحاكم الصورى لمصر، قبل الحرب فى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية حين اندلعت الحرب. لم يعد أيهما إلى القاهرة مقر سلطاته الفعلية أو الصورية. أصبح كتشنر وزير الحربية فى الحكومة الانجليزية فلم يعد ومنع الانجليز عباس الثانى من العودة وعزلوه فلم يعد. وفرض الانجليز الاحكام العسكرية على مصر ووضعوا أرضها وشعبها تحت تصرف قادة الحرب التى لا يعلم سببها أهل مصر.

أما بالنسبة إلى مركز البداري خاصة فقد كان الانجليز يفتشون عمن يلي العرش الخديوي بعد عزل عباس الثانى . كان أمراء ونبلأ أسرة محمد علي قد رفضوا توليه فشاع فى القاهرة همسا وأشيع فى مركز البداري جهرا أن الانجليز قد اختاروا محمود باشا سليمان ليكون ملكا على مصر. محمود باشا سليمان هو عميد " بيت الباشا " وكبير عائلة السلينية التى مركز تجمعها قرية ساحل سليم التابعة لمركز البداري . فاعتبر أهل مركز البداري جمعا أن قد ال إليهم الملك جميعا. فتقاطر أعيان القرى وعمدها ومشايخها وكل ذي رداء لائق مملوك أو مستعار، على "سراى" بيت الباشا فى ساحل سليم . عشرات أو مئات يفدون يوميا راجلين أو راكبين ليقدّموا التهنئة على المُلْك مصحوبة بفروض الطاعة مقدما. وهناك يجدون أن الحكومة كلها هناك. المدير ووكيل المديرية والحكمدار من أسيوط ، يحييهم تحية عسكرية المأمورين وضباط الشرطة من مراكز مديرية أسيوط . البدارى وصدفا وأبو تيج . بعض الوافدين يحمدون الله على أن عاشوا حتى دخلوا سرايات الملوك وصافحوا، بأيديهم، الامراء. وبعضهم يحلم بمستقبل مثل ما كان للاغوات والحجاب وابناء الجواري فى سراي عابدين . يزكي أحلامهم مايلمسونه من تواضع رجال الحكومة أمام الامراء الجدد اذن ، اشارة من الامير ويحقق "بلدياته" حلمه ، ويزكيها من كان

يستقبلهم ويصافحهم ويوحى إليهم بما يحلمون، أذكى أبناء محمود باشا سليمان وأظرفهم وأكثرهم سخرية وعبثاً بأحلام الناس، حفى محمود، ولقد أوحى حفى بك إلى الملك إلى من يستحقه. فاقام العمدة الأفراح الشعبية . واقترح عليهم أن يمنعوا الفتيات من الاستمرار فى ترديد تلك الأغنية المعبرة عن حب عباس الثاني .

"بحرّ بابور عباس. قبلّ بابور عباس. وأسق دهابية. من مصر لاسطنبول. شبك الهوى فيه"، والاعلان عن جائزة لمن يؤلف من مدرسي المدارس أغنية بديلة تعبر عن " حب " محمود. وحين أعلن أنه قد قبل الاميرحسين كامل ، عم عباس ، أن يكون سلطانا على مصر لم يصدق أهالي البداري الخبر الا بعد أن اختفى من ساحل سليم " الامير حفى". ولقد عاد الحديث والحلم مرة أخرى حين رفض الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان أن يكون ولي عهد سلطان ولاء الانجليز. ثم تبدد الحلم نهائيا حين قبل الأمير فؤاد الابن السادس للخديوى اسماعيل مارفضه الأمير كمال الدين حسين . المهم أن أهالي مركز البداري قد عاشوا شهوراً فى حالة هياج عاطفي وأحلام خيالية واهتمام منفعل " بالسياسة العليا " منحازين افتعالاً ثم فعلاً إلى استحقاق "بيت الباشا" للملك. ولقد بقوا على هذا الانحياز حتى بعد أن انحسرت أمواج الحرب التي لم يكسب منها إلا " بيت الباشا " .. كسبوا الولاء غير المحدود وارتفعوا عند الشعب إلى منزلة ملوك الاقطاع فى أوروبا. نقصد شعب مركز البداري . وستبقى لهم تلك المنزلة أمدًا طويلاً حتى بعد أن ساعدوا السماسرة المحترفين على دفع الشعب إلى أتون الحرب.

فقد حصل رجل من مصر اسمه الشيخ الدمرداش على "امتياز " امداد جيوش الانجليز وحلفائهم "بمتطوعين " من أبناء مصر يعملون وراء خطوط القتال فى الجبهة الغربية من أوروبا وفي الجبهة الشرقية من سيناء وما يليها شمالاً، وله عن كل رأس "متطوعة" قرش . لم يتطوع إلا قليل من المعدمين. فانهى الدمرداش إلى رجال السلطة الانجليز أن رجال الادارة المصرية يحرضون الناس على عدم التطوع . فصدر الأمر من رجال السلطة الانجليز إلى رجال الحكومة المصرية الذين أبلغوه إلى

رجال الادارات المحلية بأن يساعد هؤلاء ممثل الدمرداش على جمع "المتطوعين" من القرى . فوضعوا لذلك نظاما عاما. يحضر العمدة والمشايخ والخبراء الرجال ما بين سن العشرين وسن الأربعين من غير المتزوجين والذين لا يعولون في كل قرية أمام لجنة "تطوع" يرأسها المأمور. يعرض عليهم المأمور التطوع ويغريهم به ويشجعهم عليه ويحصل على قبولهم توقيعا أو بصما على اقرار بالتطوع والتزام بالحضور يوم استدعائه. يتم كل هذا في القرية تحت رقابة مندوب الدمرداش وحراسة رجال البوليس . يطلب العدد الذي يختاره مندوب الدمرداش في الوقت الذي يحدده. من يحضر يرحل إلى حيث لا يدري أحد . ومن لا يحضر يضبط " لاخلاله بالتزامه اضرارا بالمجهود الحربي " لا يفلت أحد منهم إلا إذا أحضر متطوعا بدلا منه.

ولما كان هذا لا يمكن أن يحدث في مركز البداري إلا إذا صادق عليه " بيت الباشا" مثل أي شيء اخر فقد صادقوا عليه. فبدأ التنفيذ مطاردة للشباب بدون نظام و تطويعهم " كرها ثم ترحيلهم إلى حيث لا يدري أحد. ومع ذلك لم يخطر على بال أحد من الفلاحين في قرى مركز البداري أن لبيت الباشا يدا فيما اکتوت به قراهم وعائلاتهم وبيوتهم وأسره من نيران الحرب ونسبوه إلى نير الحكومة. فعادوا يطلبون الغوث من بيت الباشا. والواقع أن قد أغاثهم بعض "النبلاء" أو من د ونهم من أطراف العائلة العتيدة ووسطاؤهم من العمدة والمشايخ . من يطلب للجندية في جيش الحكومة يعفى منها إذا ما افتدى نفسه بعشرين جنيها. والجندية لمدة محدودة وداخل الحدود، ولما كان " المتطوع " للخدمة لدى "السلطة" يعتبر كالمفقود كان عدلا ألا يعفى منها إلا إذا افتدته عائلته بأربعين جنيها يقبضها وسطاء النبلاء من العمدة ويقتسمونها مع مندوب الدمرداش فيعود المتطوع إلى أسرته، ويعبر أهله عن الولاء لبيت الباشا بمزيد من الدعاء، وأصبحت تجارة ، ومهما يكن في التجارة من خسارة فإن البقاء في القرية ودروبها خير من الفناء في أوروبا وحروبها ، ومع ذلك فإن أحدا من قرية الهمامية لم يذهب إلى السلطة إلا واحدا هو يونس عبد الله . ذهب متطوعا فعلا أما الباقون فلم يتطوعوا ولم يطوعوا ولم يدفعوا.

فقد صحب الشيخ عباس صديقه يونس عبد الله يوما الى البداري ، وقدمه إلى مكتب البريد "لاعتماده " نائبا عنه في استلام ما يرد إليه من صحف ورسائل إذا لم يحضر بذاته، ثم دعاه إلى "البورصة" التي اعتاد أن يجلس فيها كلما ذهب إلى البداري ، بورصة الخواجة كوستا. كان يونس يعرفها كما يعرفها كل الذين يترددون على البداري يوم سوق الاثنين . إنها في زاوية- من الدروب التي تقاطع شارع المركز. يتأملها الفلاحون ويتهيبون دخول أبوابها الزجاجية اللامعة. على واجهتها لافتات ملونة عليها كتابات وصور زجاجات ، يتردد عليها الحكام والاعيان، يعلوها مسكن من طابق واحد له شرفة بارزة تطل على الدرب وشارع المركز. يحملق فيها بعض الناس حين يرون زوجة الخواجا كوستا البدينة تقرأ "الجرنان " واضعة فخذا ملفوفة على ساق مكشوفة فيستعيدون بالله من الشيطان الرجيم . ويتناقلون من أخبار كوستا أنه قد اشترى وارتهن كثيرا من أطيان الأعيان في البداري ، ويقولون أن أمواله حرام لأن بورصته خمارة. لم تكن أمثال تلك البورصة غريبة على الشيخ عباس، أنها مرصوفة في شارع القاهرة وقد ارتادها كثيرا، فهي مقاه لمن لا يشربون الخمر وخمارة لمن لا يشرب القهوة، وهي مطعم لمن يلتمسون الطعام . فما أن وقع نظره عليها في البداري حتى دخلها مغتبطا بدخوله قطعة من القاهرة . استقبله الخواجا كوستا لا مباليا ثم مباليا حين وجده يطلب قائمة الطعام ويتحدث بلهجة شبه قاهرية. فاعتذر له بأن ليس عنده قائمة طعام فلا أحد في هذا البلد يحتاج إلى ما يرشده إلى ماذا ياكل. أنهم يطلبون ما يعرفون. قال وماذا تفعل مع من لا يعرف. قال نختر له، هل تشرب شيئا. قال لا. عاد كوستا ووضع أمامه خبزا وشريحة من اللحم بجوارها خضر مسلوقة وملعقة وسكين ثم وقف وسأل مبتسما : فيه حاجة ناقصة؟ أهو اختبار يا خواجة. ناقص الشوكة... فضحك كوستا وأخرجها من جيب ردائه الأبيض وقال : فعلا" خذ يا خبيبي الشوكة "

جلس إلى جوار الشيخ في انتظار توافد " الزبائن" بعد انتهاء عمل الموظفين في المركز والمحكمة

وتعارفا. وأصبحت بورصة الخواجة كوستا مقره كلما وفد إلى البداري . عرف من أمرها أنها ليست مجرد مقهى أو مطعم أو خمار، أنها قبل كل هذا وفوقه ناد للقمار ذو باب خفي وراء "البار" يفتح على حديقة خلفية أعدت للاعبين من كبار رجال الادارة والأمن وصغار الاعيان والعمد وأبناء كبار المالكين. يتسللون إليها كل مساء يشربون وهم يتناولون العشاء ثم يلعبون مقامرين ببعض ما يملكون أو بكل ما يملكون ، ويقوم كوستا منهم مقام البنك . يقدم القروض، ويقتضى العمولات، يعتمد الرهونات، و يتسلم " الكمبيالات " .. ويضاعف أثمان المأكولات والمشروبات. فى منتصف الليل يغادرون البورصة تسلا من بابها الخلفي ، باب الحديقة .

كان لابد له من أن ينتظر كل يوم فى البداري حتى الساعة الثالثة مساء ليتسلم الصحف ثم ليعود مع من يكون عائدا من المركز أو المحكمة أو السوق تبديدا لملل السفر الطويل على حمار مطهم ولكن رتيب الخطوات، فلاحظ أنه فى تمام الساعة الثانية وعشر دقائق بالضبط من كل يوم يدخل من الباب الرئيسي للبورصة رجل فى نحو الثلاثين من عمره، محكم الاناقة يلبس طربوشا طويلا مائلا على رأسه ، وحول رقبته " ياقة " منشأة معقوفة يتدلى منها رباط عنق يحمل مشبكا مذهبا يثبتته فى القميص، وتبين من جيب السترة الأعلى أطراف حريرية بيضاء على شكل ثلاثة أهرامات متجاورة متدرجة الحجم . له شارب طويل رقيق دقيق . كأنه صورة من المرحوم مصطفى كامل باشا أو لعله كان يجتهد فى أن يكون كصورته. يتقدم إلى مائدة معينة فى ركن قصي من أركان البورصة ، يرفع عن رأسه طربوشه بيده اليمنى ويضعه على مقعد على يمينه. ثم يجلس. ويلقى بمذبة سوداء الشعر بيضاء المقبض على مقعد على يساره . فيكون كوستا قد انتهى من الترحيب به ترحيبا كبيرا، وأحضر له طعاما لا يتغير أبداً يحضره بدون أن يطلبه. فيأكله صامتا. ثم ينطق فيطلب قهوة بصيخة ثابتة : " أهوه سادة يا خواجة " . حتى إذا ما انتهى من طعامه وشرابه، تناول طربوشه ووضعه باحكام على رأسه مستعملا كلتا يديه ثم رفع مذبته من مقعدها، وانصرف كما جاء .

لفته انضباط ذاك "الزبون" على مواعيده وحركاته ومائدته وطعامه وشرابه وحضوره وانصرافه قبل أن يحضر آخرون ، انضباطاً لا يتفق مع شبابه . عرف من كوستا أن حسين أفندي فريد، باشكاتب المركز ، وأنه من عائلة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني ، كان موظفاً في وزارة الحقانية بالقاهرة، فجنت عليه قرابته فنقلوه إلى مركز البداري - أنه لا يخالط أحداً، فشاع أنه "متكبر" في حين أن المخالطين له في المركز من صغار الكتبة والعمال والفراشين يذكرونه بكل خير، وأن بينه وبين المأمور مودة مفقودة . يقال لأنه في عمله لا يراعي تقاليد وظيفته فيتبسط مع أصحاب المصالح البسطاء من الأهلين إلى درجة أنه قد أعد في حجرته "الميري" أريكة طويلة يجلس عليها صاحب المصلحة بدلا من الوقوف انتظاراً للبت فيما يعرضه .

فصم على أن يتعارفا .

ما أن أهل حسين أفندي فريد من باب البورصة يوماً حتى دعاه الشيخ بلهجة واثقة : تفضل يا حسين أفندي ، وقف حسين أفندي مندهشاً ولم يتقدم ملبياً . فتقدم إليه مبتسماً وقال : لماذا أنت مندهش . ألا تريد أن تسمع أخبار القاهرة من وافد جديد منها . أجاب بابتسامة فيها فضول وهم بأن يسير معه في اتجاه مائدته ، قال الشيخ : لا . لا أحرمك من مائدتك المفضلة فلا تغير عادتك واتجها إلى حيث اعتاد الباشكاتب قضاء وقته . جلس على المقعد الرابع المقابل لمقعده وترك للباشكاتب مقعدي الطربوش والمذبة، فأدرك هذا دلالة الاختيار وضحك ضحكة محسوبة الجرس ومع ذلك كانت بداية موفقة إلى ألفة موثقة . اعتذر الشيخ فتحدث طويلاً . تحدثاً طويلاً، حديثاً بعضه جاد وبعضه مرح . تنبئ نهايته بأن ألفة سريعة قد جمعت بينهما . فقد تصافحا يدا في اليد، واليد الأخرى قابضة على أعلى الذراع إلى أن فرغت كلمات الوداع والتواعد . ولقد تكررت المقابلات، وفيها عرف الشيخ من الباشكاتب قصص الحديقة الخلفية، وكيف يفسد ما يدور فيها مناخ الإدارة، ويعوق ما يجري فيها مجرى العدالة حين يخسر أصحاب المصالح عامدين ليكسب أصحاب القرار في تلك المصالح، فتتعقد الصفقات بالاشارات وتنقضي الحاجات بالتأشيرات، وقصصاً أخرى كثيرة مما يجري للمخمرين .

ولقد سأله عما يقال عن ود مفقود بينه وبين
المأمور فأثنى على المأمور ثناءً بليغاً ، قال إنه
رجل أمين وكفاء و" وطني " ، ولكن المشكلة هي أنه في
بلادكم هذه لا تريد العائلات المتصارعة أن تتركه يؤدي
واجباته . كل منها يضغط عليه ويحاول أن يجرح ذمته
أو يلين قناته ولهم في هذا طرق متنوعة، أهمها على
الاطلاق واثقلها على" البية المأمور" ما يأتي إليه من
"ساحل سليم " من توصيات ورغبات لا تتفق دائماً مع ما
يراه عادلاً. والرجل يعلم أن مصيره معلق بكلمة ضده
تذهب من هناك إلى من في أيديهم مصيره. ولقد استطاع
حتى الآن أن يدافع عن نفسه ولا يغضب أحداً بطريقة لا
يبررها إلا الدفاع عن النفس، فهو يوافق على ما يأتيه
من توصيات ورغبات بتأشيرات عامة تحتل التأويل ، ثم
يعرقل التنفيذ لمعرفة أنه أن كل طلب غير عادل ينطوي في
جزئياته على ما يخالف القانون . ويغطي كل هذا
بالمجاملات الكلامية. أما عن أعيان المركز ورؤساء
العائلات فيه فقد رأى أن يفرض على نفسه وعليهم أيضاً
أسلوب التعامل الرسمي الجاف. ليس في مكتب المأمور
إلا مقعد واحد يجلس عليه الموظف الذي يعرض عليه
الأوراق، وعلى باب المركز صندوق لتلقى الشكاوي أو
الطلبات يحتفظ هو بمفتاحه ، ويحمل بنفسه كل ما فيه
كل يوم إلى منزله ليدرسه، وهولا يغادر منزله. ولا يقبل
" العزومات " إنما يحضر جناز كبار القوم مجاملة.
إنه مكروه و لكنه محترم. لا يعترض على أية أوامر
تأتيه ولكنه لا ينفذ إلا ما يراه عادلاً . هذا السلوك
يتفق " طبعاً " مع منصبه " كرئيس " للمركز . إذ لا
يوجد " رئيس يقبل مختاراً أن يصبح " !مرؤوساً لأشخاص لا
يشاركونه مسئولية ادارة المركز ولا يكفون عن التدخل
في ادارته، وهو يريدني أن أحتذي حذوه بعد أن شرح لي
الأوضاع وحذرنى من "رفع الكلفة " بيني وبين الأهالي .
لم أوافق له لأنني لست رئيساً مثله ثم لأن الذي يترددون
على مكثبي هم من بسطاء الناس ذوي المصالح البسيطة،
وهؤلاء لا أحب أن استعلي عليهم في حين أنني في خدمتهم
أو المفروض أن أكون كذلك . هذه هي المسألة فلا تستمع
إلى من يقول أن بيني وبينه ودا مفقوداً، ولا تستمع
أيضاً إلى من لا يعجبهم المأمور، بالعكس من الممكن لأي
مواطن أن يتكل على عدالته بدون أن يطلبها، اللهم إلا
إذا تدخل أولئك الذين لا طاقة له بهم : بيت الباشا.

أصبحا صديقين جادين فيما يدور بينهما من حديث وهما يتناولان الطعام معا على مائدة واحدة كلما التقيا. فلما دخل الشيخ عباس البورصة، جارا يونس عبد الله من كمة تشجيعا، قدمه إلى حسين أفندي فريد بوصفه " صديقي وبلدياتي يونس عبد الله " ، فجلس يونس عبد الله على مقعد خامس مع باشكاتب المركز شخصيا على مائدة واحدة في بورصة كوستا وتبادلا الحديث في يوم من أيام عمره لاينساه .

جاء يونس عبد الله مهرولا إلى أن انتهى إلى الشيخ عباس في " منضرتة " فأنهى إليه أنه كان في سوق "الاثنين " في البداري ، وكان مارا بجوار المركز حين أدركه على فلفل الفراش وطلب إليه أن "يكلم البية الباشكاتب " ، الذي لمح من نافذة غرفته . فلما ذهب إليه قال : قل للشيخ عباس أنني أريد أن أراه غدا أو بعد غد على الأكثر في البورصة كالمعتاد، فلما ذهب إليه في الغد تحدث إليه حديثا حميما .

قال : أنه في نطاق إحكام الانجليز قبضتهم على الادارات المحلية قد صدرت التعليمات بإشغال وظائف العمدة الشاغرة. وأنه قد وقع اختيار المديرية على من رشحه عبد الرحمن بك محمود ليكون عمدة الهمامية. أنه صديق محمود حماد. انهدهش الشيخ وقال : كيف؟ أنه كالغريب فهو من بيت ليس له عائلة فكيف يحكم العائلات. ضحك وقال : لقد رد المأمور على ضابط المباحث حين قال ما قلت . قال المأمور: هذا اعتراض مرفوض مقدما لأننا لسنا في وقت أهل الكفاءة بل وقت أهل الثقة ، ونعرف كلنا أن صديق كان من سنين طويلة أذن الادارة وعينها في الهمامية والقرى المجاورة، ولعب دورا مشهودا في الارشاد عن مخبأ سند عثمان، كما أنه أذن وعين وذراع عبد الرحمن بك محمود في مراقبة حراس وزراع جزيرة الحكومة التي يستأجرها في الهمامية، وردعهم إذا اقتضى الأمر، فهو يتردد كثيرا على " ساحل سليم " وله حظوة لدى من رشحه. فقال الشيخ : هل معنى هذا أن المأمور موافق . قال حسين أفندي : لا. هو غير معترض وغير موافق.

هذه هي طريقته. لقد أعد ردا على اخطار المديرية لا يتضمن اعتراضا إنما " يضع تحت نظر المديرية لما

أن المرشح أمي لا يقرأ ولا يكتب ، " وحيث أننا في حالة استثنائية دقيقة بالنظر لحالة الحرب والاحكام العسكرية وقد يلزم الأمور اطلاق العمد على بعض الاسرار أو الكتابة لهم بهذه الاسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها أحد غيرهم " ، فيرى المأمور تأجيل التعيين الرسمي لمدة شهرين وتكليف المرشح بأن يتعلم القراءة والكتابة " . و " المركز مستعد أن يخصص له مدرسا من مدرسة البداري ليعلمه " . وفي آخر الرد : " ملحوظة : فاتنا أن نذكر أن المذكور لا يملك إلا فدانا ونصف وليس له مورد مالي اخر ولا صنعة فربما يضطر لتغطية تكاليف العمودية إلى ما لا يليق بوظيفته خاصة وأن الشيخ محمود عبد اللطيف عيسى يقوم بمهام الوظيفة بكفاءة ونشاط كنائب عمدة هو رجل غني ولا يثستكي منه أحد منذ استقالة شيخ المشايخ السابق وتحويل المشيخة إلى عمدية . " متى سيرسل الرد ؟ بعد أن يستعجلوه مرتين على الأقل . هذا من ضمن طريقته . أي أن هناك فرصة شهرين على الأقل قبل أن يبت في أمره والبركة فيك . قال الشيخ : أية بركة؟ لقد قلت لك من قبل أنني أفقر من أن أكون عمدة أمينا . قال : ليس هذا هو الموضوع . أنا أعرف . ولكن الموضوع أخطر من هذا . فقد تم وضع نظام عام "التطويح " الناس للخدمة وراء جبهات القتال، خلاصته وشرح له خلاصته . قال الشيخ : كيف يوافق المأمور على مثل هذا النظام . قال: لا تخف فللمأمور طريقته في عرقلة هذا النظام وهو على اتصال يومي تقريبا بمأمور مركز اسيوط . الحقيقة أن مجموعة من رجال الادارة الوطنيين على رأسهم مأمور مركز اسيوط يتداولون في كيفية حماية الناس من هذا البلاء بدون الخروج الصريح على التعليمات . لست أعرف ما يفكرون فيه لأنهم يكتمون أمره وقد خطر لي أن ألفتك إلى الخطر القادم لعلك تستطيع أن تفعل شيئا لحماية الناس .

ماذا أفعل؟ للأسف أنني لا أعرف ما يفكر فيه المأمور، ولكني أعتقد أنه من المفيد أن يتمسك الأهالي بمبدأ التطوع منذ الآن قبل أن تداهمم لجان التطوع ، وعلى أي حال ثقوا في المأمور فإنه سيقود المعركة ضد سلطة الاحتلال ، وسيقودها بكفاءة بطريقته . ولكن لا يمكن الاتكال على مقدرته مائة في المائة، لابد

أن يدافع الناس عن أنفسهم . أن يرفضوا التطوع . أن يخطروا كل السلطات بأنهم يرفضون التطوع . قال : سأتدبر الامر مع أهل البلد وأعود إليك . قال : لا تعد. لن تجدني ، لقد استعجلت حضورك لأودعك ، فقد كان أول ما رأى المأمور أن أكون بعيدا عن المركز في الفترة القادمة. لم يقل لي لماذا ولكني فهمت أنه يرى ألا تنسب خطته الخفية إلى تأثير أحد أعوانه من عائلة فريد بك . ولثقتي في وطنيته وكفاءته لم اعترض، وقد طلبت فعلا أجازة مرضية ووافق عليها ، وسأغادر البداري بعد غد الخميس فاستودعك الله . حرص الناس على المقاومة إنها فرصتهم في البقاء وربما تكون فرصتك .. وافترقا...

(٤)

عاد إلى منضرتة مهموما ، فأرسل يستدعى الإمام الشيخ أحمد معتوق وحسين عيسى ومحمد عطية ، ودويب حسن ، وأحمد عبد اللطيف. كلهم من جيله وإن كانوا أكبر منه سنا وكل منهم ذو كلمة نافذة في عائلته . سهروا معا حتى الصباح يتشاورون ويتداولون في كيفية وقاية القرية مما هو ات. ثم اتفقوا على أن يحصوا الرجال في القرية عددا ، ويكتبوا بأسمائهم عريضة يوقعون عليها جميعا أو يختمون أو يبصمون ، يخطرون بها الحكومة وفروعها وكل مسئول فيها بأنهم ، أهل الهمامية ، قد بلغهم ما بلغهم وأنهم لا يقبلون التطوع ولا يريدون أن تحضر لجنة الدمرداش إلى قريتهم وإذا حضرت فإنهم لن يقبلوا في "هذا أي كلام ثاني" ، وإذا كان "لابد" من التطوع . فهم مستعدون أن يتطوعوا في "الجهادية المصرية" ، وأن يختموا العريضة بالتماس إلى الحكومة بحمايتهم من خطفهم "حتى لا يختل الأمن وتبور المزارع" واتفقوا على أن تكون من ست نسخ. واحدة للمأمور. وواحدة لمعاون البوليس . وواحدة لمدير المديرية. وواحدة لحكمدار المديرية وواحدة لوزارة الداخلية . وواحدة لرئيس الوزراء ، وأن يذكر في أولها أنها موجهة إلى كل هؤلاء ليعرف كل واحد منهم أنها وصلت غيره . وأن تكتب أسماء الرجال في آخرها ويبصم كل واحد منهم أو يختم أو يوقع أمام اسمه. تلزم كمية من الورق المسطر. خمسون فرخا. و تلزم ختامة سوداء مثل التي يستعملونها في المركز.

غدا الاربعاء سوق طما فيا ولد يا فوزي من الفجرتذهب إلى طما وتشتري ختامة و خمسين فرخاً أبيض مسطرا. وبالمرّة " دواية" حبر وريشتين . "بسن حديد".

على بركة الله . الفاتحة يا رجالة وربنا ينصرنا على من يعاديننا . أضاف الشيخ أحمد معتوق الذي اقترح فكرة التطوع في الجهادية المصرية : وينجيننا مما لا نطبق ، قرأوا الفاتحة جهرا وانصرفوا على موعد بعد ظهر غد .

بعد ظهر غد كان الشيخ عباس قد انتهى من !تحرير" العريضة فلما حضر الآخرون وقد جاء معهم غيرهم تداولوا في كيفية كتابة الاسماء وانتهوا إلى أن تكتب تبعا لترتيب العائلات من "بحري البلد" إلى آخرها جنوبا. يكتب أولا اسم العائلة تتلوه أسماء "الرجالة" بيتا بيتا . هذه هي أسهل طريقة خوفا من " الغلط والنسيان " . وقال محمد عطية : أحسن تكتب أسماء " رجالة " كل عائلة على فرخ ورق منفرد حتى يمكن جمع الاختتام بأسرع ما يكون . قال أحمد عبد اللطيف يلزم إذن لكل عائلة ستة فروخ للأسماء. فرخ لكل نسخة من العريضة . قال معوض الذي لم يقل شيئا من قبل، يعني تلزم ختامات بعدد العائلات . كل واحد منكم أنتم رؤساء العائلات سيأخذ "فروخ " أسماء رجال عائلته ويحصل على "أختامهم " فيلزم أن تكون معه ختامة مخصوص. قال الغلام فوزي : أذهب غدا إلى طما واشتري ختامات . نهره دويب حسن قائل : " يا ولدي بكره الخميس مافيش سوق ". قال فوزي : "ما أنا اشتريتها من الدكان اللي قبلي السوق وده فاتح على طول " .

عقب على حامد حماد : ألا يلزم أن "تعمل " نسخة خاصة نقدمها إلى" بيت الباشا " صمت الجميع، وتطلعوا إلى الشيخ عباس الذي تأمل على حامد ثم قال ببساطة : "مافيش داعي". فبدأ الناس يؤيدون . قال علي حامد: " طيب ألا ننتظر صديق ابن عمي". قال أحمد عبد اللطيف بحدة: "صديق غايب له أسبوع ماחדش عارف هوه وين ولا هيجي ميته ، وهوه يعني صديق اللي عيكمل العدد.. " فلم يعقب أحد .

يوم الجمعة اتفق إمام المسجد الشيخ أحمد معتوق والشيخ عباس على أن يلقي هذا الاخيرخطبة الجمعة وعلى

ما يعظ به الناس فيها . فلما صعد المنبر استغنى عن اللغة العربية الفصحى و عما تحمل لهجته من كلمات قاهرية وتحدث إلى " بلدياته " بالأسلوب الذي يتحدث به إليهم في " المنصرة " . شرح لهم الحرب وأهوالها، والهالك الذي ينتظر من يذهبون إليها أو يقتربون منها، والنظام الذى سيصطادون به الشباب والرجال ، وركز على تفسير كلمة " التطوع " وأنه لا يلزم المسلمين حتى لو طلبه ولي الأمر مادام تطوعا فى حرب بين غير المسلمين . واستشهد بأن " لنا عارفين أن عمنا الإمام أحمد معتوق دايمًا يوصينا بطاعة ولي الأمر وأحنا خدنا رأيه إذا غضبوا علينا فى التطوع هل نقبل أم لا . أفتى الإمام، " وأهو حاضر فى المسجد " أن حكم الاسلام هو لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة لأن المتطوع يلقي بنفسه فى المهالك ، وألا طاعة فى معصية، وخدمة غير المسلمين فى الحرب معصية ، فاعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا، ووقعوا جميعا على العريضة، وليبلغ الحاضر منكم الغائب . وأضاف من عنده إلى الدعاء بأن يحفظ المسلمين من مخاطر التطوع فقالوا آمين، وختم بأن لعنة الله على من يتطوع بالخدمة فى حرب الكافرين.. فقالوا آمين، وأقيمت الصلاة .

بعد أن قضيت الصلاة من يوم الجمعة دعا ممثلي عائلات القرية إلى الاجتماع بعد صلاة المغرب فى المنصرة للبدء فى كتابة قوائم المهديين بالتطوع . قائمة لكل عائلة. دعا حسين عيسى، ودويب حسن ومحمد عطية، وأحمد عبد اللطيف، ويونس رزق، وعبد العزيز خزعل والشيخ أحمد معتوق ممثل الاشراف. وقضى هو ما بعد صلاة الجمعة إلى ما قبل صلاة المغرب يسطر الأوراق ويكتب العناوين، تمهيدا لكتابة الاسماء متتالية على الاسطر الافقية فيما بين الاسطر الرأسية تحت العناوين العائلية. كان يجيد الخط ومع ذلك فقد استنفد وقتا طويلا فى تجويده . يرسم ويكتب ثم لا يعجبه ما كتب ورسم فيعيده . الحبر الأسود يزيد الخطوط ظهورا فإذا بها ملفتة. هو يريدها ملفتة . وليتسق لون الخط مع حبر الختامة. ولكن الحبر لا يجف سريعا فيستعجل الجفاف بأن يرش عليه ترابا ناعما. لكنه من فرط حماسه يستعجل التراب فينفذه قبل أن يمتص كل الحبر، فيكتشف خروج بقايا الحبرعلى الخطوط ووصلها حروفا لم

تكن فى الأصل متصله، فىعيد الكتابة والتسطير: الواقع أنه لم يضق بكل هذا ولم يتعب ولم يمل فقد كان يكتب ويسطرويعيد وقد سيطرت عليه نشوة غامرة، كما لو كان يكتب شهادة نجاحه ووثيقة تحرره. وأنه، وهو يعمل بيده، ليتذكر بسرعة مذهلة ما قاله لنفسه وهي تحاوره فى حديقه الازبكية. إنه منذ أن حضر إلى القاهرة لم يتحرر قط من الشعور بالغربة " إنى غريب عن الناس والأشياء والمعاني . إننى أنتمى إلى الهامية فسأنقذ نفسى وأعود إلى هناك " .

ها هو أخيراً فى الهامية يمر بتجربة فريدة . أوحى إليه حسين أفندى فريد بميدان معركة يخوضها دفاعاً عن أهل قريته التي ينتمى إليها . دعاهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاجتمعوا إليه . حرضهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاستجابوا له . اقترح أسلوب المقاومة عريضة يوقعونها فقبل، أولئك الذين ينتمى إليهم ، اقترأه . تكاثر حوله الناس، أولئك الذين ينتمى إليهم ، شيوخاً ورجالاً وشباباً وغلماً وأطفالاً . يحيطون به عاطفين، وينصتون إلى ما يقول معجبين، وينفذون ما يريد طائعين، ولا ينطقون إلا بما يرضيه منهم فيرضيه عن نفسه .

(٥)

انتهى ما أراد ثم قام ليؤدي صلاة المغرب فى المسجد على غير عادته . قيل له أن المسجد مغلق الناس لا يصلون المغرب فيه ولا العشاء . سأل مستنكراً : منذ متى ؟ وقيل : من زمان . قال : ولماذا ؟ قيل : " من يوم ما تكسر الفانوس السنة اللي فاتت وراح ولد فرغلي المزين يصلي المغرب فى الضلعة وقرصته عقربة والناس ما عتروحش فى الضلعة " فاستشاط غضباً حقيقياً ، وأمر بأن يرافقه من يرافقه " بالكلوب " . فحمل واحد ممن يتبعونه الكلوب وسبقه . ينور له الطريق إلى المسجد . صلوا جميعاً المغرب وأمهم فى الصلاة . ثم جاء غيرهم يصلون على نور بدون إمام فاقترح واحد من الشيوخ أن يبقوا يذكرون الله ، على النور ، حتى صلاة العشاء . لم يعترض . لم يستطع أن يعترض . كان فرحاً بأن يكون إماماً ومنبراً للمصلين . ولكنه هرول بعد العشاء عائداً إلى منبرته ، يتبعه من يتبعه لعله

يدرك صحبة الذين ينتظرون منذ المغرب هناك . سأل عما إذا كان قد حضر إليه أحد من الرجال : حسين عيسى أو دويب حسن .. إلى آخرهم . فقيل له لم يحضر غير أحمد عبد اللطيف منذ ربع ساعة ولما وجد أن المنضرة مغلقة إنصرف ولم يقل شيئاً ، فأرسل إليه يونس عبد الله ، رفيقه الدائم يستدعيه .

إلى أن جاء أحمد عبد اللطيف كان قد استقر على ألا يستقبله مؤنباً أو عاتباً على أنه لم يحضر في موعد المغرب ، فهو نفسه لم يكن حاضراً . ثم ان أحمد عبد اللطيف أكثر من الآخرين مودة ، ربما لأنه ابن خاله ، وربما لأنه أقربهم إليه سناً ، عليه إذن أن يبرر استدعاءه بما يرضيه وأن يتجاهل ذكر الآخرين إلا إذا ذكروهم أحمد عبد اللطيف .

السلام عليكم ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . لم اطق صبراً حتى الصباح لأراك فلعلي لا أكون قد ازعجتك . دعوتك مجابة في كل وقت . هكذا تكون الأصول بين الأقارب . والمعزة فوق القرابة يا أحمد وأنت عزيز . " الله يعز مقدارك " . الحقيقة أنني أشعر بالارهاق وأعتقد أنني أدت ما هو واجب عليّ ، ولا بد من أن يتولى باقي الأمر من هو أقدر مني على مواصلة أدائه . أنت خير من يؤديه . ففكرت في أن أنام مرتاحاً بعد أن أنقل الأمانة إليك . فأحملها يا أحمد وتوكل على الله .

قال هذا ثم دفع إلى أحمد بالعريضة والختمات وكل الأوراق المسطرة والمكتوبة ، وقال له أن يتصرف في الأمر كما يرى . يوزع قوائم العائلات على الأخوان أو لا يوزعها ، يجمع الأختام والبصمات أو لا يجمعها ، المهم أن تكون العريضة والأسماء والأختام جاهزة لتوجه سويماً إلى البداري ونرسلها إلى من هي موجهة إليهم بالبريد " المسوكر " . نعم فلن أتحرك بعد اليوم إلا معك ولن أفعل شيئاً إلا بمشورتك فأنت " ولد خالي " وعزيز عليّ .

لم ينطق أحمد عبد اللطيف كلمة . كان مشغولاً وهو يستمع إليه باختبار مواطن الريبة فيما يستمع إليه . لماذا تغير الشيخ عباس فجأة فأصبح ودوداً متواضعاً وعهدي به أنه جاف المعاملة مستكبر . هل بلغ حديث

القرية منذ ما بعد صلاة الجمعة وما يقال عنه وعن عريضته .

إن كان قد بلغه فقد بلغه كيف دافعت عنه وعن خطبته في المسجد هو هذا . مد يده صامتاً وحمل الأمانة ، وهمهم ، توكلنا على الله . ثم قال : املهي جمعيتين وسأعود بكل شيء جاهزا لنذهب معا إلى البداري . قال : ألا ترى أن جمعيتين كثير . قال يا ولد عمتي لقد ارتفع منسوب المياه الحمراء في التربة وهي بشير الفيضان وانذار للناس بأن يسارعوا إلى قطع " القيسى " وجمع المحاصيل . فالناس متفرقة الآن في الغيطان . والرجل الذي اسمه عبد المعز حسين وزع " عربين " على الذين سيذهبون إلى الغرب لجمع القطن ، وهكذا ترى أن الناس مشغولون الآن بأرزاقهم فلا يمكن جمعهم أو اجتماعهم إلا بعد شهرين على الأقل . قال : لقد قلت اسبوعين . قال ضاحكا إنه القسط الأول . أنا أحاول ارضاءك فأحدث إليك " بالقطاعي " . بعد اسبوعين كنت سأطلب إليك الانتظار " كمان جمعيتين " وضحكا معا ...

قال : طيب يا ولد خالي . ولكني كنت أريد أن أعرف منك الجواب على سؤال لا أعرف له جوابا . قال : خير . قال ضاحكا : " بس مرة واحدة مش بالقطاعي " . ثم جادا : ما هي حكاية ولد خالي الشيخ محمود عبد اللطيف . انه نائب العمدة وعنده الخفراء وهو مسئول عما يجري في القرية ومع ذلك لم يحضر اجتماع الناس في أي يوم ولا حتى في صلاة الجمعة . ولم يظهر اهتماما بما يهم الناس . إنني في دهشة من موقفه السلبي .

تأمله أحمد عبد اللطيف بعينين ضيقتين ولم يرد حتى استعجل رده . فقال بنبرة عتاب : " طيب يا عباس يا ولد عمتي لما أنت عارف أنه هو نائب العمدة المسئول عما يجري في القرية ، لماذا لم تجر إليه يوم حضرت من البداري لتعرض عليه ما سمعت وتأخذ رأيه قبل ان تشيع رأيك في الناس ، خاصة وأنه بحكم سنه في منزلة الوالد " . هم بأن يقاطعه ولكنه استرسل : إنك لا تعرف يا عباس ماذا يقال في القرية لأنك لا تقابل إلا من يأتي إليك . وأغلب الذين يأتون إليك يحضرون مراقبين ومترقبين أن يعرفوا " ايه آخرة الحكاية " . حماسك الشديد لما تقول أنه دفاع عنهم أعجبهم ولكن

لم يصدقوه لانهم لا يتذكرون لاهم ولا آباؤهم أن أحداً دافع أو يدافع عن أحد من غير عائلته إلا " لمصلحتها " . والشائع في القرية أنك تمهد بكل هذا لتكون عمدة .

وهذه الشائعة قديمة . فمنذ أن حضرت من مصر وهدمت البيت القديم وبعث نصف المواشي وبنيت هذا البيت والناس تقول انك تجهز مقرا يليق بالعمدة ، وللكلام أصل ، فقبل أن تحضر قضى أخواك مرسي واسماعيل أكثر من سنة وهما يضربان الطين طوبا تمهيدا لحضورك ويرددان أن ذلك اعداد لمقر العمدية ، وعلى رأي المثل " ما فيش دخان من غير نار " . وطبعا الشيخ محمود شعر بأنك تعد نفسك " لترثه وهو حي " لا بد ان يكون قد تأثر بهذا الشعور فصدق أن حكاية لم الناس والاجتماعات والعريضة القصد منها العمدية .

قاطع غاضبا : أعوذ بالله . الشيخ محمود يظن بي هذه الظنون ، يتناسى أنه ابن خالي والخال والد ، قم بنا نذهب إليه .

قال : لا . لا . طول بالك ودعني أكمل حديثي حتى لا تقول أنه بالقطاعي .

أخي الشيخ محمود رجل طاعن في السن كما تعرف ، وقد مل العمدية التي أفقرته بعد ان كان غنيا وما زال يتمنى أن يتركها ولو بالموت قد مل الحياة ذاتها . سأل : أفقرته ؟ كيف ؟ قال : طلبات الموظفين لا تنتهي . إنهم غرباء في بلاد لا توفر لهم ما تعودوا عليه من مسكن ومأكل وخدم فيطلبون ما يحتاجون إليه من العمد ، والعمد لا يطلبون له ثمنا وهم لا يلحون . أحكي لك آخر حكاية " عشان تضحك بدل ما أنت مكشر وعشان ان كنت بتفكر في العمدية تراجع روحك قبل الفاس ما تقع في الراس " . منذ شهرين استدعى معاون الادارة الشيخ محمود . فلما ذهب إليه في مكتبه استقبله واقفا وقال " تفضل يا عمدة " الشيخ محمود أخي قال لي أنه شعر مباشرة أن في هذا الترحيب الغريب ما يريب فقال لنفسه اللهم اجعله خيراً .. بعد السؤال عن الصحة والقهوة قال له بمودة بالغة " يا شيخ محمود انت عارف طبعا أن لي ولدا في المدرسة الابتدائية . ألسنت أمه ياسيدي كانت قد نذرت أنه إن

نجح هذا العام تدعو زملاءه في الفصل إلى وليمة تذبج فيها ثلاثة ديوك رومي بيضاء . يكون ريشها كله أبيض بدون أية علامة سوداء ، وقد بحثنا في البداري كلها عن ديوك رومي بيضاء فلم نجد . ففكرت أنه ربما يكون عندكم في الهمامية أو القرى المجاورة ، فأرسلت إليك راجياً أن تبحث لي عن طلب الست حتى لا تزعل الست أو يحدث ما يسيء إلى الولد نتيجة عدم الوفاء بالندر " . قال له أخي الشيخ محمود : غالي وطلب رخيص . الديوك الرومي البيضاء موجودة بكثرة في جهتنا . وان شاء الله قبل نهاية الاسبوع أرسلها إليك مع أحد الخفراء أو أحضرها بنفسني . قال معاون الإدارة : لكن بالثمن طبعاً . قال أخي : طبعاً طبعاً . بعد اسبوع أرسل إليه ثلاثة " دكور مالطي " (ديوك رومي) .

قال الشيخ عباس مستغرباً : بيضاء .

قال أحمد عبد اللطيف " " بيضاء إيه يا ولد عمتي هو فيه في الصعيد دكور مالطي بيضاء أرسل إليه ديوكا سوداء مما هو موجود ..

قال الشيخ عباس : لكن الشيخ محمود قال أنها موجودة بكثرة وأنا استغربت . قال أحمد عبد اللطيف : لأنه من كثرة خبرته مع الموظفين فاهم كلامهم ، ففهم منذ البداية أن معاون الإدارة يريد ديوكا رومية ، بيضاء أو سوداء لا يهم ، المهم أن تكون " هدية " بدون مقابل وهذا ما تم فعلاً . أخذ معاون الديوك السوداء وشكر الشيخ محمود ، ولم يهتم لا باللون ولا بالثمن .. وهذه هي العمدية . فهل تريد أن تكون عمدة . ؟

ضحك وقال : لا والله . ولكن ليس من أجل الديوك ، مسألة الديوك بسيطة . ما علينا ، المهم الآن كيف نرضي الشيخ محمود .

قال أحمد عبد اللطيف : نأخذ رأيه . إنه طاعن في السن ولكن " واعر ونابه أزرق " .

قال وما هو رأيه ؟

قال : أخشى أن انقل إليك ما قال فتغضب .

قال : كيف أغضب منه وأنا أريد أن أرضيه .

قال : ذنبك على جنبك ، على أي حال لقد غير اليوم رأيه . إنما في البداية تحدثت معي عن الموضوع منذ أول اجتماع لنا يوم الثلاثاء الذي فات . عدت إلى المنزل في الفجر فوجدته يصلي في " منضرتنا " انتظرته . ختم الصلاة ثم سألتني أين كنت فحكيت له الحكاية . فقال : يا أحمد يا أخي أن عباس " ولد عمتنا " كبر سنا ولكن يبدو أنه لا يزال طائشا كما كان وهو صغير . إن ما تدعون إليه وما ستفعلونه " كلام فاضي لا يودي ولا يجيب هلبت ما يضر وبكره تشوف " لو أن أحدا هددك بالقتل يا أحمد فإلى من تشتكيه ؟ قلت إلى العمدة . وإذا سرقك أحد فإلى من تشتكيه ؟ قلت إلى العمدة . قال طيب افترض ان العمدة غائب واقترح عليك احد أن تشتكي القاتل إلى القاتل والسارق إلى السارق ، فهل تفعل : طبعاً لا . سأل : لماذا ؟ فلم أعرف الرد . قال لأنك إن تفعل تنبه الفاعل إلى أنك عرفت أنه الفاعل وأنت ستشكوه إلى الحكومة . فربما يقتلك فعلاً حتى لا تشكو أو يجهز شهوداً على أنه لم يكن موجوداً في البلد يوم الحادث . صح . ؟ قلت : صح . قال هذا بـ " الضبط " ما تريدون فعله تريدون أن تشتكوا الحكومة إلى الحكومة . أن تطلبوا من الحكومة أن تحميكم من الحكومة . أكثر من هذا أن تقدموا إلى الحكومة قائمة بأسماء غير المتزوجين من الرجال ما بين سن العشرين والأربعين ، مع أن الحكومة لا تعرف عددهم أو أسماءهم . لا تعرفهم يا أحمد إلا إذا سألتني أنا لوحدي الذي يحتفظ بدفتر المواليد ودفتر الوفيات . ولو سألتني وقلت لها الدفتر ضاع فلن تعرفهم أبداً وهذا خير للبلد . ربما تفصلني من المصيبة التي أنا فيها " فسيبقى خير وبركة " . أما ما تدعون إليه وتفعلونه فهو كلام فاضي.

هكذا تحدثت أخي ثم تركني إلى داخل الدار . بعد خطوتين التفت إلى وقال : قل لعباس ولد عمك " سيبك من العك في بلاد أنت متعرفهاش " ، أما عني أنا " فلا حضرت ولا سمعت ولا شفت ولا عرفت ولا عاوز نعرف لا أنا ولا خفرائي وانتم حرين " .

صمت أحمد عبد اللطيف نادماً على ما قال .

وصمت الشيخ عباس مغيظا مما سمع .

هم أحمد عبد اللطيف بالوقوف لينصرف فأوقفه الشيخ عباس سائلا : هل لا يزال الشيخ محمود على رأيه هذا ، لقد سمعتك تقول في البداية أنه غير رأيه . ارتاح أحمد عبد اللطيف للسؤال وقال : لا . ابدا . ابدا . لم أكن والله أعرف أنه يحبك وأن قلبه معك وخائف عليك إلى الدرجة التي عرفتتها بعد ظهر اليوم .

قال بلهجة مستجدية : كيف كان ذلك يا ولد خالي .

ضحك أحمد عبد اللطيف فكشف عما تناثر في فمه من زوائد عظمية داكنة وقال سعيدا بلهفة صاحبه : هذا سر وافتعل ضحكة أخرى .

- وهل توجد بيننا أسرار يا أحمد . نحن أخان .

- طبعاً . ولكنه سر بيني وبين أخي الأكبر . وأنت أخي الأصغر . والكبير مفضل أليس كذلك . وضحك مرة ثالثة ضحكة ساخرة .

- كما تشاء .

قال جادا ، يبدو أن لم يبلغك ما جرى منذ صلاة الجمعة .

- لم يبلغني ، ما الذي جرى ؟ الواقع أن لاشيء يبلغني مما جرى في البلد .

- إلا ما يسرك طبعاً .

- وهل ما جرى منذ صلاة الجمعة لا يسرنى .

- أغضبت البلد كلها وهذا لا يسرك ... وأرضيت أخي الشيخ محمود نائب العمدة وهذا يسرك طبعاً . " مش إكده " ؟

- لا أفهم .

سحب أحمد عبد اللطيف قدميه المتدليين من " المركوب " ، ورفعهما إلى " الدكة " واستدار فواجه جاره عليها ، وتململ ليتأكد أنه مستقر في جلسته ثم

قال واعظاً : " شف ياعباس " بعد انقضاء صلاة الجمعة وتواعدنا على اللقاء في المغرب حمل الشيخ أحمد معتوق المصحف الكبير وذهب مهرولاً ، مغيظاً ، الى نائب العمدة ، أخي الشيخ محمود ، وصحبه آخرون طلب إليهم أن يصحبوه وأن يكونوا عليه شهوداً . فصحبه كل الآخرين الذين اجتمعوا من قبل في هذه المنضرة وكانوا من المصلين . وطبعاً أنا كنت هناك . وبعد السلام فوجيء الشيخ محمود والجالسين بأن الشيخ أحمد معتوق الامام فتح المصحف على سورة النور ووضعه على عينيه وقال مضطرباً حتى ليكاد يبكي : أشهد يا عمدة . اشهدوا ياناس . وحق هذا المصحف الشريف أنني لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل علي على أن يغير خاتم الخطبة وبدلاً من الدعاء لولي الأمر بالهداية والتوفيق يدعو باللعنة على من يتطوع للخدمة في حرب الكافرين . هل سمع منكم أحد طوال عمره أنني ألعن أحداً على المنبر ؟ ده حرام .

قالوا له : ما سمعناش .

قال الإمام وقد بلغ قمة الانفعال : طيب إذا كان المصحف لا يكفيك فعليّ الطلاق ثلاثة من بيتي أي لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل علي لعن اللي يتطوع أو كفر اللي يسمع كلام الحكومة .

قال علي حامد حماد : صادق ياشريف . ثم وجه حديثه إلى العمدة . أصل المسألة يا حضرة العمدة أن عباس ده ولد عمك مشاغب وثورجي وعاييز يعمل فتنة في البلد بين الأهالي والحكومة ودي حاجات تعلمها في مصر " مش كان عيقولوا انه من شغول الخديوي . ده حتى ولد عمي صديق سمع الكلام ده في مصر وشيع جواب " .

قاطعه أخي الشيخ محمود : هل ابن عمك صديق في مصر .. وماذا يفعل في مصر ؟

قال علي حامد : والله ما نعرف ياعمدة .

قال العمدة : " سيبنا من صديق . وأنتم يا رجاله كل واحد يروح لحاله وينتبه لمصالحه ويبعد عما يغضب الحكومة لأن ده حرام . مش إكده ياشريف ؟ " .

قال الشيخ أحمد معتوق : يا حضرة العمدة ... " ياناس يا مؤمنين . كلكم شهود على إني طول عمري أقول اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأن الحكومة هي ولي الأمر " تأمل العمدة ثم أضاف . " وطبعاً رجال الحكومة وعمدها " .

قال الجميع : صح ، وانصرفوا وقد تداولت بينهم كلمات تقول " واحنا مالنا ياعم " .. " الحكومة غدارة " و " اللي خاف سلم " .

وقد حضرت اليك قبل صلاة العشاء لأبلغك ألا تنتظر حداً ، لأن أحداً لن يحضر اليك في المغرب كما تواعدوا .. ولا في الصباح . " بصراحة يا ولد عمتي البلد كلها خايفة ومتشككة في اللي بتعمله . ومقلوبة عليك .. ماهو برضه ماكانشي صح تختم الخطبة بلعنة الله على المتطوعين " .

قال بابتسامة هافتة : وانت خايف يا أحمد .

قال : لا أبدا والله . ماياخذ الروح الا خالقها . " دانا حتى مبسوط لأن أخي الشيخ محمود راضي عليك وخايف عليك برضه " .

- لماذا هو راض عني ؟

- قال ضاحكا : لم يقل لي . ولكني فاهم . قال كلمة واحدة قبل أن ينصرف . قال كما لو يحدث نفسه : على أي حال الخير فيما " اختاره الله " . " ده عباس حتى ولو كان عمدة فعلا كان اترفد " .

قلت له : ياخو أنا قلت لك أن ولد عمتنا لا يفكر في العمودية وأنت عايش .

- ولا وأنا ميت .

- اطمأنيت يعني .

- له . أنا خايف عليه . لمونة في بلد قرفانة وخايف يعصروه .

- ليه .

- علشان الكلام حيوصل المركز ...

كلام إيه ؟ ..

- كلام الخطبة .
- أخوك هو اللي حيوصلها ؟
- لا أعوذ بالله . دي شغلة وكيل شيخ الغفر

..

قال بحدة واثقة : لا تخف يا أحمد . وقل لأخيك :
" الحذر لا يمنع القدر " .

ولقد هم أحمد عبد اللطيف أن ينصرف .

فقال له الشيخ عباس مجاملا : " لسه بدري " ..
فاستجاب سريعا .. ثم قال :

ألا ترغب عمتي من أن " تعشيني " . ضحك الشيخ
وقال : طبعا . لقد أخذنا الكلام فنرجو ألا تكون قد
نامت .. دعنا نرى . واتجه إلى باب منضرته ليدعو
مرسي أو اسماعيل أخويه المرابطين ليلا في الردهة
التي تطل عليها المنضرة ليكونا قريبين من أخيهما
العزيز إذا ما احتاج إلى أحد منهما .

غير أنه حين فتح باب المنضرة في تلك الليلة
ونادى : يامرسي ، يا اسماعيل . لم يجب إلا اسماعيل
. كان مرسي نائما على أحد الدكتين ويغط غطيطا
متقطعا ينزعج له اسماعيل . هب اسماعيل قائلا : نعم
. قال له أخوه : انظر فيما إذا كان لدى والدتك
شيء نتعشى به . قال حاضر ودخل الدار . لم يرغب
طويلا . عاد وأطل برأسه داخل المنضرة وقال آسفا :
يا أحمد يا ولد خالي أمي نامت فهل أوقظها . قال
أحمد : لا . لا . لا تزعجها أني منصرف لادرك زوجتي
قبل أن تنام . نهض وقال : نكمل الكلام بكره .. قال
: احضرا ليك أم تحضر أنت . قال : سأحضر غدا قبل
الظهر . قال : عظيم وسنتغدى معا إن شاء الله .

بعد دقائق دخل اسماعيل يحمل طبقا فيه حمامة
محشوة فريكا ورغيفا من العيش الأبيض وقال : عشاك
ياشيخ عباس قال عباس : " إيه الحكاية يا اسماعيل
" ألم تقل إن أمك قد نامت فمن أين جئت بما يؤكل ،
وحمام أيضا . قال : من صفة امرأة مرسي جهزت لك

العشاء ونامت هي ايضا . قال : ولكن ولد خالك كان يريد أن يتعشى .. قال ضاحكا : طب العشا من عمته وعمته نامت . قال الآخر ضاحكا : يا بخيل . قال : بخيل بخيل . البخل أفضل من خراب البيوت . تفضل . قال : تعالى نأكل سويا . قال : سأقفل الباب أولا حتى لا يشاركنا أحد بشرط ، قال ما هو الشرط يا أخي . قال هناك موضوع يشغلني وأريد أن أتحدث اليك بشأنه فهل يمكن أن أنفرد بك غدا ولو نصف ساعة - قال إن شاء الله .

تعشيا . فقال متظارفا : هذه الوجبة تحتاج يا اسماعيل الى كوب من الشاي الثقيل . قال : ألا تريد أن تنام . قال شاكيا : والله يا أخي لم أعد أنام ، على أي حال دعنا نشرب شايا سويا ونتحدث في الموضوع الذي يشغلك .

قال اسماعيل : حاضر .. خرج الى الردهة وألقم الكانون حطبا وأشعله ، وملاً " البراد " ماء من القلة ، وألقى فيه نصف حفنة من الشاي ، ووضع على النار الى أن يغلي ثم غسل كوبين من الزجاج وانتظر ماذا تفعل النار بالماء . وبدأ في صياغة واعادة صياغة الموضوع الذي سيتحدث فيه إلى أخيه . كان يخشى أن يخطيء . لو كان يعرف الكتابة لكتبه . فلا بد له من أن يحفظ صيغته حتى لا يخطيء .

لقد كان اسماعيل منذ أن حضر أخوه يلود بالصمت ويتفادى المناقشات والحوارات والاجتماعات خشية أن يخطيء في حق أخيه الشيخ . ذلك لأن اسماعيل الأصغر فلاح " قراري " ولا يستطيع أن يتصور عملاً في الحياة ذا جدوى غير فلاحه الأرض . حرثها وبذرها . وزراعتها ، وحصادها ، وجمع محاصيلها ، ولم يكن يرى أن ثمة من هو أخيب من أخيه مرسى المشغول ابدا بما جرى في بني هلال ولم ينشغل بما يجري في الغيطان ابدا . وتلك خيبة يدركها . أما خيبة أخيه عباس فعصية على الادراك . ذهب إلى الأزهر يتعلم فضاقت عليه سنين يأكل من عائد عرق غيره . وها هو قد عاد . الأمر المعقول أن يعوّض ما ضاع من سنين زرعاً مثمراً في الحقول . ولكنه شغل نفسه بقراءة " الجرائين " والكتب واخترع لنفسه حكاية العريضة والاجتماعات

التي تستنزف ما في الدار من محاصيل شقي اسماعيل وهو ينتزعها من الأرض ويصبها في الحاصل وأخوه المتعلم لا يسأل نفسه لماذا لا " يكذ على روحه " ولماذا يعيش على ثمار عمل أخيه الصغير ونصر الجمال الرجل الفقير . ومع ذلك فهو أخوه . فليفترض أنه لم يعد من مصر . وليحرص على ألا يعارضه أو يعترض عليه أو يخذش هيبتة أمام الناس أو أمام نفسه ، وليصبر فالصبر جميل ..

غلى الشاي . فقمض من " قمع " السكر قضمتين وألقى بهما في الشاي وهو يغلي ثم حمل البراد والكبايتين إلى داخل المنضرة . وصب الشاي وقدمه إلى أخيه ثم صب وقدم إلى نفسه .. تسلم ايدك يا اسماعيل .. " شاي مزبوط " .. هه .. ماهو الموضوع الذي تريد أن نتحدث فيه .

قال اسماعيل : والله يا أخي أني لا أعرف " بالزبط " من أين أبدأ الكلام . أنت رجل متعلم وتفهم كل شيء وأنا فلاح " زي تور الله في برسيمه " فأخاف أن تكلمت أن أغلط . ضحك أخوه وقال : لا عليك يا اسماعيل : فنحن أخوة . فنظر إليه وقال : قل لي يا شيخ عباس ألا تنوي الزواج . فضحك الشيخ عباس وقال : ماالذي جعلك تفكر في أنني أتزوج . أي زواج يا اسماعيل . هناك ماهو أهم من الزواج . قال اسماعيل " زي إيه " .. قال : هذه أمور عويصة يا أخي ربما لاتفهمها ولكني أقول لك ببساطة أن أهم من الزواج خدمة الناس . معرفة مشاكل الناس . ومساعدتهم على حلها . في الزواج أنت تسعد امرأتك وتسعد نفسك ، لكن بخدمة الناس تسعد كل الناس . مالذي أفعله أنا الآن يا اسماعيل . أحاول أن احفظ الناس من الهلاك فماذا تكون النتيجة ؟ يسعد الآباء والأمهات والأخوات بسلامة أولادهم ويسعد الأولاد بسلامتهم ، فيتزوجون ، يا اسماعيل ، ويسعدون أنفسهم ويسعدون زوجاتهم . " إيه رأيك " .

رأيي إنني " مش فاهم " إلا الكلام الأخير ، وفاهم أيضا أنك لا تنوي الزواج .

قال : فعلا يا أخي . إنني لا أنوي الزواج قريبا .

قال اسماعيل : أما أنا فإني نويت الزواج قريباً .. وأني لأطلب الإذن منك ، إذ المفروض أنني لا أتزوج قبلك .

ضحك الشيخ وقال : إذن هذا هو الموضوع . ألف مبروك مقدا يا أخي . ومن هي السعيدة التي اخترتها . قال : أنا لم أأخر . أبوك وأمك وعمك مشهور وامراته علآية هم الذين اختاروا . فمنذ أن كنا أطفالا ، وأنت تعرف هذا ، وهم يقولون : اسماعيل لبخيته .. وبخيته لاسماعيل وقد قرأوا الفاتحة .. والآن ما دمت لا تنوي الزواج فاني قد انتويت الزواج من بخيته بنت عمي مشهور . قال على بركة الله .. هل تحدثت الى والدتك . قال هي موافقة . قال : خلاص . قال : لا " ماخلصي" . لماذا يا اسماعيل ما المانع .

رفع اسماعيل صوته قليلا وقال : المانع أنت ياخوي .

جزع وقال : ليه ؟

قال : أنت مانع الزواج في كل البلد .

قال : كيف هذا يا اسماعيل .

قال : منذ ان عرف الناس في القرية أن غير المتزوجين مهددون بأن يؤخذوا الى السلطة ركب الشبان عفريت اسمه " الجواز " كل واحد يريد ان يتزوج . الآباء مشغولون بتزويج أولادهم " بأية واحدة " والأولاد يلحون ، وأمهاتهم يبعثن المراسيل الى أمهات البنات ، ولا حديث في القرية إلا عن الزواج .

قال مقاطعا : لكن يا أخي لقد كتبنا العريضة التي تحميهم فم يخافون .

قال : لا أحد يعرف او يفهم كيف تحمي ورقة مكتوبة الناس من السلطة . ورقة الكتاب أضمن ، إلا أن الأمهات والبنات لا يردن الزواج .

قال : لماذا ؟

قال : أول مرة " الوليه العبيطة مبروكة مرت
حسنيين راحت لمرت محمد رفاعي وقالت لها سلفيني
بنتك مجلعة يتجوزها ولدي علشان ما يخدوهشي في
السلطة " . من ساعتها والناس يطلقون على الزواج
هذه الأيام زواج " سلف " يعني شحاته . وتاكّد هذا
الوصف لأن الآباء لا يعرضون مهورا مناسبة بحجة "
الظروف " فالكلام كثير ، والاتصالات متواصلة ،
والرجال راغبون والنساء ممتنعات ، حتى بخيطة بنت
عمي ممتنعة لأنها لا تريد زواج " سلف " فأنا أريدك
أن تقابل عمي مشهور وتقنعه بأنها " جوازة مش
سلف" .

ضحك وقال : حاضر يا اسماعيل سأقابل عمي غدا
واتفق معه على مهر يرضيه فلا تظن بخيطة وأمها أنها
سلف . ومع ذلك قال لي : متى خطر لك أن تتزوج ؟
قال وهو ينصرف من المنصرة : " من يوم ما فهمتنا
ان السلطة لا تأخذ المتزوجين " .

تصبح على خير .

(٦)

استيقظ بعد أن كانت أشعة الشمس قد غمرت بيوت
القرية القائمة على سفح الجبل الشرقي ، أي في نحو
الساعة التاسعة صباحا . فتح باب منصرته وأطل على
الردهة فلم يجد إلا يونس عبد الله وفوزي مرسي . هبا
واقفين حين رأياه . صباح الخير يا يونس . خير
صباحين ياشيخ عباس . أين اسماعيل . اسماعيل ذهب
هو ونصر الجمال منذ الفجر إلى سوق الريانية وأخذا
البقرة السوداء . " أصلها كارفة " لها عشرة أيام
فأخذاها الى سوق الريانية ليطلقا عليها ثور أولاد
مصبح .

وأين مرسي . تفضل ادخل . دخل يونس عبد الله .
فقال فوزي متوقعا جوابا : صباح الخير ياعم الشيخ
عباس . فخرج اليه ضاحكا وطوق كتفيه الصغيرتين
بيده وقال : صباح الخير يا حبيبي ، تعال أدخل أقعد
معنا . فقفز فوزي الى الداخل سعيدا . جلسا وبقي
فوزي واقفا قال له بحنان عميق : أقعد يا فوزي .
قال الصغير : " له . عيب " فضحك مرة أخرى وقال :

طيب خد نيكله (نصف قرش) واذهب اشترى لنفسك " فول سوداني " وحلاوة من الدكان . خطف الغلام نصف القرش وانطلق يجري حافيا .

أين مرسي يا يونس . قال يونس عبد الله : لقد تعارك مرسي مع محمد عبد الله وأحمد عبد الرحيم " علشان المنصرة الكبيرة " كان اسماعيل قد طلب إليه أن يبلغ عمك مشهور أنك ستزوره اليوم في بيته . فقال له لا أستقبله في بيتي ولكن في المنصرة . منصرة العيلة . وطلب منه أن يفتحها وينظفها بعد أن هجرت فأصبحت كالخرائب . ذهب مرسي إلى محمد عبد الله يطلب المفتاح فرفض محمد عبد الله . قال له : " عاوز مفتاح المنصرة ليه . مادام أخوك عمل له منصرة مخصوص وعزل حاله عن العيلة فخليكم يا بيت محمد اسماعيل في حالكم بعيد عن منصرتنا .. وخلي أخوك ينفكك " .. مرسي غضب ورد عليه ردا " وحش " فأحمد عبد الرحيم " اللي كان قاعد وسامع الكلام دعى على مرسي وقال له : " كيه تكلم عمك أكده يا قليل الحيا " . كتر الكلام تكاثر الناس وعابو على مرسي كلامه فانصرف " زعلان " وغادر القرية إلى الغيط .

قال الشيخ : ما سبب كل هذا يا يونس ؟

ضحك يونس عبد الله وقال : ولي الأمن من غضبك ، الأرزاق على الله .

فضحك الشيخ عباس وقال : طيب يا يونس عليك الأمان . ما سبب كل هذا الذي جرى في العائلة .

قال يونس : عائلتك ، أولاد مشهور ، عندهم حق يا شيخ عباس . أنك حتى لم تلاحظ أنهم قاطعوا الاجتماعات ولم يشتركوا في مسألة العريضة . لا أحد من كبار السن فيهم دخل هذه المنصرة إلا مرة واحدة يوم أن تم بناؤها حسب العادة مهنا .. البلد كلها تعرف هذا وتعترف لهم بالحق . أنت متعلم وكبير مقام أي نعم ولكن العائلات لها أصول . المنصرة منصرة العائلة روك (شركة) بين بيتها ومع ذلك قمت أنت ببناء منصرة خاصة ولم تهتم حتى بأخذ رأي أعمامك . أكثر أعمامك غضبا عو عمك مشهور لأنه ،

حسب الأصول ، هو كبير العائلة بعد وفاة المرحوم والدك ، لهذا لا يريد أن تحضر إليه في منزله ولا يريد ان يقابلك في هذه المنضرة ويصر على أن تتم المقابلة في منضرة العائلة التي لم يعد يتردد عليها أحد منذ ان فتحت منضرتك ..

اطمأن إلى صمت الشيخ عباس فرفع صوته قائلاً : " دا حتى الحريم زعلانة يا شيخ عباس ومعتد خلشي بيتكم .. "

قال بحدة : وما شأن الحريم يا يونس في هذا الموضوع .

قال برقة ومودة رفيق الطفولة : " يا عباس يا خوي أنت حتتصرف من راصك ومعتخدشي رأي حد .. حد يا عباس فتح باب المنضرة على باب البيت . طول عمرك شفت حد عمل أكده .. طب والحريم تطلع وتدخل كيه .. أنت عملت أكده ولا له .. حبست حريمكم في بيتكم وقطعت رجل حريم العيلة من كتر الناس اللي قاعدة في المنضرة وقدام المنضرة " .. هل يصح هذا يا عباس لماذا لا تأخذ رأي الناس فيما لا تعرفه من أمورهم .

قال : ولماذا لم يقل أحد رأيه .

قال : لأنهم غير فاهمين ماذا تريد مما تفعل سواء في المنضرة أو حتى في العريضة .. ولأنك ضيف ومتعلم لا يريدون مواجعتك بالسؤال أو الاعتراض . وأنا الذي نشأ معك ويحبك ويفديك بروحه ، والله والله لولا أنك أعطيتني الامان من غضبك علي لما قلت ما قلت . لكن الحمد لله " .. ها أنت ذا قد عرفت سبب كل ما يجري في العائلة ، واجب عليك الآن أن " تسترضاهم " ..

قال مستنكرا : أسترضيهم ؟ .. قاتل الله الجهل . على أي حال أشكرك يا يونس على صراحتك . إن الذي يحيرني في هؤلاء الناس أنهم يكتمون ما بأنفسهم وهم غاضبون .. هل ينتظرون أن يطلع أحد على سرائرهم ليعرف فيم يفكرون وهل هم راضون أو غير راضين .. لاتقل لي أنه الخوف .. مم يخافون . ثم أنهم يعبرون عن مواقفهم بالقطيعة الصامته فلماذا لا يعبرون عنها بالكلام الواضح . إنه الجهل يا يونس ..

والظاهر من الأمر أنه لم يبق لي غيرك يا يونس .. فأنت الوحيد الذي يصارحني . أي أنت الوحيد الذي تقوم بينه وبينني صلة الادميين . تبادل الأفكار بالكلام .. أما المواقف الصامته فتلك من خصائص البهائم .. يفرح الكلب فيهز ذيله ويغضب الحمار " فيحرن " . لا يتحرك . تعرف يا يونس لماذا فضل الله الانسان على الحيوان بالكلام ؟ " عشان يقول لا مش عشان يقول نعم . نعم مش عايزة كلام " . فبلدياتنا الذين يغضبون ولا يتكلمون أنعام .

ثم بترت ضحكته حين اندفع فوزي داخلا يمد يده بقرطاس من الفول السوداني وأربعة مليمات حمراء . : " اشتريت بمليم وآدي الباقي " .

الفول لك .. والباقي لك يا فوزي . لكن قل لي . لماذا أنت مرابط في البيت هذا اليوم ألا تلعب مع أترابك ؟ .

قال الغلام على حياء ، لقد طلبت مني أمي أن أذهب إلى الغيط لاستدعي " أبوي مرسي " وماذا تنتظر . لماذا لم تذهب كما قالت لك أمك . قال الغلام : لأنها أوصتني أن أقول لأبي أنك أنت الذي تريد ان يعود من الغيط لأنه ذهب اليه " زعلان علشان خاطرك " . حكيت الحكاية لعمي يونس فقال لي انتظر حتى يستيقظ عمك وخذ رأيه ، فانتظرت ، هل أذهب إلى أبي؟

قال الشيخ عباس : هل تعرف لماذا تريد أمك أن يعود أبوك ونحن بعد في اول النهار .

قال الغلام : " أصله النهاردة السوق " .

فضحك يونس ..

وفهم عباس فضحك وقال : آه .. فهمت طيب يا فوزي . ثم التفت إلى يونس .. من فضلك يا يونس تأخذ فوزي معك ، وتذهب إلى حسن البزبز الجزار وتطلب منه أن يحجز لنا نصف جدي ، وهذه عشرة قروش .

فصاح فوزي فرحا : نصف جدي ..

قال : عشان خاطر يا فوزي .. ودس في يد يونس
عبد الله الذي نهض خمسة عشر قرشا . ثلاث قطع فضية .
قال يونس : هذا أكثر مما قلت . قال بمودة وقد نهض
يودع يونس ووضع يده على كتفه : هذا من أجل أمك
وأخوتك الصغار .. وسلم لي عليهم . قال يونس عبد
الله .. الله يسلمك ويخليك ويحط البركة فيك .. يا الله يا
فوزي ..

انطلقا سعيدين ..

قال فوزي وهو يهرول ليبقى بجوار يونس : يا عم
يونس هو عمي عباس كان " عيضحك ليه " .

قال يونس : والله يا ولدي ما عارف . " إمكن كان
زعلان " .. اذهب أنت سريعا إلى الغيط واستدع أباك
حتى لا تزعل أمك .

(٧)

طرق الباب بقبضته فنادته من داخل الدار : من؟
.. قال : أنا عباس افتحي يا صفية . استمهلته قليلا
ثم فتحت الباب وتنحت ثم قالت : تفضل . خطوة
عزيزة . لنا جمعة لم نرك وأمك " قلقانة " . " إيه
يا سلفي بس اللي انت شاغل بيه روحك . لا أنا عارفة
ولا مرسي عارف . قلت له يا مرسي يا ولد عمي أخوك
يععمل إيه مع الناس دي كلها قال والله ما أنا عارف".
قال لها ضاحكا : وهل تعرف أمي ؟ .. قالت ضاحكة :
" يوه . عمتي عتعرف كل حاجة بس أنا مسألتهاش "
قال : أين هي ؟ . قالت أمه من داخل الحجره ،
حجرتها : " أنا إهنة تعالى يا عباس يا ولدي .. بنت
يا صفية هاتي حاجة لسلفك يبلع ريقه (يفطر) " .
حاضر .

صباح الخير يا أمي .

صباح الخير يا ولدي .

لقد ترهلت أمه . جلس أمامها على حصيرة عليها
فروة خروف تجلس عليها وقال : كيف أنت اليوم .
قالت : " أهه . زي كل يوم .. الله حسن الختام " .
قال : " ربنا يخليكي لنا " .

قالت : " ويخليك ويسترك ويحميك من اللي يعاديك يا عباس يا ولدي " .

جاء الإفطار . بيضتان غارقتان في الدهان و " بتاوة " قيضي مقمرة .. نظر إلى صفيّة فقالت : هذه تصبيرة إلى أن يأتي العشاء بالفطير والمرق واللحم .. بعد عودة مرسي . قال لها : لقد حجزت لكم اللحم . نصف جدي . وأرسلت فوزي ليستدعي والده .. فقالت : " ربنا يخليك لنا " . أذهب أنا إذن أجهز العجين والفرن والكانون .

قال : يا أمي أي أريدك أن تصحبيني إلى بيت عمي مشهور نخطب بخيطة لاسماعيل . ولأن عمي مشهور غاضب مني فوجودك معي يخفف غضبه .

قالت بصرامة : " وهو مشهور زعلان ليه " .

قال : من أجل المنصرة . لا بد أنك تعرفين . ثم ان بخيطة لا تريد أن يتم الزواج لأنها تعتقد ان هذا الزواج " سلف " كما يقولون .. وضحك .

قالت : يا ولدي .. " لا منصرة ولا سلفه ولا حاجة . يا ولدي أنهم يكذبون . المسألة قديمة منذ ان مات أبوك . وعمك مشهور " شايل مننا " ..

لماذا ؟

قالت : حين اختير أبوك للعمودية كان ينقصه ستة قراريط . فأخذ القراريط الستة من عمك مشهور . بيع وشراء وكتبنا ورقة . بعد وفاة المرحوم أبيك ، وسفرك بعد الاربعين ، جاء عمك مشهور وقال لي يا بخاتي أنا عايز أرضي . الستة قراريط . قلت له ألم تبعها للمرحوم . قال : لا . لقد كان ذلك من أجل إكمال نصاب العمودية . فأنا قلت له لا يا مشهور ، لو كان ذلك من أجل نصاب العمودية كنت بقيت " راكب الأرض " كما هي العادة . ولكن المرحوم " ركب الأرض " بعد البيع وأنت قبضت الثمن ٣٠٠ قرش . قام غاضبا وقال : " أنت عتكديني يا بخاتي " .

قلت له غاضبة : " الورقة معايا وأنا ما عنكديشي .. ومن ساعتها وهو شايل مننا " ..

قال : سأسوي هذا الموضوع ، أعطني الورقة وأنا سأسوي الموضوع مع عمي . فدست يدها في سحارة قديمة وأخرجتها ملفوفة في منديل وأعطتها له .. المهم أن نخطب بخيطة لاسماعيل قبل أن يعود اسماعيل من الرياينة . أنا وعدته بهذا فلا تكسفيني .. وهيا نذهب إلى عمي مشهور ..

قالت : يا ولدي أنا لم أخرج من الدار منذ مات المرحوم أبوك .. هذه عادتنا .. الأرملة لا تخرج من الدار بعد وفاة زوجها ما دام عندها أولاد " عيب الناس يشوفوها ويقولوا رايحة وين المرة دي بعد ما جوزها راح " .

ضحك وقال : لا عليك أنها خطوات قليلة إلى بيت عمي . ولا أحد سيعرف من أنت . ثم أي معك ..

فجاءت صفية من حيث لا يدري أحد تحمل " الشقة " . قالت بخاتي : هاتي .. إنشالله تنقح رقبته . يا بت أنت كنت تتسنطي علينا .. فضحكت صفية .. وتزعنفت بخاتي .. وذهبا إلى بيت مشهور ..

استقبلهما عجوز لا يكاد يرى . ورحب به ترحيبا باردا . فقال وهو يصفحه : أنا عباس ياعم مشهور . ثم همس في أذنه : ورقة الأرض معي وسنسوي الموضوع معا . فرحب به ترحيبا منفعل الحرارة وأجلسه بجواره على المقعد . وجاءت امرأته عالية ورحبت ببخاتي التي تجاهلها مشهور . تحدثت بخاتي إلى عالية عن اسماعيل وبخيطة . فقالت عالية : " وماله ياختي ولد العم أبدى من الغريب " . قالت بخاتي : " وما تنسيش يا عالية ياختي إننا من يوم ما تولدوا وعلقولوا بخيطة لاسماعيل واسماعيل لبخيطة " . قال عباس : " على بركة الله . باقي الأمور أسويها أنا وعمي لأن اسماعيل مستعجل على " الدخلة " فنطق عمه لأول مرة اثباتا لوجوده : " له . الدخلة بعد قطع القيسي " . قال عباس : ان شاء الله . الفاتحة . قالت عالية وقد انطلقت من فمها ضحكة لم تشذبها أسنان : " يوه ما قرينا الفاتحة أولت أولت عمنول " . قال مشهور بحماسة " يوه ، يامرة حد يعترض على الفاتحة . الفاتحة " . فصمتوا يتمتمون . ثم انصرفا بدون

ان تظهر بخيطة من مكنها خلف المقعد . ولم يقل
أحد أو يسمع حكاية " جواز السلف " .

حينما عادا وجدا مرسي واسماعيل ونصر الجمال
والبقرة السوداء عائدين . لم يذهب مرسي إلى الغيط
غاضبا . ما أن غادر القرية حتى هدأ فاتجه رأسا
إلى الرياينة حيث السوق ولكن ليس إلى السوق .
وإنما إلى منزل محمد بدوي قبيل مدخل القرية . إذ
محمد بدوي هو شاعر الربابة العظيم والراوية
الأعظم ، على أنغام الربابة ، لقصة الهلالية ، فيما
بين أيام السوق يحيي الأفراح في القرى . أما يوم
سوق قريته " الرياينة " (العقال القبلي)
فيستقبل في منضرتة الراغبين في سماع بضاعته من
رواد السوق . من يبكر منهم يسمع القصة من أولها .
فبكر مرسي ليستمع إلى محمد بدوي . قابضا يده على
" نيكله " مقابل الاستماع . أما البقرة السوداء
فقد عادت " كارفة " كما ذهبت . لم تسمح الظروف
بأن تزف إلى ثور بيت مصبح .

يشرح الظروف اسماعيل بينما انصرف نصر والبقرة
إلى مأواهما .

قال اسماعيل يائسا : كان يوم أزرق . لا سوق ولا
موق . لقد كادوا يأخذون منا البقرة لولا أني جريت
بها . كل الناس كانوا يجرون ببهائم وبغير ببهائم .
من يتعطل يتلقى من الهجانة قسمته من الكرابيج .
الحريم تصرخ . والعيال تبكي . والحرامية يخطفون .
والهجانة يضربون . " تقولشي القيامة قامت " ..

لماذا يا اسماعيل . ما الذي جرى ..

ما جرى لا يحكى يا ولد أبوي . هول . كنا
ذاهبين ، أنا والبقرة ونصر إلى بيت مصبح لنطلق
ثورهم على بقرتنا . أصلها كارفة منذ عشرة أيام .
ماشيين في الدرب " اللي غرب الجامع " سمعنا صراخا
من شرق الجامع . من جهة السوق . قلت لنصر " إيه
ده يا نصر ؟ " قال لي : " مالکش دعوة . جر البقرة
واجري وأنا وراك . ومسيرنا نعرف إيه ده . لازم
مصيبة . هو يعني الناس عتصرخ من الفرخ سحبت مقود
البقرة وشدته ونصر ضربها بالعكاز على بطنها

لغاية ما وصلنا رهبة أولاد هريدي . لقينا الناس أمم . وجمال الهجانة ناخة . والهجانة ماسكين الكرابيچ وبيجروا ورا الناس . نصر قال لي بيت محمد سلمان على يمينك . ادخل عند اختك . دخلنا . أنا والبقرة ونصر وغلقنا الباب . لقيت اختي " وشار " تصرخ وهي في بيتها . سألتها إيه الحكاية " يابت ابوي " . صرخت يا خراب البيت يا اسماعين . خدوا الغلة وخدوا الحمير . الهجانة " حاوطوا السوق وخدوا الغلة من الناس ومن التجار وحطوها على الحمير اللي في السوق . سوق الحمير اللي من بحري . واللي يقول لة يضربوه بالكرابيچ " وكان العمدة واقفا . والغفر واقفين . ومعهم الحكام من المركز " . ومعاهم واحد ببرنيطة وعساكر ببرانيط ماسكين سلاح . لما شافهم ، أول ما شافهم ، ولد غانم محمود صرخ وقال أجروا ياناس هايخدوا البهايم . كل الناس جرت ومعاهم بهائمهم وصرخت الحريم فصعدت اختي وشار على السطح وشافت أنهم يأخذون الغلة والحمير بس . وصرخت ..

وهل أخذوا من بيت سلمان شيئا .

له . سألتها قالت له : " أنا عنصرخ مع أهل البلد . البلد كلها لازم تصرخ . دي سرقة في عز النهار والرجالة هربوا " .

جلس الشيخ عباس مغيظا حزينا يكاد يبكي وقال :
وبعدين يا اسماعيل ..

قال اسماعيل : وبعدين إيه ؟ . ولا قابلين . بعد أن انصرف الهجانة تسللت أنا والبقرة ونصر وعدنا إلى هنا . مررنا على بيت محمد بدوي لقينا الفالج مرسي واقفا ومعه آخرون .

عرفنا منهم أن السلطة هي التي جمعت الحمير من السوق وحملت عليها الغلة وضربت الناس بالكرابيچ . " وعيقولوا الدور الجاي على بلدنا " .. تمهل ليلتقط أنفاسه ثم قال لعباس : وأنت عملت إيه مع عمي مشهور ..

قال عباس : خلاص يا سيدي . مبروك . ذهبت إليه أنا وأمك واتفقنا على أن " الدخلة " بعد قطع

القيضي . فصرخ اسماعيل : له . له . يا عباس . قلت لك الدور على بلدنا . النهارده خدوا الحمير والغلة بكرة ياخدوا الرجالة . له . له . لازم الدخلة يوم الخميس بالكثير ..

حاضر يا اسماعيل ..

لم تنم القرية ولا نام أهل القرى المجاورة وهم يتناقلون أخبار الرياينة ، كانت بسيطة فأصبحت مركبة ، ويتدبرون فرادى وجماعات كيف يخفون الحمير والغلال وكيف يخفون ..

ويستمع يونس عبد الله ، متنقلا بين أهل القرية ، منتهزا فرصة توقف الحديث الخائف ليبتسم شامتا ويقول لمن يستمع إليه : ألم يكن الشيخ عباس على حق ، فلا يرد عليه أحد .

(٨)

فجر اليوم التالي لم يرد إلى التربة أحد من أفواج الرجال يتطهرون ، ولا صلى أحد من الشباب جنوبي الكوبري الخشبي الركيك . ولا تحدثت الإناث في الموردة شمالي الكوبري عن شيء غير خطف الفلة والحمير في الرياينة وأن " الدور جاي على بلدنا " . وسيخطفون الرجالة كما قال اسماعيل ولد المرحوم الشيخ محمد اسماعيل . ولم يذهب كثير من القرية إلى الغيطان . خيمت على القرية سحائب كئيبة من خوف المجهول وترقبه فكثرت اللقاءات بين العائلات . يتداولون علمهم يعرفون كيف يتقون مالا يعرفون . ذلك لأنه قبل أن ينتصف النهار نزلت رواية اسماعيل إلى هامش متن روايات أقسم مؤلفوها على صحتها أغلظ الإيمان .

قال حسن عبد العزيز أن المصيبة في " الرياينة " لم تقتصر على أخذ الغلة والحمير والضرب بالكرابيج ، بل أن الخواجات فتشوا بيوت الأعيان واستولوا على كل خفيف ثمين من نقود أو حلي .

وقال محمود موسى أنهم أخذوا من " الكوم الأحمر " مع الحمير والجمال . وقال حسان حسانين أنهم في " بويط " هتكوا أعراض النسوان . وقال

مصطفى أحمد مصطفى أنهم في بلدة " طعمة " خطفوا العيال الصغيرين . فقال يونس عبد الله شامتا ألم يقل لكم الشيخ عباس أن السلطة ستأخذ الغلة والحمير والجمال والنقود وتخطف الأطفال وتهتك أعراض النسوان .. ألم يقرأ لكم ما في " الجرنال " ..

اختار نفر من كل عائلة أن ينقلوا الرواية ويلتمسوا الرأي عند العمدة محمود عبد اللطيف فنفروا إلى منضرتة .

قال اسماعيل غاضبا : ما هذه الحكاية يا حضرة العمدة . ما الذي جرى لترسل الغفر يجروني إليك جرا .

قال محمود عبد اللطيف : أهدأ يا اسماعيل يا ولد عمتي . أنا محتاج إليك وأرجو أن تكون معي من الصادقين . ولا تنسى أن الناس هنا شهود على ما تقول .

قال اسماعيل : ماذا أقول .

قال العمدة : اهدأ أولا وأجلس ثم أجب " " من الذي قال لك أو سمعت منه في الرياينة أن الدور جاي على بلدنا وأن السلطة بعد أن تأخذ الغلة والحمير ستخطف الرجالة " .. من بالضبط يا اسماعيل؟ ..

قال اسماعيل : ما حدش ..

قال العمدة بحدة : من أين إذن أتيت بهذا الكلام .

قال اسماعيل : من مخي ..

قال العمدة : ومن الذي أدخل هذا الكلام في مخك؟

فسكت اسماعيل ..

قال العمدة يأمر خفراءه : اذهبوا فورا واحضروا لي هنا حسن عبد العزيز ومحمود مرسي وحسان حسانين ومصطفى أحمد مصطفى . حالا . فانطلقوا مسرعين .

ياحسن هل كنت في " الرياينة " أمس ؟ - له .
يامحمود موسى : هل ذهبت طول عمرك إلى " الكوم
الأحمر " أو تعرف أحدا من أهله ؟ - له . يا حسان
حسانين : هل قال لك أحد من " بويط " أن السلطة
هتكوا أعراض النسوان ؟ - له . يا مصطفى أحمد : هل
بلغك من أحد في " طعمة " أن السلطة خطفوا ولده ؟ .
له ..

صاح العمدة : أمال إيه الحكاية يا ولاد
الكلب..

قال حسن عبد العزيز : ما فيش داعي للإهانة
ياعمدة . لم نقل نحن شيئا غير ما سمعنا ..

وممن سمعتم ؟ .

قال حسن : من البلد . كل البلد عتقول أن هذا
حصل في الرياينة والكوم الأحمر وبويط وطعمة . وفي
البداري واسيوط كمان .

قال العمدة للخبراء : احبسوا هؤلاء الأربعة في
حجرة التليفون واحرسوهم . أما انت يا اسماعيل
فاذهب وابعث لي بأخيك عباس .. قل له العمدة يريد
ان يراك الآن ..

تدخل أحمد عبد اللطيف بنبرة حازمة : ياشيخ
محمود يا خوي ما فيش داعي . أنا أقول لك أصل
الحكاية .. الكلمة لك .. نعم . ولكن بعد ان
تسمعني . وهؤلاء الناس يعرفون ما سأقوله ..

قل يا أحمد .. انتظر يا اسماعيل ..

قال أحمد : مشاغلك لم تسمح لك بأن تذهب إلى
منصرة الشيخ عباس .. لكن كلنا رحنا بدل المرة
مرات . وهو يقرأ الجرائد . وينقل إلينا أخبار
الحرب والهلاك الذي تسببه ، وفهمنا . وفهم كل
الموجودين ، أن من يوم ما قامت الحرب أصبح
الانجليز هم المسيطرين على بر مصر . وكان يسمى
الانجليز السلطة . في البداري وفي طما وفي أبو
تيج . كانوا يسمونها السلطة " أي والله مش هوه بس " .
بس هوه كان يتكلم كثيرا أمامنا عن إيه معنى
السلطة " اللي همه الانجليز " . وكان يصفهم بأنهم

مجرمون ولصوص . وأنهم إذا دخلوا بلد يأخذون الغلال
والمواشي والأموال ويغتصبون النساء . " ماجبشي
سيرة العيال " . وقال أنهم دخلوا بلادا كثيرة
وفعلوا بها ما قال . فنحن جميعا ، عندما سمعنا أن
السلطة وصلت الرياينة وأخذت الحمير والغلال فكرنا
أن الدور سيأتي ويأخذون باقي المواشي والرجال
والنساء . كل واحد منا ، ومن الحاضرين متوقع أن
هذا سيحدث . فالذي حدث أن الشبان الصغار قالوا
أنه حدث فعلا وسرت الاشاعة وصدقها الناس . هذه هي
الحكاية . صح يا رجالة ؟ ..

قالوا جميعا : صح ..

قال أحمد : والآن وقد عرفت الحقيقة فالأمر لك .

صمت الشيخ محمود عبد اللطيف طويلا والناس
صامتون ثم رفع رأسه ببطء وقال للخبراء : اطلقوا
سراح الأولاد . وأنت يا اسماعيل عد إلى منزلك . لكن
" ما حدش يتكلم عن حاجة إلا إذا شافها بعينه أو
سمعها بودنه وجه قال لي : " واني لذاهب صباح غد
إلى المركز لاستقصي الأخبار من مصادرها الرسمية .
ونتقابل غدا مساء ان شاء الله بعد المغرب " . " اللي
فيه الخير يقدمه ربنا " ..

فانصرفوا وبقي أحمد ..

قال أحمد : ياشيخ محمود . اصطحب معك غدا
الشيخ عباس ولد عنتك إلى المركز يساعدك إذا احتجت
إلى من يقرأ لك ما هو مكتوب في الأوراق الرسمية لأن
الأوراق الرسمية كما تعرف وكما تقول دائما هي
المصدر الموثوق للأخبار الصحيحة .. قال العمدة
ضاحكا : أنت عفريت يا أحمد .. هذا ما كنت أفكر
فيه . أخشى ألا يقبل المجيء معي ، قال أحمد : بل
يقبل سعيدا إذ هو معتكف في منضرتة مغلقاً عليه
الباب حزينا ، ولا بد أنه يفكر فيما يجب عمله منذ
ان استمع إلى رواية اسماعيل . وعلى أي حال ، أنا
- بعد إذنك - أذهب إليه الآن وآتيك بالخبر اليقين.

قال : اذهب وعد بسرعة .

ذهب وعاد بسرعة .

قال طبعاً يسرني أن أكون مع العمدة ولكن ليس غداً .

فقاطعته العمدة : لماذا . أنا وعدت البلد ..

قال أحمد : يرى الشيخ عباس أن غداً يوم الاثنين. يوم سوق البداري . وهو غير مناسب لمقابلة رجال الإدارة " على رواقه " . إنهم سيكونون مشغولين بترتيبات الأمن في السوق . وسيكون هناك رجال من السلطة الانجليزي . وربما يحاولون في سوق البداري ما فعلوه في سوق الرياينة فلا تجد أحداً " فاضي " يتحدث معنا . بعد غد الثلاثاء ان شاء الله نذهب إلى حيث يريد العمدة . هذا رأي عباس . ولكنه قال : أما إذا كان العمدة مصراً على غد فسأذهب معه ارضاء له ولكن أخشى أن مشوارنا لن يؤدي إلى ما يريد .

قال العمدة : عنده حق . غداً سأعتكف . وقل للناس أنني مريض . وسأذهب يوم الثلاثاء ، والآن اذهب واشكر الشيخ عباس وقل له أننا سنلتقي يوم الثلاثاء في الصباح الباكر عند الكوبري كما لو كنا قد تقابلنا مصادفة .

ما ان برز أحمد عبد اللطيف من " منضرتهم " مهرولا حتى أوقفه بغتة صوت صرخة قادمة من أقصى الدرب ثم صرخات متتابعات . فتاة سافرة الوجه على رأسها طرحة تنحني كل بضع خطوات فتغرف من تراب الأرض ما تهيله على رأسها وهي تصرخ بصوت حاد : " يا كسري ... ياغووووووتي . يا كاسري . وين العمدة وين . قتلوه . مين ياخذ تاري مين . ياكسري ... ياغووووتي " . وما زالت تجري وتصرخ وتغرف التراب وتهيله على رأسها فيتساقط على طرحتها حتى أدركت أحمد واقفاً أمام منضرتهم . قبل أن تدركه كانت قد رددت صرخاتها في الدرب صرخات من داخل البيوت ومن فوق أسطحها . وتابعها جريا رهط من الأطفال . واجتمع حول أحمد عبد اللطيف بعض الشباب والرجال . وبرز العمدة فوقف معهم . فلما وصلت إلى حيث تقف نائحة تنحني وعاد إلى مجلسه وقال لأخيه احضرها يا أحمد ، أما انتم فانصرفوا إلى أعمالكم ،

وليبق الخفراء فقط . يبقون هنا . لا يدخل أحد منهم إلا إذا طلبته .

عندما دخلت المنضرة يصحبها أحمد عبد اللطيف صمتت . فتلاشى صراخ الأخریات واكتفى الرجال والشباب بالمهمات . وجدت العمدة جالسا على دكته فجلست أمامه على الأرض وهي تبكي بحرقة ولكن بدون صوت ضاغطة بكفيها في صدغيها ناظرة إلى الأرض . الأرض ، أرض منضرة العمدة ، قد رشت بالماء منذ الصباح فاكتست بغلالة طينية . مدت الجالسة يدها بهدوء وجمعت من الطين ما يملأ كفها الصغير ووضعت برفق على رأسها ، ثم مسحت طين يدها في صدر ثوبها ثم عادت تضم صدغيها بيديها . يد متربة ويد "متطينة" ..

اقفل الباب يا أحمد .

- آه . أنت مين .

- أنا امرأة محمد ظرطور .

- الخولي في جينة بيت ويصا في الرياينة .

- آى .. وصرخت صرخة مقتضبة : قتلوه يا عمدة ..

- من الذين قتلوه ..

- الخواجات في الرياينة .

- طيب يا بنتي ماالذي حدث " بالظبط " .
قولي لي ولا تنسي شيئا .

كفكفت دموعها ، ومسحت على أنفها بكم ثوبها . ونظرت إليه نظرة ثابتة وقالت : عشية (أمس) في الصبح بدري ، شلت " البرمة " الكبيرة على راصي رايحة السوق أبيع الدهان اللي جمعته فيها طوال الجمعة . محمد كان " ماشي " قدامي وأنا وراه . وصلنا عند السحارة " لقينا كمبيل واقف وفيه اتنين خواجات ومعاهم بنادق وواحد هجان ماسك كرباج " . محمد .. بكت .. فقال لها أكملني ..

" محمد كان شايل بندقيته أم روحين شغلة ويصا بيه . معلقها في كتفه . خواجة وقف قدامه ووقفه وشاور على البندقية .. وانا وقفت وراه . محمد قال : دي مرخصة يا خواجة وشالها من كتفه ومسكها بايديه علشان يوريها له . راح الخواجة ضربه بدبشك بندقيته في رأسه على طول . وقع محمد وهو ماسك بندقيته . أنا صرخت . الهجان ضربني بالكرباج في راصي . اتلف الكرباج على البرمة وقعها تكسرت والدهان سال في التراب . وأنا صرخت . والخواجة قعد يضرب في محمد ، في راصه ، لغاية ما استخلص منه البندقية وخدها وهو يرطن . الهجان ضرب محمد وهو نايم بالجزمة في صدره وقال له قومي " يا بنت الكلبة " . محمد ما قمشي . جات الناس وعساكر ، وتكلموا مع بعض وشالوا محمد وحطوه في الكمبيل . عسكري قال : " يالله يا ولية روحي مع جوزك .. وحطوني في الكمبيل معاه . ونا عنبكي لكن ماقدراش نصرخ . أول صرخة الهجان ضربني على خدي بالكف . وقال لي " اخرص " مشي الكمبيل بينا وسايقه الخواجة الثاني اللي ما ضربني محمد . ودونا على المستشفى الميري في البداري . دخلنا وكشفوا على محمد وخدوه جوه أوضه وقفلوا عليه . بعد مسافة كتيرة طلع الدكتور . صرخت في وشه وقلت له وين جوزي . سايق عليك النبي تقول لي مات واللا عايش . قال - الله يستره - هدي روحك ياستي جوزك عايش وعملنا له عملية . وربنا يلطف بيه وبيكي . عايزة نشوفه . قال . له . مش دلوقيتي بكرة الصبح إن شاء الله تشوفيه . روحي روحي . صرخت وقلت أبدا . منروحش من غير جوزي . قال للتمرجي ، اللي لابس أبيض ، خليها تنام أهنة لغاية الصبح لما نشوف النتيجة .. بيّت . في الصبح جه الدكتور في الضحا ودخل عند محمد . بعد ما طلع ، قلت له عايزة نشوف جوزي . قال تشوفيه . وقال للتمرجي خليها تشوفه ، دخلوني عليه .

قطع حديثها نشيخ البكاء المر فصبر عليها الشيخ محمود إلى أن أفرغت دموعها الغزيرة . وبعدين ؟

وبعدين . يا محمد . يا محمد . يا محمد ماردش عليّ . قلت لروحي مات جوزي .. وصرخت وقعدت نصرخ . التمرجية اتلموا عليّ ، وطلعونني ورموني بره المستشفى . جيت على أهنة . جيت ماشية ، و ..

استفرغت سائلا لا تخالطه إلا رغاو كالمخاط ..

قال العمدة : إهدي يا بنتي زوجك لم يمت . وإن شاء الله ربنا يشفيه . لو كان قد مات لتلقينا اشارة من المركز لاستلام الجثة .

مات يا عمدة ..

لسه مماتشي ..

صرخت : ماات يا عمدة .. ياقله الرجالة .. مين ياخذ تاره ..

قال العمدة زاجرا : إخرسي يا امرأة وكفي عن الصراخ .. خذها يا أحمد إلى بيت أهلها وقل لهم أني سأذهب " مخصوص " صباح باكر إلى المركز لأعرف ماهي الحكاية ونطمئن على محمد ظروفور . واذا كان منهم من يريد ان يطمئن فليقابلني أمام المستشفى ظهرا ..

قال أحمد هامسا : بعد بكرة ..

قال ناهرا : يا أخي روح .. بكرة بعد بكرة " متفرقشي " ..

(٩)

الليل ما زال ليلا . يشهد بذلك النجم اللامع سهيل (الثريا) ، وتألّق النجمات الأنبيقات ، بنات الحور السبع (الدب الأكبر) ، اللاتي حين تغضبن على القمر تحجبن نوره فينخسف القمر ، فيخرج الصبية إلى الدروب يضربون على أوان أو صفائح وهو يتوسلون إليهن : " يا بنات الحور . سيبوا القمر . دا القمر مخنوق . ممعناش خبر " فلا يلبثن أن يستجبن لدعاء الصبية الابرياء فيطلقن القمر من سجنه . لم تكن بنات الحور غاضبات في تلك الليلة . فقد كانت شريحة هلالية من القمر المحتضر لا تزال طليقة الضوء في رحاب السماء الداكنة . الذي غضب حتى ثار محبسه المختار هو الشيخ عباس حين ايقظته طرقات عنيفة على باب الدار . ولقد ايقظت أمه وأخويه وزوج أخيه وحتى نصر الجمال . كان عنف الطرقات يوحي بانها نذير . فحال مرسي دون ان يتقدم أخوه الغالي ليفتح الباب ليرى الخبر . قال له ان الحذر لا يمنع القدر . قال ليكن القدر من نصيبي

فقد تزوجت وأنجبت . فتح مرسي الباب فوجد أمامه يونس عبد الله . " خير " ماذا تريد في هذا الليل . قال أريد الشيخ عباس . قال من مكمنه ماذا هناك يا يونس أزعجتنا . دعه يدخل يا مرسي . وأضاء " اللمبة " الصغيرة . قال اني آسف ولكن للضرورة أحكام . فقد أرسل إلي العمدة وكيل شيخ الغفر عزيز حسين لأحضر إليك وأبلغك أن موعدكما الفجر أو قبل الفجر "ضروري". كان ذلك بعد العشاء ولكن " راحت عليّ نومه " فلما استيقظت تذكرت فخفت ان يفوت الموعد فحضرت لأخبرك أن قد حلت ساعة الذهاب إلى البداري ، ولاستأذنك في ان أذهب معك فنحن في أيام خالية من الأمان . قال إجلس حتى استعد ويجهز نصر الركوبة وأنت يا اسماعيل أعمل لنا كوبين من الشاي . قال بل انتظر مع حماري خارج الدار .

حين أدركا الكوبري وجدا الشيخ محمود عبد اللطيف يصلي الفجر في المصلى جنوبيه ، ووجدا عزيز حسين يحمل على كتفه " بندقية " الحكومة التي تطلق رشا ويمسك بيده حمار العمدة إلى أن يقضي الصلاة امتطى كل من العمدة والشيخ ويونس عبد الله حماره وتبع وكيل شيخ الخفراء حمار العمدة مشيا على الأقدام . ركبوا جميعا جسر التربة الترابي الغربي متجهين إلى البداري يدبون دبا وئيدا صامتين .

قطع الصمت عزيز حسين حين التفت يمينا ثم قال مخاطبا لا أحد : التربة " شيمت " ، امتلأت حتى قمة جذورها بماء الفيضان المتدفق شمالا بتيار جارف . ثم التفت يسارا وقال ومع هذا فإن " القيسي " لم ينضج بعد ليقطع . قال يونس عبد الله : البحر عالي هذه السنة والخوف من ان يتكرر ما حدث منذ سبع سنوات حين أغرق الفيضان المزارع فأكل الناس محصول القيسي " فراخ " (أخضر) . قال وكيل شيخ الخفر : ربنا يستر . . الظاهر إنك كنت نائما طوال الليل يا يونس فلم تر أو تسمع ما جرى . قال : أي والله ، ماذا جرى يا عزيز . قال : بعد أن عاد من البداري آخر النهار الذين ذهبوا إلى السوق ، قالوا أن السوق كان محاصرا بقوات الانجليز ، وكذلك الطرق المؤدية إليه ، وكانوا يفتشون الناس بحثا عن "غلة " لكن الغلة اختفت بقدرة قادر منالسوق . الحقيقة كان السوق فارغا من أية

محاصيل غلة أو غيرها . ومن البهائم وخاصة الحمير .
وشاع في المركز أنه بعد ما حدث في الرياينة يوم
السبت البيه المأمور أوفد المباحث سرا إلى عمدة
البداري وعمد البلاد المجاورة بأن ينبهوا الناس سرا
أنه ممنوع بيع أو شراء الغلة والحمير يوم الاثنين ،
يوم السوق في البداري ، ومن يخالف ستصدر غلته
وحميره بأمر السلطة ، وفعل قبل طلوع الشمس أمس حضرت
إلى البداري قوة كبيرة من الانجليز على رأسها ضابط
وأحاطوا بالسوق . ولما لم يجدوا فيه غلة أو حميرا
ذهب الضابط إلى المركز ودخل حجرة المأمور وسأله عن
السبب فقال له : والله لا أعرف . ربما لأن أغلب أرض
البداري مزروعة حدائق فاكهة . وربما لأننا الآن في
موسم القيضي وليس القمح . ويجوز أيضا - والله أعلم -
أن أخبار الرياينة وصلت إلى الناس فخافوا . وعلى أي
حال أنهم لا يستطيعون الامتناع عن التعامل في الغلة
إذا كان لديهم شيء منها إلى الأبد . واقترح على
الخواجة أن تبقى القوة مرابطة في السوق والطرق
حتى آخر النهار . وأنه سيزودهم من قوة المركز بمن
يساعدهم على كشف الأعيب الفلاحين اذا كانوا يلعبون .
كما اقترح عليه تأكيدا لمظهر التعاون بين ادارة
السلطة وسلطة الادارة أن يعد له مكتبا في حجرته
ليديرا الحملة معا .

هذا ما حكاه آخر النهار العائدون من البداري .
وقد أرادوا أن يقابلوا العمدة لأخذ رأيه ولكننا
منعناهم لأنه كان " بخير " (مريضا) ولا يريد ان
يقابل أحدا كما نبه علينا يوم الأحد .

فما ان أضاء القمر بعد العشاء حتى ذهب كثير من
أهل البلد ومعهم أولادهم وحریمهم وحميرهم وجمالهم
إلى الغيطان وبدأوا في قطع قناديل القيضي ونقلها
إلى بيوتهم وتركوا البوص واقفا ، قناديل القيضي
التي تصلح للأكل ولو " فراخ " وتركوا القناديل في
الزراعة المتأخرة .

قال العمدة : ولماذا لم تمنعوهم يا عزيز .
ولماذا لم تقل لي ما حدث حين قابلتني أمس بعد
العشاء .

قال : والله يا عمدة .. لم أعرف الا بعد أن تركتك
وذهبت لمقابلة يونس عبد الله حسب امرك . ولم استطع ان
أمنع أحدا لأنهم ذهبوا الى غيطانهم ليلا ونحن الخفر لا
نستطيع حسب التعليمات أن نترك البلد ليلا . ومع ذلك
فتلك أموالهم وهم خائفون عليها . وقال لي بعضهم اذا
كانت السلطة وصلت الى سوق البداري ، بلد المركز
والاعيان ، " يبقى احنا ضايعين ضايعين " .

" وأهو ده اللي حصل " .. ولا يزال في المزارع
القيضي الأخضر وهو أكثر بكثير مما قطعوه .

قال عباس : لا حول ولا قوة الا بالله .

قال العمدة : " همه حرين " .. طيب يا عزيز هل
هناك أخبار عن ولد ظرطور .

قال : إمرأته وعبد القوي علي ظرطور ابن أخيه
ذهبا إليه في المستشفى . ولم يعودوا مع العائدين .
الظاهر أن حالته خطيرة لازم تزوره يا عمدة .

قال العمدة : " أمال أنا رايح ليه " ..

قال يونس : الناس يعتقدون أنك ذاهب كما وعدتهم
لتعرف هل ستصل السلطة إلى بلدنا أو لا ، كما وعدتهم .

قال : أو لم أعد أيضا امرأة محمد ظرطور .

قال : بلى .

قال : إذن فلا داعي للكلام الفارغ يا يونس .

قال : أمرك يا عمدة ..

وران صمت طويل ..

الطريق خال . وطويل . والهواء راکد رطب .
والحمير بطيئة والصمت ثقيل لولا أصوات حوافر البهم
في الأرض المتربة ، وطنين متصاعد لهوام متزايدة من
الذباب والناموس والزنابير تحتفي بأشعة الشمس التي
بدأت ي طرد الظلمة . والعمدة على حماره يغط .
يا عمدة ، يا عمدة . هل نمت . كيف تستطيع أن تنام
وأنت فوق الحمار . لم أنم طوال الليل ، والرطوبة
خانقة وخطوة الحمار منتظمة والطريق مستقيم ، فحين

أترك نفسي لكل هذا بدون مقاومة أو توجيه أدمج فيه فأشعر بالراحة وأنام .

ألا تخشى أن تقع .. ؟

ولماذا أقع مادام الحمار لا يتوقف ولا ينحرف . انظر إلى تيار الماء في التربة . لماذا يغرق فيه غلمان كثير كل عام . لأنهم ، بسبب قلة خبرتهم ، لا يتركون أنفسهم للتيار . ولو فعلوا لحملهم التيار إلى حيث النجاة ، ولكنهم يعاندون ويحاولون العوم ضد التيار فيغرقون .

ضحك ساخرا وقال : هذه حكمة يا ولد خالي .

قال : إذا لم تكن مصدقا فأسأل أمك . لقد رأيت ما رأيت وكنت أكبر منها سنا . انظر إلى الجبل فيما يحازينا منه واسأله . من الذي مات على الخوازيق أيام الغارة ومن الذي نجا . مات آباؤنا وأعمامنا واخوتنا ، الذين وقفوا ضد تيار فاضل باشا . ونجا من اندمج في التيار أو هرب . ومن أجل ماذا ؟ من أجل امرأة زانية . والله والله يا ولد ولد عمتي - وليس لك عليّ يمين - لومات رجل كلما زنت امرأة لانقرض الرجال .

قال يونس عبد الله : وتوقف الزنا يا عمدة .. لا تضحك يا يونس يا ولد عبد الله . الكلام جد . أنت رائق البال . ولقيت لك صديقا في الشيخ عباس ، لا يمك حتى لو " رحت في داهية " من أجله . صح ؟ .. صح يا عمدة . أنتحر في نفسك ولكن افرض أن الشيخ عباس هو " اللي راح في داهية " فماذا تفعل . " أروح معاه " . وما الذي يكسبه الشيخ عباس اذا رحت معاه أو مرحتش " .

لم يرد يونس واستطرد العمدة . أنا لعلمكم لا أنام الليل منذ يوم الجمعة خوفا على عباس . عباس عايم ضد التيار واني لأخاف أن يغرق وانتما ، يا يونس ، يا عزيز تعرفان ما لا يعرفه عباس من أمور البلد .

قال الشيخ عباس بتحد : لماذا يا عمدة كل هذا .

قال العمدة : اسأل أمك .

أنا أسأل أباها الكبير .. يقتلوك . من ؟ الحكومة ..

قال وكيل شيخ الخفر : كلامك صح يا عمدة إنما ليس لهذه الدرجة . قال . إخرس أنت . قال : حاضر . قال مؤنبا : يا وكيل شيخ الخفر يا فاهم . كلمة من الحكومة . أقل واحد في الحكومة لفلان أو علان من الذين تعرفهم ، يقتل عباس ام لا . قال : الأعمار بيد الله يا عمدة . قال : الأعمار بيد الله نعم ولكن ربنا يسبب الأسباب .. " اللي يعوم ضد التيار يغرق .. والي وقفوا ضد الحكومة علشان مرّة ماتوا .. " ..

قال الشيخ عباس : يا عمدة لقد قتلهم الخديوي ورجاله ولم تقتلهم شهادتهم .

قال العمدة : عال اتفقنا . حين يختفي رجال الخديوي والخديوي والدمرداش والانجليز .. " إبقى اكتب عرايض " ..

قال : أو قد عرفت ما فيها .

قال : خذ . هذه عرائضك كما تكتبها . فيها الأسماء التي أردتها . وأمامها بصمات أصحاب الأسماء . وها نحن ذاهبون إلى البداري . قدمها إلى من تشاء بعيدا عني . سنفترق عند " قلس على دلوكه " .. سأذهب انا وعزيز إلى المستشفى لنطمئن على ولد ظرفور .

انتبه الشيخ عباس فجأة إلى غير المعقول من أمر العرائض . فسأل محمود عبد اللطيف كيف حدث أن أحدا لم يمتنع وأنهم جميعا حاضرون . قال العمدة بهدوء كأنه يجيب عن سؤال تافه الأهمية . وماذا كان علينا ان نفعل . " اللي قابلناه بصم والي ما قابلناه بصمنا له " . انزعج الشيخ وقال : ولكن هذا تزوير وقد يؤدي إلى مسؤولية اذا طعن أحد بأنه لم يبصم . قال العمدة : ستكون مسؤوليتي وليست مسؤوليتك ففي آخر كل صفحة ستجد ختمي تحت شهادتي بأن قد بصموا امامي . قال ومع ذلك فهي مسؤولية قد تضرك . ضحك العمدة وقال : يا عباس يا ولد عمتي خليها على الله . " اللي عيطعن يبقى عايز يتطوع . يخدوه على طول . طيب مين عايز يتطوع . محدش . يبقى خلاص . لا تزوير ولا حاجة خليها على الله . سوق بينا خلينا نوصل بدري " . .

تركوا الحمير عند قلس على دلوكه .

قبل أن يفترقوا قال العمدة : ينهي كل منا أمره
ونلتقي إن شاء الله في مقهى الأسمر . وم يحضر أولا
ينتظراآخر حتى الساعة الثالثة لنعود سويا ، وهم بان
يعبر كوبري البداري غربا إلى المستشفى فأسر إليه
الشيخ عباس : " عايزك في كلمة على جنب " فاختليا .
قال : ياشيخ محمود ، ماذا وراء كل ماقلت . هددتني
حتى خفت وظننت أنك تدعوني إلى النكوص ، ثم قدمت إلى
"العرائض مبصومة مختومة واصطحبتني إلى هنا لاقدمها .
إني في حيرة من أمرك ..

قال : اسمعني يا عباس . لقد أردت أن انبهك إلى
ما قد تلاقيه من مصاعب وا قد يعترضك من مخاطر فقلت
لك ما قلت أولا . ولكني أردت أن احذرك من النكوص
فأحضرت لك العرائض لتقدمها الآن ، ولكي اشجعك تحملت
معك مسئولية أنا مقدرها . لا بد من حماية القرية من
مخاطر تشريد ابنائها . والقرية كلها غاضبة عليك لأنك
نبهتها إلى تلك المخاطر كما لوك نت قد اختلقتها
ولكنها في الوقت ذاته معولة على أن تفعل شيئا
يحميها . فتوكل على الله . لقد بدأت فلا تخف . قد يكون
الخوف قبل بداية المعارك حذرا محمودا ، ولكن الخوف
بعد بدايتها جبن مذموم ، وأنا أعرف أنك لست جبانا ،
فأستمر ، وأنا معك " بس من بعيد لبعيد " قدم
العرائض اليوم ولا تتأخر . ثم ضحك وقال : لعلمك لا
تترك مصيرها للتيار الا الرمم .

قال : لماذا اليوم ؟

قال : السر أفشيه لك وحدك . قبل أن ينتهي
الاسبوع القادم سيكون هناك عمدة للبلد . فقد اختاروا
عمدة للقرية أخشى عليك وعلى القرية منه ، ونحن في
انتظار التعيين الرسمي .

قال : من ؟ ..

قال : صديق ولد محمود حماد .. اذهب وربنا يوفقك

..

في طريقهما إلى المركز لفته يونس عبد الله إلى أن
ثمة جنودا انجليز غربي الكوبري عند السوق . لم يرد .
سار غاضبا . متحديا ، يضم يده على أوراق ملفوفة وهو
يعد نفسه لما سيفعل اذا ما رفض الأمور أن يستقبله

وطلب منه أحد أن يلقي بشكواه في صندوق الشكاوى . لن أقبل وسأقتحم مكتب المأمور وأواجهه . ولكن المكتب غير مقصور الآن على المأمور . هناك الانجليزي ممثل السلطة كما قيل . تردد . ما العمل حينئذ . شعر يونس بتردده . سألاه : مالك يا شيخ عباس إنت خايف تقابل المأمور ولا إيه " .. قال بحزم : لا أنا لا أخاف أحدا . قال : " أيوه كده يا شيخ دي البلد كلها ناظرة لك " .. عند مدخل المركز اعترضه شرطي يقف وقفة رخوة . " عايز مين يا استاذ " .. " البيه المأمور " . " البيه المأمور لسه مجاش . وما شأن الداخلين والخارجين من حجرته . ضحك الشرطي وقال : دو عايقابلوا الباشا المأمور . مأمور السلطة .. عايز تقابله . قال : لا سأنتظره في قهوة الأسمر حتى يجيء .. وانطلق إلى قهوة الأسمر المقابلة لمركز حيث وجد يونس عبد الله منتظرا ، شربا شايًا ، ثم شايًا ، ثم شايًا ، بعدنحو ساعة ظهر المأمور فاندفع وراءه إلى حجرته . وقال بتوتر متجاهلا الغريب . أنا الشيخ عباس محمد اسماعيل من الهمامية . قال المأمور بلطف غير منتظر : أهلا يا شيخ عباس . تفضل إجلس . ملأنا الحجرة مقاعد منذ أمس . ما طلبك . لم يقدم إليه صورة العريضة الخاصة به . ولا يعرف كيف ولماذا وضعالعريضة وكل صورها أمامه على مكتبه .

ألقي المأمور نظرة على الصفحة الأولى منها وقال:
تشرب قهوة يا شيخ عباس .

قال : لا متشكر ..

قال : ألام تصلك أخبار من حسين أفندي فريد . منذ أن غادرنا لم نسمع عنه . وقد عرفناك منه وكان يذكرك بالخير كثيرا . قال عنك مرارا أنك شديد الذكاء في تقدير الظروف .

قال : نشكره في غيبته وأرجو أن تسمح لي بأن أشكرك في حضورك .

قال : يا شيخ عباس عندما يكون الشكر واجبا فلا فرق بين الحضور والغياب المهم ان الظروف غير مواتية لأقبل منك عريضتك .

قال مستنكرا : انها عريضة البلد .

قال بحدة : اسمعني يا استاذ . قلتك الظروف غير مواتية لأقبل منك عريضتك . أنا أعرف ما أقول . اذهب إلى المديرية وقدمها هناك أو أرسلها من هناك إلى من هي مرسله اليهم وسيصلني ما هو خاص بي بالبريد .. مع السلامة ياشيخ عباس .. ووقف .

قال راجيا : ألا تقبل الصورة الخاصة بسعادتك ولو من أجل الاستعجال .

قال : ولم الاستعجال .

قال : قبل تعيين العمدة .

ضحك المأمور عاليا .. وقال .. اذن لا وجه للاستعجال . تفضل فنحن لسنا وحدنا كما ترفلا تثير الانتباه ..

(١٠)

عاد إلى قهوة الأسمر فوجد يونس عبد الله منتظرا . قال خير ان شاء الله . كله خير . انظر الشيخ محمود حسن هريدي عمدة الرياينة داخل المركز . فانظر من الجهة الأخرى إلى مكتب المأمور لترى هل يتحدث إلى المأمور أمام مكتبه أو إلى الرجل الجالس على المكتب المقابل. عاد يقول أنه جالس أمام الرجل الآخر والمأمور واقف بجواره . ثم سأل مستغربا : " إيه اللي جرى في الدنيا . محمود حسن هريدي جالس والمأمور واقف .. " .

قال ستعرف عندما يخرج عمدة الرياينة فسأنادي عليه ويحكي لنا ..

فارع الطول نحيف أنيق يلبس جلبابا من الصوف فوق " سكروته " من الحرير ويمسك بيده " خرزانة " رفيعة طويلة . تقدم إليهما بخطى واسعة وقال السلام عليكم . كيف انت يا شيخ عباس . قالا السلام ورحمة الله وبركاته واقفين . جلسوا جميعا . قال الشيخ عباس ماذا تشرب .

قال : قهوة . قال : كنت أريد ان أسألك عما جرى في بلدك يوم السبت . هل كتبتم محضرا بالواقعة . قال طبعاً . طبعاً أنت يهكم ولد ظرفور بلدياتك . كتبنا ياسيدي محضرا بما حدث .

ولما عرضته على المأمور قطعه وأملاني محضرا آخر قال فيه أن الواقعة مشاجرة بين المدعو محمد ظرطور من ناحية الهمامية وآخرين مجهولين من رواد السوق . هربوا بعد الاعتداء عليه وجاري عمل التحريات .

قال عباس مقاطعا : ومضيت على المحضر يا عمدة .

التفت إليه بثقة وقال : طبعاً مضيت . ثم بهدوء . بعد ما فهمني المأمور الوضع .

قال عباس : وما هو الوضع الذي فهمته من المأمور.

قال : محضرك لا فائدة منه . الجاني انجليزي . حماية . واذا كان لا بد من التحقيق فسيتم في مصر أمام النيابة المختلطة . والشهود الذين ذكرتهم في المحضر ومن بينهم امرأة المجني عليه لا بد لها من أن " تحط " أقوالها في مصر وكذلك زوجها . أما إذا توفي فلا بد من نقل الجثة إلى اسقوط ، وانتظار الطبيب الانجليزي الذي سيحضر من مصر لتشريح الجثة ومعرفة سبب الوفاة . والله أعلم بعد كم يوم يحضر . هذا إذا حضر . فاذا حضر فليس من المستبعد أن يقول أن الوفاة سببها سكتة قلبية . يعني المسألة كلها " بهدلة " بدون نتيجة .. فنترك الأمر لله المنتقم الجبار ونكتب أنها مشاجرة .. فوافقته ..

قال يونس عبد اله : لا حول ولا قوة إلا بالله . " دي مصيبة " .

قال محمود هريدي : قل له مما تعلمت في الأزهر يا شيخ عباس .

قال : ماذا أقول .

قال : قل له ما قاله الله تعالى : " الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " .

قال الشيخ عباس منكسرا : " إنا لله وإنا إليه راجعون " هل لديك أخبار عن حالته ..

قال : اني قادم من المستشفى . كنت خارجا منه حين صادفت الشيخ محمود عبد اللطيف داخلا . الولد "

خسران " . قال لي الدكتور اذا لم يمت اليوم فقد
ينجو ولكن الأمل ضعيف . ورأيت هناك ابن أخيه وزوجته .
منذ امس وهما نائمان على الأرض . وامراته حالتها " .
تصعب على الكافر " . كل فترة " تطرش " . رجوت
الدكتور أن يعتني بها . قال ليس بها شيء غير عادي .
والمهم الآن ستر الأعراض واکرام المتوفي إذا توفي ..

قال يونس عبد الله : وماذا نفعل يا عمدة .

قال : ان شاء الله ينجو . أما اذا وقع قضاء الله فأننا
المسئول اذ لا تنسوا أنه اعتدي عليه في بلدي . من
أجل هذا قابلت الآن الضابط المسئول في مكتب المأمور
الذي ترجم لي كلامه وترجم كلامي له وأخبرته أن المجني
عليه قد يتوفى هذا المساء وان تقاليدنا لا تسمح
بتأخير دفنه ولا توجد امكانيات نقله إلى بلده وأنه
يلزم تصريح منه لاحدى سياراتهم بنقل الجثة الى
الهامية وتسليمها إلى أهل المتوفي اذا حدثت الوفاة
قبل صباح غد . وقد أعطاني التصريح فعلا لأذهب به إلى
" الكامب " بجوار السوق اذا احتجنا سيارة . وان شاء
الله يلفظ ولا نحتاج . فقط لا داعي لازعاج أهله ما دام
حيا ..

قال يونس عبد الله : الله يسترک يا عمدة .

قال الشيخ عباس : كيف أعطوك التصريح بهذه
السهولة .

قال : ساعدتهم يوم السبت أو اعتقدوا أني
ساعدتهم .

قال : وهل من المعقول أنك تساعدهم يا عمدة على
نهب الناس وضربهم .

قال بحدّة : وهل من المعقول يا استاذ أن عساكر
الانجليز يأتون الى الرياينة ليسرقوا حميرا .

" ما فيش في الأيام دي حاجة معقولة يا شيخ
عباس". نحن تحت الأحكام العرفية فلو اعترضت أو قاومت
يحرقون البلد . أنا تظاهرت بأني أساعدهم وأنا أضرب
الأولاد بهذه الخيزرانة بدل الكرابيج وأشتمهم علنا ثم
ارشدتهم همسا الى ما يجب عليهم أن يفعلوه . فلم
يستولوا من البلد كلها إلا على ١٣ أردبا وتسعة حمير

أخذت منهم ورقة بأنهم استلموها للمطالبة بثمنها فيما بعد وإن كنت أعرف أنهم لم يدفعوا شيئاً لأحد في البلاد التي سبقونا إليها مثل طعمة والكوم الأحمر وبويط ...

قال يونس عبد الله مقاطعاً : وهل ذهبوا إلى هناك حقيقة ..

قال العمدة : ذهبوا إلى طعمة يوم سوقها الأربعاء . وإلى بويط يوم سوقها الخميس . وإلى الكوم الأحمر يوم سوقها الجمعة وإلى بلدنا السبت . ولسه . هاهو الشيخ محمود عبد اللطيف قد هل ..

السلام عليكم . وقفوا جميعاً . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

قال : هل رأيت محمد ظرطور .

قال رأيت ، والدكتور طمانني ولكن امرأته تعبانة . لم يحن الظهر بعد فدعونا نصليه في بلدنا ..

قال عمدة الريانة : ياشيخ محمود ولدكم انضرب في بلدي فأنا المسئول عنه . فأنتم تأخذون امرأته وابن أخيه معكم إلى الهمامية ليطمئن بقية أهله كما طمانك الدكتور . وأرجو أن تسمح بأن يبقى معي وكيل شيخ " الغفر " ربما احتاجه . سأبيت أنا وهو في دوار النواصر ويحضر إليكم صباحاً ان شاء الله بأخر الأخبار . ما رأيك ياشيخ عباس . معقول . وبارك الله فيك .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : طيب . فلنتوكل على الله . ولينتظر عزيز مع العمدة . خذ ياعزيز . وأعطاه مائة وخمسين قرشاً . خذ ربما لا سمح الله يحدث مكروه فتتصرف في الكفن واحضار الجثة . قال العمدة : لا والله . " خليها عليّ دانا المسئول فأعادها الشيخ محمود إلى جيبه . وقال : يا عزيز اذهب سريعاً إلى المستشفى واحضر معك المرأة وعبد القوي . قل لهما ان العمدة طالب حضوركما واحضر معهما قابلنا عند " قلس على دلوكه " وبعدها تعالى إلى هنا وقابل العمدة .

قال العمدة : بل يحضر لمقابلتي في دوار النواصر. إني ذاهب لاهنيء الشيخ محمد عبد الله نصار مع المهنيين بنجاح ابنه " ممتاز " في الشهادة .

طيب : السلام عليكم .

ورحمة الله وبركاته ..

اتجه الشيخ محمود عبد اللطيف والشيخ عباس ويونس عبد الله إلى " قلس على دلوكة " جنوبي البداري . وتخلف عزيز حسين مع عمدة الرياينة . استأذن ياعمدة لأذهب إلى المستشفى . اسمع أولا يا عزيز . هناك تحت شجر السنط غربي سور المستشفى ستجد فكري عبد النبي من بلدكم وحسين حماية من بلدنا نائمين منتظرين . قل لهما أن العمدة أرسلني إليكما لأكون معكما . هما يعرفان ما أريد فقد قضيا الليلة معي في دوار " النفاذية " . فان وافقت ، وأظن أنك ستوافق ، فاذهب إلى المستشفى واحضر امرأة محمد ظرطور فقط . أما عبد القوي فقل له عيب يترك عمه في حالة خطرة ، وان امرأة عمه ستعود إلى البلد مع نائب العمدة ، واطلب منه أن ينتظر عودتك إليه . وقل لنائب العمدة أنه رفض العودة خوفا من أن يتوفى عمه ولا أحد من أهله موجود .. أما إذا لم تقبل " فاكفى على الخبر مجور" .

- أي خبر يا عمدة ..

ستعرف من فكري عبد النبي وحسين حماية . وستوافق .. فإذا حدثت الوفاة قبل المغرب فأخروا نقل الجثة بأية طريقة إلى ما بعد المغرب . بالغسل ، والكفن ، والصلاة على الميت ، وشهادة الوفاة . بأي طريقة . ثم تأتي لمقابلتي في دوار النواصر . لن انتقل من هناك إلى أن تأتي . وسأقول لك ماذا يجب عليكم عمله بعد ذلك . واحضر لكم السيارة التي ستنقل المتوفي إلى الهمامية . سيارة الانجليز " ولاد الكلب اللي موتوه" .

- ألا توضح لي الحكاية ياعمدة ..

قال غاضبا ، منفعلا ، مؤنبا بلهجة منكسرة : حكاية إيه يا عزيز . الحكاية حكاية ناس الهمامية . معقول ياعزيز إن ناس الهمامية بعد ما فاتت خمسين سنة على الغارة لسه خايفين وما يحسوش بالعار . حتى أنت يا

عزيز اللي ادارة المركز عتقول عليك أجدع غفير من يوم ما دخلت المغارة على سند عصمان ومسكته بأيديك في الضلمة . شاطر تأخذ تار الحكومة وما تخدش تار بلدكم ياعزيز . الراجل " اتقتل " تسيبوه يروح فطيس . ايه ده ياعزيز . امال رجاله بشناب ومتجوزين الحریم كيه . على أي حال محمد ظرطور كان عيتشغل في بلدي . واتقتل في بلدي . قدام عيني يا عزيز . اختنق صوته وكاد يبكي وهو يكمل : قدام عيني وأنا العمدة ما قدرتش نحميه . أنا المسئول عن تاره لو مات . بس الواد الخرع ولد أخوه هو اللي يضرب علشان هو صاحب الدم . فلا بد يكون حاضر ويقوم بدوره . والبلقي عليكم . فكري عبد النبي كان بايت مع صاحبه محمد ظرطور في الجنينة واستناه يرجع بعد ما يوصل مرته السوق . مرجعش . عرف أنه انضرب . جه وراه البداري . ومن يومها وهو هنه . مستني يايعيش ياي موت . قابلني عشية وقال لي ياعمدة إن مات محمد ظرطور دمه في رقبتك . قلت له معاك حق بس ان كان وراه رجالة . قال أنا وراه ياعمدة وأنا راجل . قلت له طيب ماتنساك إنك قلت كده " وبكره الميه تكذب الغطاس " . وقلت لحسين حماية الغفير اللي ماشي ورايه ياحسين خد فكري عبد النبي واستنوني تحت السنط اللي غرب المستشفى . ناموا . ومتخلوش حد يشوفكم لحد ما أجيلكم . أو أبعث حد غيري . وهمه الاتنين جاهزين .

إنت جاهز ؟ ..

- طبعا ياعمدة . وهيه دي عايضة قواله .
- طيب روح تفاهم معاهم وأنا مستنيك في دوار النواصر .

في الطريق إلى " قلس على دلوكة " قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ماذا فعلت ياشيخ عباس ؟ . قال : قابلت المامور وأكرم وفادتي وسألني عن أخبار حسين أفندي فريد و .. قال مقاطعا : ماذا فعلت بالعريضة التي اخذتها . قال : عرضتها عليه فنصحتني بأن أذهب إلى اسيوط وأرسلها من هناك . حتى الصورة الخاصة به قال أنها ترسل إليه من اسيوط . المهم أنه طمأنني وقال أنه سيعمل كل مايسطيع لمساعدة الهمامية ..

- لماذا أنت عائد معنا إذن ؟
- وماذا أفعل ؟
- اذهب فوراً إلى اسيوط وأفعل ما أشار به المأمور .
- لم أعمل حسابي لهذا المشوار .
- خذ هذه مائة وخمسون قرشا تكمل ما معك فتكفي .
- لا . لا تكفي .

قال يونس عبد الله : أنا معي تسعون قرشا . أخرجها .

قال الشيخ عباس : الآن اذهب إلى اسيوط .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : إركب " الحلزونة " من البداري حتى ساحل سليم وهناك عدي النيل إلى أبو تيج . ومن أبو تيج تأخذ القطر إلى اسيوط .

قال طيب : يا يونس تحضر الحمار وتنتظرنى في البداري يوم الخميس .. لا تتركه هنا . تركبه امرأة محمد ظرطور وعبد القوي عندما يحضران .

وتركهما عائدا . فقابل عزيز حسين وامرأة محمد ظرطور قادمين . وعرف منهما أن عبد القوي رفض العودة . فقال لها يا نعيمة على أي حال أنا تركت لك حماري لتركبيه حتى البلد .

(١١)

وصل اسيوط عصرا وهو جائع . لمح في أول شارع البوستان المتفرع من ميدان المحطة البورصة الشهيرة . بورصة النيل لصاحبها الخواجة الطلياني باولو الذي يتحدث اللغة العربية بلهجة اسيوط . دخلها وتناول غداءه . ثم تركها واتجه غربا مارا بالبركة ذات المياه العظنة . بعدها دب على شارع المجدوب الصاعد . فرحب به رفيق الأزهر الذي لم يستطع على التعليم صبورا فعاد إلى اسيوط ليستأجر بناء من دورين . الأرضي " قهوة الشرق " أعلاه " لوكاندة الشرق " . استقبله في المقهى وحياه بكوب كبير من الشاي الثقيل . ودعاه

إلى غرفة في الفندق . قال ضاحكا : والوفاء بالاجرة عند الميسرة فضحك الشيخ عبد الجواد صاحب " لوكانة الشرق " وقال : ولا عند الميسرة .. يكفي فيما بيننا الوفاء . قال : أرجو أن ترشدني ؟ قال إلى ماذا ؟ قال عندي مشكلة وقد جئت إلى اسيوط " لاشد " لها " ابوكاتو " يكون على جراءة . قال : لقد هداك الله إلى حيث يريد لك التوفيق ارفع رأسك وأقرأ الالفة الكبيرة المعلقة على " تراسينة الدور الثاني " . قرأ : مكتب الافوكاتو عبد الكريم أبو شقة . قال الشيخ عبد الجواد هذا أخطر وأنزله أبوكاتو في اسيوط . سيفتح مكتبه " للزبائن " بعد المغرب فتذهب إليه . قال : ألا تستطيع ان تذهب معي إليه . ضحك وقال : طبعا ليكون الجار والوفاء والميسرة حاضرين . قال لا . معي ثلاثة جنيهات ولا اعتقد أن المسألة ستحتاج إلى أكثر من هذا قال عبد الجواد : هذا كان زمان . قبل الحرب . ارتفعت الاسعار منذ الحرب وهي ترتفع كل يوم . هل تعرف كما نتقاضي ثمنا لكوب الشاي الذي شربته . قال : لقد شربت ثلاثة أكواب شاي في البداري بثلاثة تعريفة . سأله متصنعا الاستغراب . متى ؟ قبل الحرب ام بعد الحرب . قال ضاحكا : صباح اليوم يا عبد الجواد .. قال ربما الحرب لم تصل البداري بعد وضحكا . ثم قال جادا : اذا ذهبنا فلا تساوم الاستاذ . انه يكره هذا . ما يطلبه اعطه له . واذا لم يكن معك ما يكفي سأكمل أنا ثم نتحاسب فيما بعد .

- هذا زميلي في الازهر الشيخ عباس من الهمامية مركز البداري .

- أهلا وسهلا . ماذا تريد من خدمة ياشيخ عباس .

- أرجو أولا أن تتفضل وتلقي نظرة على هذه الأوراق . ووضعها أمامه .

تصفحها سريعا ، ثم عاد فقرأ صورة منها قراءة متأنية . رفع رأسه وهو يبتسم وقال " فكرة جهنمية " .. ليت الناس يفعلون مثل هذا . هل هي فكرتك ياشيخ عباس . قال : لا . ولست في حل فأذكر صاحبها . قال الاستاذ أبو شقة . لا بد أن يكون انسانا مثقفا

ووطنيا. هذه فكرة وطنية . الوطنيون لا تعوزهم الأفكار العبقريّة . ألا تقول لي من ؟ .. قال انه حسين أفندي فريد الذي كان باشكاتباً في مركزنا البداري . فلمعت عينا الاستاذ أبو شقة وقال مهلاً : أخي حسين فريد . طبعاً الوطني وطني حتى لو (وضحك) القوه في البداري. خسارة أنه لن يعود إلى هناك . قال الشيخ عباس بلهفة : لماذا ؟ . قال : لقد فصلوه بحجة مغادرة مكان عمله بدون اذن . قال ولكنه ترك عمله في اجازة وافق عليها المأمور .. قال : لم تكن على ورق مكتوب فأنكر المأمور خوفاً من أن يسأل عن سبب الموافقة . على أي حال ان مستقبل حسين في مصر وليس في البداري .. وماذا تريد انت بعد أن أعددت كل هذه العرائض . قال : أريد ان أضمن وأؤكد أن كل صورة منها قد وصلت فعلاً إلى من أرسلت إليه ولا آمن للبريد . فقد سمعت ، أو ربما قرأت ، أن البريد مراقب من السلطة بحكم الأحكام العرفية . فجئت إليك لترى لي سبيلاً إلى تحقيق ما أريد .

قال : دعك من وزير الداخلية ورئيس الوزراء . هذان لا يملكان لاحد شيئاً ولا يخافان إلا الانجليز . سأرسل لك الصور البلقية غدا صباحاً عن طريق الانذار القضائي . يقوم محضر من المحكمة ويسلم الصورة الخاصة به ويحصل على توقيعه بالاستلام .

قال : عظيم وكم يكلفني هذا ..

قال : رسوم كل إعلان عشرة قروش ، وسنرسل أربعة ، فالتكاليف أربعون قرشاً . ثم عشرة قروش مواصلات من اسيوط إلى البداري ذهاباً واياباً ، فتكون الجملة خمسين قرشاً . بعد أربعة أيام تحضر إلى هنا وتستلم مني أصول الاعلانات موقعا على كل منها بالاستلام .

قال : وأتعاب المكتب .

قال : عيب ياشيخ عباس . انت في مكتب عبد الكريم ابو شقة . فهل يتقاضى أي وطني اتعاباً على أن ساهم في عمل وطني . أو أي صديق حميم في انه نفذ فكرة صديق حميم . أرجوك لا تتحدث عن الاتعاب .

قال : طيب عندي سؤال وسأدفع أتعاب المكتب عن جوابه .

قال (ضاحكا) : إسأل .

قال : اشتريت بعض الأراضي . نصف فدان على ثلاث قطع ، فكيف " تنزل " في التكليف على اسمي .

قال : هل ينازحك أحد من البائعين .

قال : لا ..

قال : تأخذ العقود وتذهب إلى مصر في أي فرصة وهناك تتوجه إلى المحكمة المختلطة في قلم الرهونات العقارية . تحرر حافظة ايداع بالعقود وترفقها بها وتدفع الرسوم . يقوم قلم الرهونات بإدراج البيع وبياناته في النشرة التي يصدرها كل شهر . فإذا مضى شهر على النشر بدون ان يعترض أحد ، تاخذ شهادة بعدم الاعتراض وتقدمها هي وحافظة الايداع إلى وزارة المالية - في مصر أيضا - فتقيد الأرض باسمك ابتداء من العام التالي وتظهر في التكليف ..

قال عبد الجواد : ياه .. دي لفة طويلة .

قال الاستاذ : أصلها مقررة لمصلحة الاجانب الذين يرتهنون أو يشترون العقارات وبالنسبة اليهم ليست طويلة لأن كل الاجراءات تتم في مصر . إنما نسيت أن أقول لك أن صورة من النشرة الشهرية تصل كل شهر إلى المديرية ، فيمكن الاطلاع عليها هناك .

قال الشيخ عباس : والآن كم اتعاب الاستشارة الشخصية .

قال بجدية : جنيه .

دفعه وانصرفا شاكرين ..

صلى العشاء مع الشيخ عبد الجواد في مسجد " سيدي جلال " (الامام جلال الدين السيوطي) وقضى نهاره " على القهوة " واستمع فيها الى الاحاديث التي تشغل أهل أسيوط . زيادة الاسعار زيادة فاحشة . زاد سعر القطن على ثلاثين ريالاً للقنطار فارتفعت كل الاسعار حتى اسعار البصل . وتحولت قرية منقباد القريبة الى معسكر للجيش الانجليزي . ومنذ المغرب من كل يوم يتجول جند الانجليز في شوارع المدينة سكارى . وأشنع

من هذا وأفظع أن قد أنشأوا " الوسعة " غربي اسيوط وخصصوا ذاك الحي الهادى لايواء المومسات محترفات الدعارة كان روادها في البداية من الانجليز . ثم خالطهم فيها شباب من الأهلين . وقيل أن " وسعة " على أضيح قد افتتحت في مدينة أبو تيج لا تبعد إلا خطوات عن مقام سيدي الفرغلي رضي الله عنه .

- إيه أخبار البلد يا يونس ؟

أخبار البلد " وحشة خالص " . محمد ظرطور مات بعد المغرب يوم أن سافرت . فوجئنا في البلد أن كمبيل انجليزي " جاي يجري " ملئ بصناديق خشب وفوقها جثة محمد ظرطور ملفوفة في فوطة يسندها عزيز حسين بذراعه . ذهبت السيارة إلى المقابر رأسا ، والخفراء استدعوا العمدة ، وإمرأة محمد ظرطور والامام واللحاد ، وشاع الخبر وبدأ الصراخ ، ودفن ليلا . ولم يحضر عبد القوي على ظرطور وسألنا عنه عزيز حسين قال أنه لم يره . الخواجة أضاء فوانيس الكمبيل على التربة ليسهل عملية الدفن . ولكن ابن الكلب كان كمن يتفرج ، ولما رأى الحريم تضع الطين على رؤوسهن ضحك . عزيز حسين " فص ملح وداب " لم يظهر بعد وصول الكمبيل . في الصباح وفي منضرة أولاد عمران لقينا عبد القوي على ظرطور " ناصب " الجنازة ويتقبل العزاء . قلنا غريبة . كيه يعني يعمل جنازة لواحد مقتول قبل ما ياخذ تاره . قامت اشاعة في الرياينة أن العمدة دبر لعبد القوي فرصة الثأر لعمه يوم وفاته وأن الكمبيل وهو عائد الى البداري اختفى ولم يصل . وقد جاءت في الفجر قوة من الانجليز ومعهم مأمور المركز والضباط والعساكر والهجانة وحاصروا البلد و " كبسوا " عليها في الصباح وقد حسبهم الناس قادمين للقبض على الذين رفضوا التطوع وجاءت اسماؤهم في العريضة فهرب أغلبهم إلى الجبل وانفجرت نساء القرية صراخا . وقال امام المسجد ما ردهه الناس من أنك أنت السبب في تلك البهدة لأنك اعطيت الحكومة أسماء الرافضين . وقد اتجهت القوة أولا الى دوار العمدة فلم يخرج اليهم إلا بعد نصف ساعة مسنودا على ايدي اثنين من أولاده . " شخط فيه " المأمور وقال له : " إيه الاجرام ده اللي حصل امبارح يا عمدة " . قال : أنا لا شفت حاجة ولا سمعت حاجة أنا كنت عيان

ونايم جوه . قال المأمور : ألم تر السيارة التي احضرت الجثة وهي تغادر الهمامية وهل كان بها أحد غير السائق الانجليزي ؟ . قال : أنا لا شفت سيارة ولا سمعت زمارة . أنا كنت عيان ونايم جوه . عزيز حسين " لقط الفولة " فتقدم إلى المأمور وضرب له سلام وقال تمام يا فندم . أنا شفت الكمبيل . حضرت فيه الجثة وبعد استلامها غادر وبعد استلامها غادر البلد وانشغلنا نحن بدفن الميت . فتحوا محضر . عزيز يتكلم " زي البربند " والمأمور يترجم وواحد انجليزي يكتب . عزيز كان يتكلم بصوت عال نسمعه نحن من الشباك الخلفي للمنصرة . فعرفت البلد كلها " إيه الحكاية " . سألوا ناس كتير وحريم كمان . فشهدوا جميعا حسب كلام عزيز حسين .

جاء غطاسون بسيارة أخرى . اتجهوا جميعا الى الترعة ، ونبشوا قاع الترعة من أول الكوبري شمالا حتى " الملمص " آخر حدود زمام بلدنا . تركوا عمدتنا والخفر ودخلوا زمام العقال البحري وهم يبحثون في الترعة وفي الجبل وفي المزارع . بعد اثنين كيلو وجد الغطاسون السيارة غارقة تحت قنطرة العقال البحري . نشلوها . ولكنهم لم يجدوا لا الخواجة السواق ولا الصناديق التي كانت فيها . يقال أنها كانت مليئة ببنادق " رمنجتون " وذخيرة . لأن الخواجة غلط وهو يسأل شيخ خفر العقال البحري وسأله : ألم تشاهد أحد امن القرية يحمل بندقية رمنجتون . قال لا . ولا أعرف شكل الرمنجتون . قبضوا على شيخ الغفر وعلى حارس القناطر مع أنه ليس من العقال البحري بل من الرياينة ويشغل في القناطر . قال أنه لم ير السيارة أصلا . وأن تيار الترعة ربما يكون قد جرفها من قبلي . وأوقفوا العمدة ولا يزال التحقيق مستمرا . لقد كدنا نصل الى قناطر العقال وسترى هناك السيارة فلا داعي للنظر اليها حتى لا تلفت انتباه الحراس .

قال : يا يونس . السيارة مليئة بالطين فكيف يجرفها التيار من قبلي .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وأنت ايش عرفك يا شيخ عباس أن التيار جرفها من قبلي ؟ هل تريد ان تشهد على البلد ، ألا يكفي ما حدث . دا أنا قلت

للناس يا ولاد الكلب هوه معقول أن الشيخ عباس اللي عايل همكم هو السبب في الكبسة . قالوا : برضه مش معقول . فهل تريد أن تفتح بابا جديدا على نفسك .

ضحك وقال : ولماذا لم تهرب أنت يا يونس .

قال : كيف أهرب واتركك أو بدون ان استشيرك . ثم أني كنت أعرف أنك لم تقدم العرائض وسافرت بها إلى اسيوط فلا يمكن أن تكون سبب " الكبسة " . الغريبة يا شيخ عباس أن ولد خالك الشيخ محمود عبد اللطيف كان " عامل نفسه ميت " وأول ما عرف أن السؤال عن الكمبيل . قام زي الحصان وحط أقواله بأنه شاف بعينه الخواجة وهو ماشي بالكمبيل وحده على البداري . . المأمور ضحك وقال له زي ماعتقولوا اللي يكون عيان ويخف " أجر وعافية يا عمدة " الحريم بعد ما قعدت طول الصبح تصرخ قعدت آخر النهار تضحك على العمدة العيان. والعيال أولاد الحرام كل ما يفوتوا قدام منضرة العمدة يقولوا : أجر وعافية يا عمدة ويجروا . وأنت ماذا فعلت في اسيوط ؟.

قال له : كل شيء خير . وصلت العرائض إلى الحكام وأصبحت البلد آمنة .

قال : لا داعي لنشر هذا الخبر خوفا من أن " حرمة تزغرت " أو تحصل حالة فرح في البلد وفيها جنازة . تكتم الخبر إلى ما بعد الاربعين احتراماً لأولاد عمران .

قال : سأقول للعمدة فقط حتى يطمئن .

(١٢)

عند زاوية تقاطع جسري " الصليبة " تقوم " تاية " في ظل شجرات السنط الباسقات . و " التاية " مسكن من حوائط بوص " سابقة التجهيز " . يحبك بوص القيسي الجاف بأن تشد " حزم " منه بعضها إلى بعض بحبال الليف حتى تبدو كالحصير السميك العريض . فهي حينئذ " سباتة " يحفر " للسبايت " في الأرض أساس مرسوم تصف فيه وتثبت بالطين فإذا بها حوائط من البوص . سباتة من البوص قائمة في كل جهة تقصر احداها لتترك مدخلا . وسباتة من البوص تكمل ضلعي زاوية داخلية فتصبح حجرة (خزانة) ، ثم سباتة تلقى فوق الحجرة فتسقفها .

فيما بقي من مساحة " التاية " تقوم فرن وكانون ومرابط للبهائم . تتكاثر التوايا على رؤوس الغيطان في موسم الربيع . وموسم الربيع في القرية ليس هو فصل الربيع بل هو موسم زراعة " البرسيم " إذ الربيع هو الإسم القروي لنبات البرسيم . وحين تنشأ التوايا على رؤوس مزارع البرسيم وتنقل إليها البهائم وأصحابها تاركين مساكنهم على سفح الجبل يقول اصحابها رايعين نربعو . ودلالته اقامة البهائم بجوار البرسيم تتغذى به وهي مشدودة إلى أوتاد لا تسمح لها بالغذاء إلا بقدر معلوم إلى أن ينفذ الربيع . هذا بدلا من عناء " حش " البرسيم ونقله يوميا إلى المنازل الضيقة المعلقة . ولهم فيه مآرب أخرى أهمها أن البهائم تفرغ فضلات ما تأكله على أرض الغيط مباشرة فتحصه كلما أكلت . بدلا من عناء تجميع روثها في المنازل الضيقة المعلقة ثم اعادة نقله إلى الأرض لتخصيبها . ثم أخيرا تتذوق الأسر حياة طليقة بدلا من كتل المباني المتراسة الآسرة . وبانتهاء موسم الربيع ترفع التوايا ويعودون إلى حضن الجبل إلا " التاية " القائمة في ظل شجرات السنط الباسقة عند زاوية تقاطع " الصليبة " غربي الكوبري .

تلك أنشأها سطوحي عبد المنعم بعد أن عاد من هجرته القصيرة إلى مصر يحمل موقد " جاز " (بريمس) وأفكارا ذكية لتؤدي وظيفة ممتدة على مدى أيام العام . يمكن ان يقال أنها " نادي " ويمكن أن يقال أنها " مقهى " ويمكن ان يقال أنها " غرزة " وأقرب ما يمكن ان يقال عنها أنها " مهجر " يلوذ به شباب القرية خاصة لكسر طوق الحصار القبلي والأسري والمادي الذي يحبسهم في بيوت القرية . فيها يلتقون في الشتاء حول نار موقده ، يمسون أعواد القصب التي جلبها إليهم سطوحي عبد المنعم من سوهاج . ويتبارون مباراة " اللوكامية " أو مباراة السيف . من يقطع حزمة محدودة العدد من أعواد القصب المضمومة بضربة واحدة من قبضة يده العارية يأخذ كل الأعواد ويخسرهما الذين تحدوه . فإن لم يستطع فقد خسر العود الذي أسهم به في المباراة . أما السيف فهو جانب يد الضارب أصابعها منفردة . ومن لا يراهن ، يشرب شتاء وصيفا ، نهاراً وليلاً ، الشاي المغلي على نار " وابور

ياشيخ عباس إحنا رجالة باشناب ومجوزين حريم .
صح ولا له ، ضحك وقال صح .. بس .. أنا ياعزيز غير
متزوج . ارتبك عزيز وقال : أنت الله أكرمك فأعطاك بدلا
من الزوجة مخا . وإني أريد أن تنقذنا من الورطة
التي نحن فيها .

- قل . ثم قال لمحمود ولد مطاوع " صبي "
سطوحي عبد المنعم إذهب بسرعة وقل للعمدة اني
وصلت وفي طريقي اليه .

- جاء صباح اليوم إلى دوار العمدة
الشويش عتريس راكبا حصانه . أبلغ العمدة أمر
المأمور بتكليف الخفراء بجمع عشرين رجلا من
البلد بما يلزمهم من فنوس ومقاطف والتوجه بهم
الى العثمانية (قاو) للمعاونة في تدعيم جسر
النيل وحراسته حتى لا ينقطع نتيجة ضغط الفيضان
ويغرق البيوت والمزارع .

- وهل ذهب الرجال

- لا ..

- طبعا لأنهم مشغولون بتدعيم جسور الترع
لحماية مزارع البلد كما قلت .

- ياريت ياشيخ عباس . حين رأى الناس
حصان الشاويش عتريس داخل البلد عرفوا أنه قادم
ليأخذ الشباب والرجال إلى أي بلد كما يحدث كل
عام يزيد فيه الفيضان . فهربوا .

- إلى أين .

- قلة اختبأت داخل مزارع القيسي
والباقون هربوا إلى الجبل .

- وبعده؟

- العمدة طلبني في المنصرة أنا والخفراء
وبلغني طلب المأمور وأمرنا بأن نحضر الرجال "
من تحت الأرض " .

- وهل أحضرت أحداً .

- أبدأ ، ونحن مارون ، أنا والخبراء ، دخلنا مقام سيدي جابر ، وقرأنا الفاتحة على عهد بأننا لن نحضر أحداً من أولاد بلدنا مرة أخرى لحراسة بيوت البلاد الأخرى حتى لو عملوا لنا مجلس عسكري .. وحضرنا إلى هنا وادي إحنا قاعدين .

- وماذا تنون عمله .

- لانعرف . بدأنا فقط نخاف على العمدة ربما يحملونه المسئولية وهو رجل طيب ، الحمد لله أنك حضرت لتقول لنا رأيك فيما يجب أن نعمله .

صمت قليلاً ..

ثم قال : مع العمدة في المنصرة .. " ما هو لازم يستنى لغاية ما يتغدى زي كل مرة " لكن موعد الغداء قد انقضى ونحن مقدمون على العصر . فماذا نفعل ؟

قال : لا تقلق . المسألة محلولة . أنت أوجدت لها الحل يا عزيز يا حلال العقد . اسمع .. احفظ ما سأقوله لك ونفذه كما هو بدون تغيير ولا تهتم بأن يغضب العمدة أو يتظاهر بالغضب . سأسبقكم الى منصرة العمدة أنا ويونس عبد الله لأن العمدة منتظرني طبعاً . بعد أن تتأكدوا من أننا قد وصلنا .. تأتي انت والخبراء جرياً . ينتظر الخبراء خارج المنصرة وتدخل أنت جرياً الى حجرة التلفون .. وتطلب المركز وووو

العمدة جالس ومن حين الى حين يغط فيوقظه الشويش عتريس . والشويش عتريس جالس وراء كرشه المنتفخ وقد ألقى عنه طربوشه وسترته فكشف عن فائلة مبللة بالعرق داكنة بما جذبه العرق من تراب، تعلوها حمالة تشد " النطلون " الى كتفيه وهو يجتذب الهواء الى وجهه السمين بمنديل مخطط .. حين دخل الشيخ عباس انتظر يونس عبد الله في الخارج . السلام عليكم . قالا السلام ورحمة الله وبركاته . وبادر العمدة بالقول : يا شيخ عباس الموضوع الذي بينك وبين اعمامك الذي تريد أن تتحدث عنه الآن سنتحدث

عنه فيما بعد .. احنا دلوقتي مش فاضيين .. فهم عباس وقال : وهو كذلك .

اندفع عزيز حسين جريا إلى حجرة التليفون لم يلتفت .

صاح بأعلى صوته في بوق التليفون الذي تدفع الكهرباء إليه بطارية سوداء جسيمة مدفونة في أرض الحجرة : يامركز . يامركز . يامركز . رد يامركز . يامركز .. لم يجب احد . فقد كان يضغط بيده الأخرى على حامل البوق . تظاهر باستغاثة المركز ليستفز العمدة أو عتريس .

قال العمدة صارخاً : ياعزيز .. اترك التلفون وتعالى هنا .. ما الذي تريده من المركز . ولوم يقلها لقالها الشيخ عباس كما كان متفقا عليه مع عزيز حسين .

- أريد أن ابلغ عن مصيبة .

- ولماذا المركز . أنا العمدة .. ومهنا الشاويش عتريس رئيس النقطة . ما الأمر ؟

- الأمر أمر الله ياعمدة .. ذهبت أنا والخبراء لنحضر الرجال الذين طلبهم الشويش عتريس فلم نجد أحداً في البلد أو عند الصليبة .. وقيل لنا أن البلد كلها موجودة عند جسر " الصبخة " بحري السحارة الغربية ليسدوا القطع الذي حدث هناك . ذهبنا جرياً .. فوجدنا الرجال كلهم متكاتفين في القطع ليمنعوا الماء بأجسادهم من أن يخرق الجسر . والحريم تنقل الطين على رءوسهن وتصبه في القطع . ولكن كل هذا لن يجدي ياعمدة إلا إذا الحكومة ساعدتنا وأرسلت إلينا مساعدة من البلاد المجاورة . فجئت أجري لأبلغ المركز ليرسل نجدة .

تمطى الشويش عتريس وقال : برضه كده ياوكيل شيخ الخفر . إنت تبلغ المركز وأنا موجود . ما الذي أفعله اذن أنا في الهامية . الذي يبلغ يا شيخ الخفر هو أنا . أم تريد ان يقولوا أنني كنت

نائماً في الهمامية . هات ورقة يا شيخ الخفر
وسنكتب محضراً تشهد عليه أنت يا عمدة .

كتب : في تاريخه وساعته بناحية الهمامية
وبناء على تكليف المركز بمأمورية إحضار مساعدة
لحراسة جسر النيل بناحية العثمانية المجاورة
لناحية الهمامية حضرت انا الشويش عتريس عبد
المحسن رئيس نقطة بوليس نجوع الجزيرة المكلف
بالمأمورية وتقابلت مع نائب العمدة الشيخ محمود
عبد اللطيف الذي أرسل معي قوة البلدة وكيل شيخ
الخفراء والخفراء للبحث عن أفراد المساعدة .
وحالة مروونا على جسر " الصبخة " بحري السحارة
الغربية وجدنا اهل البلدة جميعا يحاولون منذ فجر
اليوم سد قطع جسيم في الجسر والمياه تهدد الزرع .
وأشرنا على المقاومة وانتظرنا حتى العصر من أجل
أخذ مساعدة معنا الى العثمانية ولكن إلى ساعة
كتابة هذا المحضر لا تزال المقاومة مستمرة وليس من
المحتمل أن تنجح إلا بمساعدة أهل البلاد الأخرى وختم
المحضر على ذلك وقائم به إلى نقطة بوليس نجوع
الجزيرة لعمل اللازم .

وقع محرر المحضر . وبصم عزيز حسين .. وختم
العمدة .

انصرف الشاويش عتريس بعد ان فرش المنديل على
رأسه وثبته بطربوشه لبس سترته ، وتجشأ ريح البطة
التي تغدى بها ، وركب حصانه ، وتوكل على الله ،
يتابعه خطوة خطوة وكيل شيخ الخفراء حتى " الصليبة
" فودعه . وتتابعه من فوق أسطح المنازل وشعاب
الجبل عيون قلقة . فما أن غادر القرية متجهاً من "
الصليبة " إلى " نجوع الجزيرة " جتى اطمأنت وخرجت
من مكانها الى الدروب هبطت اليها من الشعاب
تبادل الحمد لله ، وتتحرى أسباب مغادرة عتريس "
التليس " كما يلقبونه لضخامته ، فيرويها بصيغ شتى
جادة أو مرحة يونس عبد الله ثم نقلاً عنه وعن الناقلين
حتى عرف أهل القرية أن في قريتهم قوة تغلب
الحكومة بالجسارة والذكاء والحيلة يقودها عباس
ولد محمد اسماعيل ، فتبادلوا السخرية من الهرب
والهاربين وعلى رأسهم يونس عبد الله أول الساخرين .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ها نحن منفردين
معا فقل لي ما الذي فعلته في أسيوط وماذا كانت
النتيجة . قص عليه ما حدث تفصيلا . لم ينتبه محمود
عبد اللطيف الى ما حدث بعد زيارة مكتب الابوكاتو
أبو شقة وان كان القاص قد أكمل قصته . قال العمدة
اذن فهذا هو السبب ؟ .. قال : ماذا تعني ؟ أي
سبب. لقد قلت لك أن العرائض قد سلمت في اسيوط وفي
البداري . فهل كان ذلك سبباً لأي نتيجة لا أعرفها .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف . لا . لا . لا .. "
مش قصدي " . لقد كنت مشغولا منذ مدة بمحاولة معرفة
سبب اختفاء صديق محمود حماد من البلد ومن المركز.
وعرفت صدفة من علي حامد أنه في مصر فازداد الأمر
غموضاً . ماذا يفعل في مصر . وما علاقة هذا
بالعمودية التي يسعى اليها . الآن عرفت السبب . لا
بد ان يكون قد استكتب أولاد عمه بيوعاً سورية
بأرضهم لتكمل له خمسة أفدنة فيوفي بشرط تولي
العمودية فذهب إلى مصر وقدم تلك العقود في
المختلط لتنزل على اسمه في سجل الأراضي المكلفة .
إذا كان قد فعل هذا منذ ان اختفى فله الآن ثلاثة
أسابيع . وتكون النشرة قد وصلت المديرية وباقي
اسبوع . غداً سأذهب إلى أسيوط وأعرف ما إذا كانت
النشرة قد وصلت أم لا ولا أعرف ما إذا كان ما قاله
لي معاون الادارة من أنه سيتولى العمودية الاسبوع
القادم صحيحاً أم أنه ابتزاز كعادته . المهم أبو
شقة قال أن لا بد من مرور شهر بعد وصول النشرة إلى
المديرية . أليس كذلك . نعم ولقد سألت أبو شقة لأن
موضوع الشراء السوري كان قد بلغني أن له علاقة
بالعمودية ولم أكن أعرف كيف تم هذا .

- إذن غدا من الفجر سأذهب إلى أسيوط
لأتأكد من التواريخ . هل تأتي معي .

- لا والله يا عمدة . أنا غائب منذ يومين .
وكان المفروض ان يتزوج اسماعيل أخي اليوم
الخميس وقد نسيت موضوعه تماما ، ولا أعرف كيف
أقبله فضلاً عن مشاغل أخرى .

- لا تشغل بالك بمسألة زواج اسماعيل . لا زواج في البلد الا بعد اربعين المرحوم محمد ظرفور . ولا تنسى أن تذهب الى منضرة " أولاد عمران " للعزاء بعد المغرب . وستجدني هناك . أما أنا فمن الفجر سأذهب إلى اسيوط . وإذا لم أعرف بنفسني فسأستعين بالابوكاتو أبو شقة يعرف لي هل وصلت النشرة أم لا . وأعطيه أتعابه . كم قلت لي أخذ منك .

- مائة وخمسين قرشا .

- كثير ..

- وبالمناسبة . وقبل أن أنسى هذه المائة والخمسين قرشاً التي أعطيتها لي في البداري . لا . لا . والله . عيب . نحن شركاء . وأنت قلت أنك لم تعمل حسابك .

- لا . " كتر خيرك " . لقد كنت أحسب أن المسألة ستتكلف أكثر مما تكلفت ، ولكنه ، الله يكرمه ، لم يأخذ اتعابا عن مسألة العرائض .

- اذن لماذا أخذ مائة وخمسين قرشا .

- خمسين قرشا رسوم ارسال العرائض ومائة قرش اتعاب الفتوى .

- طيب . سأطلب منه فتوى على الأكثر .

ومد يده فأخذ المائة والخمسين قرشاً الممدودة بها يد الشيخ عباس وقاما لينصرف عباس . لم يجد الحمار أمام المنضرة . قال أين الحمار فقال له محمود عبد اللطيف ضاحكاً : لقد عاد الى منزلكم لأنه حمار ، إذ من عادة الحمير ، لأنها حمير . أن تعود إلى المنازل التي اعتادت أن تحمل فيها الأثقال ، ويمتطيها الناس ، بدلاً من أن تهرب ولا تعد ..

ضحك الآخر وانصرف عائداً إلى منزله مشياً على قدميه ..

هناك لفته بقوة أن عمه الحاج مشهور وعمه مصبح ، وأخويه ، وكثيراً من أفراد عائلته بمن فيهم محمد عبد

الله وأحمد عبد الرحيم ثم ولد خاله أحمد عبد اللطيف يستقبلونه واقفين مرحبين في مدخل " المنصرة " الفسيح . " منصرة " العائلة هذه المرة وقد كنت أرضها ورشت بالماء ورصت فيها " الدكك " عليها " فرشيات " من الصوف الملون ومساند من القطن . قال السلام عليكم وهو يصعد ثلاث درجات إلى ردهة المنصرة . قالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فصافح ايديهم الممتدة ، واحتضنه عمه مشهور . ونادى محمد عبد الله على ولده علي : شاي يا علي لولد عمك الشيخ عباس . " بس ثقيل " ..

خطر له أن كل هذا من تجهيزات عرس اسماعيل فالتفت إلى اسماعيل وقال " تأخرت عليك يا عريس فلا تؤاخذ اخاك " ..

قال مشهور ، كبير العائلة : " عريس إيه وشغل إيه " .. أنت عريسنا . عريس عائلة " أولاد مشهور " رفعت راسنا في البلد ..

قال محمد عبد الله : لا والله يا حاج مشهور . ليس في بلدنا فقط . رفع راسنا في كل البلاد المجاورة . كلها تحكي عن عباس محمد اسماعيل " اللي من المشاهرة " وما فعله لمصلحة البلد في ثلاثة أيام . طلعتها براءة من حادث الكمبيل ، وزاح التهمة على أهل العقال البحري ولاد الكلب ، جزاء على أن جدودهم نهبوا جدودنا ، وحمي البلد من السلطة " اللي عرابي نفسه ما قدرش يحمي روحه منها " . " وأول الشويش عتريس ما سمع أنه وصل البلد طلع منها طوالي " .. هل هناك من ينكر شيئاً من هذا .

قال عبد الغني عبد المغيث : " ينكر كيه " دا زي الشمس الطالعة . والناس كلها شاهدة " عمدة الريانة هو الذي شهد أن الشيخ عباس هو الذي نقل الكمبيل للعقال البحري . وعمدة الريانة " ما يكذبش " .. قالوا جميعاً : صح . وعزيز حسين كان في البداري ورأى الشيخ عباس يأخذ العرائض التي حمت البلد من السلطة ويذهب لمقابلة المدير في اسيوط .

قالوا : صح .

ويونس عبد الله قال : أن ولد العمدة قال له أن الشويش عتريس لم يكن يريد أن يغادر البلد قبل أن يأخذ معه الانفار ، ولكن ولد مطاوع الصغير جاء يجري وقال للعمدة أن الشيخ عباس وصل عند الصليبة وفي طريقه إليه ، فلما سمع الشويش عتريس " التليس " أن الشيخ عباس " جاي " قام طلع من البلد على طول . وكمان عيقولوا إنه سافر مصر في قطر الليل يوم الثلاثاء وقابل الوزير وجاب منه أمر للسلطة إنها ما تقربشي من الهمامية سلمه للمدير في أسيوط " .

جزع مما سمع ، وهم بأن يصحح ما يقولونه ، خاصة " تهمة الكمبيل " ولكنه لم يجرؤ على ان يبدد ما يغمرهم من بشر وفخر . ونظر إلى أحمد عبد اللطيف فوجده يتأمله بعينيه الضيقتين الثاقبتين كأنه يحذره ، وتذكر ما قال له يوماً أن لا شيء يبلغه مما جرى في البلد إلا ما يسره . فهدأ وأقنع نفسه بأنهم لا ينقلون إليه ما وقع صدقاً ولكن ما يتمنون أن لو كان قد وقع كأنه واقع فعلاً . يسره فيسرهم ..

ثم جاءت " الصواني " محمولة على الرءوس تحمل " رغفان " ولواحيق ملوخية ، وحماما محشو بالفريك . جاءت من بيت مشهور وقد أعدت من الظهر احتفالا بعودة الوفاق إلى العائلة وعودة افتتاح منضرتها الكبيرة . ثم انتظرت الشيخ عباس فلما أن عاد عصراً قدمت غداء أو عشاء . حين فرغوا من الأكل ، كان قد آن موعد صلاة المغرب ، فتوضأ المصلون وذهبوا إلى المسجد القريب ومعهم الشيخ عباس ، و " الكلوب " الذي انتقل من منضرتة إلى منضرتهم بدون اذن فاتخذوه إماماً وصلوا المغرب جماعة . يعترف بأنه وهو يصلي ذاك المساء كادت صلاته تفسد بسبب أفكار سوداء تعود إلى ذهنه حاملة شبح " الكمبيل " تارة وتشغله تارة أخرى بما آلت إليه منضرتة وما فيها من دك ومقاعد وكتب ، بعد الصلاة توجهوا ، من صلى ومن لم يصل ، إلى منضرة " أولاد عمران " كما فعلوا من قبل وهو غائب وكما سيفعلون حتى تنقضي الليالي الاربعين . عمه مشهور بجواره في المقدمة والباقون لها تابعون ، حتى أدوا الواجب المتكرر وانصرفوا . فاتجه رأساً إلى منضرتة . كانت صفية تنتظر في الردهة . فلما هم بان يدخل المنضرة ، نبهته إلى أن أمه قلقة عليه تريد أن

تراه. لم يمكث طويلاً مع أمه ، بل عاد إلى منضرتة فوجدها كما هي من أرض وحوائط وسقف وكتب ، وإن كانت خالية من المقاعد والدكك إلا دكتين ضمنا وفرشتا بزوج من الالحفة القطنية المزوقة والمساند الطويلة فكأنها سرير نوم مريح . سأل مرسي : من فعل هذا التغيير وأنا غائب . قال مرسي : أمك . فلم ينطق . والواقع أنه ارتاح لذلك التغيير ، فامتطى سريرته ، واستأذن أخويه لحاجته الملحة إلى النوم .

قال مرسي ألا تريد أن نحضر اليك ماء ساخناً وطشناً " لتستحم " . قال غداً إن شاء الله .

قالا : تصبح على خير ..

لم تطل يقظته أكثر من دقائق استرجع فيها ما لاحظته من أن كانون الردهة قد أزيل . ونام قبل أن يعرف الجواب على آخر سؤال : كيف أشرب الشاي صباح غد .

الفصل الثاني

الدميرة

قال الراوي :

(١)

لقد أتى على النيل حين من الدهر كان طفلاً يلعب في أرض مصر لعبة الأطفال ، يبنون ثم يهدمون ما بنوه . فهو ورد معمر في أشهر التحاريق . فينزل الناس من مرتفعات الهضبة إلى واديه يزرعون ويعمرون . ثم لا يلبث أن يتحول إلى مارد مدمر في أشهر الفيضان فيسمونه " الدميرة " . يغرق ويهدم لا يترك على الأرض الخصبة نماء أو بناء . فكان لا بد للناس من ان يروضوا طاقة النيل الذي لا غناء عنها . ففعلوا به ما يفعلونه بالدواب الوحشية . أجموه ما يحد من جموحه ويقود حركته . جسرين من تراب يمتدان من أول جبال النوبة حتى مدخلا الدلتا . يحد أحدهما " مجال " حركة الفيضان من الغرب ، ويحده الثاني من الشرق . وهكذا اصطنع الفراعنة للنيل مثل ما يصطنع الآن قفصاً (بارك) يوضع فيه الطفل يلهو ما شاء بدون ان يعبث بما خارجه من أثاث المنزل . وعرف الجسران باسم المفرد فهما " جسر النيل " .

نزل الناس من الهضاب وأقاموا منازلهم فيما بينهما وبين جسر النيل واستقر الانسان فاضطرد العمران . غير ان تلك الأرض المحمية من مخاطر الفيضان كانت في حاجة دائمة إلى الماء ليستزرعها الانسان . فاخترعوا لريها أدوات التحاريق وسبل الفيضان .

في أشهر التحاريق ترفع المياه إلى الأرض من الأرض، تلك المياه من النيل التي تحتفظ بها في جوفها، " بالشواديف " . مفرده شادوف . ويسمى في القرية " عود " . وهو رافعة من خشب السنط تبلغ القصبة محمولة بعارضة يرتكز طرفاها على كتفي دعامتين من الطوب اللبن . تحمل في الطرف الأقصر الأسفل كتلة جسيمة من الطين . وتتدلى من طرفها أعلى

الأطول " جريدة " من سعف النخل تنتهي بوعاء من جلد الماعز " الدلو " يقف الفلاح تحت مستوى الدعامتين " ويجذب " " العود " إلى أن يدرك " الدلو " ما تجمع من ماء جوفي أمامه في بئر محفور . فإذا ما أمتلأ " الدلو " ترك ثقل كتلة الطين ترفعه أو تساعد على رفعه حتى منبع قناة معدة فيما بين الدعامتين . يصب الفلاح فيها الماء وهي تحمله خلال قناة ترابية " فحل " إلى الغيط حيث الزرع ينتظر وروده ، يستغرق مليء الدلو وصبه نحو دقيقة ، وما زال الفلاح طوال النهار أو الليل إذا شاء ، جاذباً العود بذراعيه ، ثم منحنيًا بجذعه ليدرك الدلو الماء ، ثم رافعا الدلو بالماء ، ثم صابا الماء في منبع القناة ، ثم عائدا لجذب العود ، فلا يروي في يومه أكثر من ربع فدان (١٠٠٠ متر مربع) . وما دام يروي فإن الماء يتناثر من الدلو وهو يقف على الطين فهو شبه عار وحاف ومبلل دائما وتلك نعمة في وقت " القيظ " الذي يسمونه موسم القيضي وهذه يدركونها . أما النعمة التي لا يدركونها فهي اختفاء الكروش ونمو العضلات . ومع ذلك يضربون الري بالعود مثلاً للارهاق والشقاء ويتهمون فرعون الذي أنشأه أول مرة وأورثهم آلة شقائهم . يخني العواد :

صبحني العود ... خشب وجلود

والعود عايب .. بكى الشايب

فرعون بناك .. هرب وخلاك

خذ حظه معاك .. وساب لي شقاك

أما القادرون فرادى أو شركاء فيرفعون الماء في أشهر التحاريق بالساقية . والساقية آلة فظة من خشب يصنعونها بأنفسهم . بئر عميقة وعريضة مبنية بالآجر والجير فهي مليئة دائماً بالمياه الجوفية . يرفع منها الماء بسلسلة من " قواديس " الصاج مترابطة بحبال ومعلقة على زوائد جانبية من عجلة جسيمة تدور رأسياً على محور خشبي مثبت في أعلى البئر . العجلة ذات تروس خشب تتشابك مع تروس أخرى من خشب بارزة من محيط عجلة أكثر جسامة تدور أفقياً على محور خشبي مثبت في قاعدة مبنية بالحجر بجوار البئر من أسفله ، وفي كتلة خشبية تستند إلى حائطين من أعلاه يبرز من

هذا المحور ذراع خشبي طويل يتجاوز محيط العجلة الأفقية بما يسمح بتثبيته على رقبة حمار أو جمل أو بقرة . تغطي عيون الحيوان بأغطية من الليف المبطن بالنسيج يسمونها " غمة " حتى لا يعرف الحيوان الى أين يسير ثم يستحته " السائق " ضرباً على السير . فيسير وثيداً بفعل ثقل الآلة المركبة التي يجرها . يسير دائرياً فتدور العجلة الأفقية على محورها الرأسي. فتدير العجلة الرأسية على محورها الأفقي . فترتفع قواديس الماء المغمورة في ماء البئر وقد امتلأت حتى إذا ما أدركت قمة الدورة وبدأت في الانحدار راجعة الى جوف البئر أفرغت ماءها في حوض من الخشب متصل بقناة تحمله الى حيث الزرع ينتظر ، وتكون قواديس أخرى قد امتلأت فارتفعت فصبت فانحدرت ... وهكذا دواليك كما يقولون . تروي الساقية نحو فدان في اليوم . من المشرق الى قبيل المغرب .. ولا يتعذب فيها إلا الحيوان . أما الذي اختار أن يكون سائقاً بدلاً من أن يكون ساقياً ، فيركب العجلة الأفقية يحث البهيم على السير اذا ما توقف البهيم . ثم يعزف على الناي ، بمصاحبة ازيز احتكاك خشب السنط الثقيل أو ما يقولون أنه " نواح الساقية " ألحانا تعجبه . وقد يغني مواويل لا يسمعها أحد ، الى أن توشك الشمس على المغيب فيعودون ، الناس والبهائم ، الى المساكن، ويكملون في اليوم التالي .

كل هذا لا يجدي في أشهر الفيضان في ترويض النيل وقد ارتفعت قامته ، سيدمر جسره لو ترك لذاته .. فقسم الناس ، منذ أيام الفراعنة ، الأرض الزراعية ما بين جسر النيل والهضبة ، مساحات مساحات أحاطوا كل مساحة منها بجسر سميك . فإذا فاض النيل فتحوا للفائض فتحات يندفع منها الى ما يليها من مساحات . وهكذا حتى تستوعب تلك المساحات تدريجياً ضغط فيضان النيل كلما فاض وبقدر ما يفيض . حينئذ يبدو النيل جارياً بين جسريه وتبدو تلك المساحات داخل جسورها كأحواض هائلة مليئة بالماء الساكن . يبقى الماء ساكناً نحو شهرين ثم يبدأ النيل في " النزول " فتعود المياه إليه من خلال تلك الفتحات ذاتها تاركة على الأرض طبقة رقيقة منالغرين وكميات كبيرة من الأسماك

الصغيرة . فإذا انتهى انسحاب الماء طمرت الفتحات فعادت الجسور سوية كما كانت ، وبدأ الزرع .

ذلك هو " نظام " ري الحياض الذي ابتكره الانسان ، منذ عهد الفراعنة ، لترويض فيضان النيل واخضاعه ، بارادته ، لغايته . لا يزال باقياً . كما لا تزال باقية الشواذيف والسواقي أدوات الري الفرعونية في وقت التحاريق . كل ما جد منذئذ إعادة تقسيم الأرض إلى " أحواض " أكثر ملاءمة لنشوء الملكية الخاصة للأرض التي لم تكن مصر تعرفها من قبل ولا من بعد حتى منتصف القرن الماضي . وهو تقسيم جرى على هوى كبار الملاك . وتحولت الفتحات الفرعونية فيما بين الأحواض إلى " سحاحير " مبنية ذات أبواب من كتل خشبية يرص بعضها فوق بعض فتصبح سداً ويرفع منها ما يكفي لمرور ما يراد له من ماء الفيضان المحجوز خلفها . إلا أن تكون على مصارف فهي مفتوحة أبداً . أما الفتحات الفرعية في جسر النيل ذاته فقد اندثرت . استبدلت بها " قناطر " تبدأ منها فروع صناعية من النيل من ترع و " رياحات " تمتد عشرات الكيلومترات موازية مجراه تنقل الماء إلى الأحواض . يتحكم الانسان فيما تنقله زمانا ومكانا " ببوابات " حديدية أو خشبية في كل قنطرة ، اما جسر النيل ذاته فلا يزال باقياً يحرسه الناس أيام الفيضان ويدعمون المواقع الضعيفة منه إلى أن يزول خطر الفيضان .

وهكذا هجر الناس الهضبة ، وانتشرت القرى والمدن في الوادي ، ولم تعد مياه الفيضان مهما علت قادرة على أن تغطي على المزارع بل تنساب اليها من القناطر إلى الترع إلى الأحواض انسياباً محكوماً محسوباً . فأمن الانسان من بعد خوف من الفيضان ..

إلا انسان الهمامية فصدق فيه قول أحمد شوقي :

جعل الأرض جمانا وحصى خالق الأرض من ماء
وطين

فوليد تسجد الدنيا له ووليد في زوايا
المهملين

نعم ، لأمر ما انقرضت من " بر مصر " جميعه
الفتحات الفرعونية في جسر النيل الشرقي الذي يفصل

النيل عن الحياض إلا فتحة في الهمامية . انشئت مكانها أو فوقها سحارة ذات باب من كتل خشبية ، تصب ، كما كانت ، في الأرض المزروعة صباً مباشراً بدون وسيط من ترعة . تلك السحارة الغربية التي خطرت على بال عزيز حسين وهو يؤلف قصة جسر الصبخة المقطوع والمقاومة الموهومة ليتخلص من الشويش عتريس . انه لم يؤلفها من فراغ ولكنه استعادها من ذكريات كوارث أصابت القرية من تلك السحارة ومن جسر الصبخة . إذ جسر الصبخة هو ذلك الموقع من الجسر الذي تخترقه السحارة الغربية . ولأنه من تراب ويلصق مباني السحارة الحجرية فإن ماء الفيضان يتسرب فيتآكل التراب الملحي " سباخ " وينقطع الجسر فيطغى الماء " ماء الفيضان " على الأرض المزروعة . فإذا أريد تخفيف ضغط الماء على الجسر الضعيف فتحت السحارة قبل موعد فتحها ، فتدفق مياه الفيضان منها الى ذات الأرض المزروعة التي أريدت حمايتها من الطغيان . يستبدل بفوضى طغيان الماء من الجسر المقطوع طغيان منظم من مياه السحارة .. ولا ينجو الزرع في الحالتين .

وقد كان طبيعياً منذ ان لاحظ عزيز حسين وهو في طريقه الى البداري ماشياً على قدميه وراء حمار الشيخ محمود عبد اللطيف أن " الترعة شيمت " ثم بعد ان عادوا جميعاً ، وغادر الشويش عتريس القرية ، أن تنسى القرية السلطة والحكومة والعمدة وحتى الشيخ عباس ، وتنشغل انشغالا بدنيا وعصبيا بمواجهة مخاطر فيضان يبدو مبكرا مدمرا . العاطلون وأشباه العاطلين في الرهبات يستعيدون وقائع الكوارث الماضية . والمصلون يدعون الله أن يرفع غضبه ومقته عنهم ويصون مزارعهم . والشباب يقضون الليل ساهرين في " تاية " سطوحي عبد المنعم مسلحين بمقاطفهم وفئوسهم ، وينظمون " ورديات المرور على الجسور واستطلاع حالتها وخاصة جسر الصبخة . والرجال والنساء والأولاد والبنات يتفقدون " القيسي " طوال النهار ويقطعون كل قنديل أبيض ، ويحملون ما قطعوه الى المنازل حيث تحولت الأسطح الى مساطيح .

ذلك لأن الشيخ محمود عبد اللطيف الذي ركب حماره في الفجر متجهاً إلى البداري قاصداً أسيوط ، قد عاد من البداري قبل الظهر ونسى ما كان يريده من أسيوط .

قابل المأمور في البداري فقال له حسناً فعلت إذ حضرت اليوم يا عمدة . كاد ينهار توقعاً منه أن المأمور سيبلغه نبأ العمدة الجديد . قال وقد جلس بدون اذن : خير يا بيه . قال : ربنا يستر يا عمدة والبركة في همتك . خير يا بيه . كنت سأبلغك بإشارة تلفونية ما أبلغني به الري إنه نظراً لارتفاع منسوب مياه النيل فقد تقرر فتح الحياض بعد عشرة أيام . قال : يا سعادة البيه القضي لن يستوي قبل ثلاثة أسابيع أو أسبوعين . قال : يا شيخ محمود لا تتعب نفسك ، كلنا في خدمة الحكومة ولكن إذا وصل الأمر الى الفيضان فالحكومة نفسها في خدمة ادارة الري . فأسرع بالعودة إلى بلدك وبلغ الأهالي " ليعملوا حسابهم " على أن مياه الفيضان ستغرق الحياض بعد عشرة أيام .

عاد العمدة سريعاً وأبلغ الحاضرين ، وتولى الحاضرون ابلاغ الغائبين ، فنسى الجميع كل همومهم وانطلقوا الى الغيطان لانقاذ ما يمكن انقاذه .

.. منذ يومين وهو قابع في حجرته ، منضرتة سابقاً، يقرأ ما تجمع من صحف الأسابيع الماضية ويعيد قراءتها . فقد كان يتابع بلهفة معركة مستمرة منذ عام . يقول الراوي كان الانجليز قد بدأوا محاولة اقتحام الدردنيل في طريقهم إلى احتلال دار الخلافة : الاستانة . فاضطربت أفئدة كل المسلمين . لا أحد يقول لماذا . انهم لا يتعاطفون مع السلطان منذ ان أفتى بكفرعرابي ... ولا يحبون الاتراك المتغترسين ولا يعرفون إلا أن استانبول مقر الخلافة . الخلافة عندهم غير الخليفة . الخليفة انسان فاسد أما الخلافة فرمز مقدس . وما يزال أولادهم وبناتهم منذ ان احتل الصربيون والبلغاريون (١٩١٣) أول مقر للخلافة مدينة أدرنة (١٣٦٥ - ١٤٥٣) يغنون لمقر الخلافة :

حلوة يا ادرنة ياللي احتلوكي

الصرب والبلغار ...

ضربوكي بالنار يا ادرنة ...

ترك تركوكي وعادوا خدوكي

حلوة يا أدرنة ياللي احتلوكي

فما هدأت أفئدتهم بعد اضطراب الا حين اندحر الانجليز في غاليبولي .. وكان عليه أن يتابع هذا كله، وأن يحفظه ، ليتحدث به الى من يلتمسون لديه يوماً بعد يوم أنباء " الخلافة " . وقد انقطع الحديث منذ أسابيع وتراكت الصحف منظوية على أنباء لا شك متراكمة فقضى يومين ليعد نشرة الأنباء . يأتيه الافطار والغداء والعشاء يحمله اليه فوزي . ولا يرى أخويه إلا لماما في المساء . وسمع أخبار القرية وصراعها ضد مخاطر الفيضان . الى أن دوت في صباح اليوم الثالث صرخة امرأة رددتها نساء أخريات . فخرج الى الردهة ينادي يا مرسي ، يا اسماعيل ، يا نصر ، يا فوزي لاحياة لمن ينادي . خرجت إليه صفية تبكي . قال ما الخبر يا صفية . قالت وهي تعود إلى داخل الدار : الجسر انقطع عند الصبخة " يا سلفي " والرجالة هناك كلهم فتراجع صامتا كالمذهول .. لا يعرف ماذا يفعل . توقف ثم عاد مندفعاً الى باب الدار . فتحه . فإذ برجال ونساء يمرقون أمامه مسرعين، يجري بين أرجلهم ومن حولهم أطفال وصبية . ويسأل إلى أين فلا يجيب أحد الا جواب صراخ النساء وعويل الصبية وهم يجرون . جرفته تيار البشر . فإذا به بجلباب نومه ، بدون عمامة ، يجري حافيا ويسبق الكثيرين الى جسر الصبخة . أين القطع من خيطنا الكبير . لا فائدة في النداء ، فكل قادر على النداء أو البكاء لا يكف فاختلطت الأصوات الرجال وبعض الشباب شبه عرايا يصطنعون من اجسادهم سداً ملتحمين . ورجال ونساء يثبتون أقدامهم بما يحملون اليهم من أتربة الغيطان . تتحول الاتربة سريعاً الى طين فيدفع الماء صف الرجال ويوقعهم في الطين . خاض الماء والطين حتى اقترب من سد الاجساد العارية فتعرف في شبح من الطين على اسماعيل . يا اسماعيل لا يجدي ما تفعلون ، " اعملوا في القطع لبشة من بوس القيص " . نقلها اسماعيل الى الآخرين . قيل للنساء وبعض الشباب " هاتوا بوس نعمل لبشه " . فقطعت أطنان من أعواد القيص بقناديلها وألقيت أمام سد الرجال . وألقي عليها التراب فتماسكت عندما تحول التراب الى طين . وأضاء شعاع من أمل في قهر النيل المتمرد . فما ان انتصف النهار حتى كان قد سد القطع بسد من البوس والطين فانقطع الماء ، تاركاً كثيرين من أهل البلد

ممددين على الجسر " بطينهم " لا يستطيعون حراكاً من فرط الاعياء . وكان عباس ولد محمد اسماعيل قد أدمى يديه وهو ينتزع بها البوص من الأرض ويحمله مع الحاملات والحاملين ، " زغرتت " امرأة ولم تستطع سواها إلا أن تبكين تعباً وقهراً . أقاموا على الجسر حراسة وانسحب كل عائد الى داره يتوكأ على من لا يزالون على السير قادرين . حتى اذا ما بلغ آل المرحوم محمد اسماعيل دارهم ، تفقدت صفة ولدها فوزي فلم تجده فصرخت . فانطلق عباس ومرسي واسماعيل ونصر عائدين الى حيث كانوا عند جسر الصبحة . فوجدوا من سبقهم الى هناك يتفقدون أطفالا غائبين ، كان فوزي وولد زناتي يحملان البوص مع الحاملين . فتشوا الغيط وفتشوا الحفر التي رفع منها التراب فأصبحت بركا من طين . ولد زناتي هاهو جالس في الطين مذهبولا لا يتحرك ولا ينطق . أما فوزي العزيز فمدد في بركة من الماء العكر وقد غاص رأسه في الطين .. فحمله أبوه بين يديه وعادوا به الى الدار منكسي الرءوس صامتين غير قادرين حتى على البكاء . تلقته صفة بصراخ ينفطر له القلب وهي تحتضن ولدها حتى غاب وعيها فتوقف دمعها وصراخها فنقلوها الى مسكنها . حين أفاقت كان فوزي قد دفن وامتأ الدار بالندابات وامتألت المنضرة بالمعزين . ماتم فوزي الذي مات صغيرا اسبوع ولا يتصل حتى الاربعين .

في المآثم تحبس اللسنة فتنتلق الأفكار لا يحدها حتى حزن المكلومين . صرخة من امرأة فيجري الرجال والنساء والشباب والأطفال الى حيث مصدر الخطر فيجري بجلباب نومه ، بدون عمامته ، حافيا تاركا وقاره ي عقر داره . حين بدأ يتعب من الجري حافيا على حصى الجسر تساءل عن مصير غيطهم الكبير . فكاد يتوقف لولا أن شعر بخجل مريير . خليط من الناس من كل العائلات يجاهدون لانقاذ غيطهم الكبير . وهو معهم في الماء والطين ويحمل ما تحمل النساء والصبية بوصا منزوعا من غيطهم الكبير لسد القطع اللعين . فرض الله على كل قادر من المسلمين الحج الى مكان واحد في يوم واحد بلباس واحد ذي لون واحد ليعلمهم بدون موعظة وحدة الانتماء الى جماعة المسلمين . ولقد كان القادرون من أهل الهامية في يوم واحد في مكان واحد تغطي جسد كل

واحد منهم طبقة من ذات الطين . فهل كانت وفاة فوزي العزيز الا آية تلفته بقوة وقسوة الى أن " الانتماء " الى الهمامية الذي رفعه عنوانا كبيرا على حياته قد تحول بالتكبر الى كبيرة . هذا هو الانتماء كما رآه وسمعه ولمسه وتنفسه عند الجسر المقطوع . انه الاندماج في الجماعة حتى الفناء . منذ اليوم لن أكون خارج من انتمي اليهم . لا فوقهم لاتحتهم ولا على يمينهم ولا على شمالهم سأنس في جوفهم اتغذى منهم كما تتغذى الاجنة في أرحام أمهاتها ، وأمدهم بما أقوى عليه كما تفعل القلوب القوية في الأجساد . تتلقى منها الدم وتعيد اليها الدم ، لا تتوقف ولا تنفصل . لا انفصال بعد اليوم عن الناس ، مكانا ، وأفكارا ، أو كلاما ، أو غذاء ، أو كساء ، وليكن الله في عوني ليهديني .

ايقظه علي ولد عمه مشهور وقد حمل اليه الافطار . قم ياشيخ عباس الدنيا أصبحت ضحي .. لقد احضرت إليك الافطار ، وحلة مياه ساخنة وطشت لتفطر وتغتسل . أتركك الآن .. لبس العمامة والحذاء وقفطانا من " الشاهي " يضمه حزام من الحرير وفوقه " كاكولة " . " طقم " الأزهر .. ذهب الى المنصرة فلم يجد إلا أحمد عبد اللطيف . جلس على دكة بجواره . تأخرت في النوم .. يبدو أنني كنت متعبا كما قلت بالأمس .. كيف يبدأ الحديث معه . لا بد من طريقة يتقبل خلالها أفكاره بدون أن يشعر أنها مملاة عليه .

- باقي اسبوع وتطلق المياه .

- لا باقي ستة أيام .

- ماذا سيفعل الناس في هذه الأيام الستة .

- ما كانوا يفعلونه كل مرة وما يفعلونه منذ أمس . لقد انتقل كل القادرين على العمل من الرجال والنساء الى الغيطان لجمع ما استوى من قناديل القيسي ونقلها في " القف " الى البيوت .

- غريبة وواجبات العزاء لماذا يصرون عليها وهي تعطلهم .

- لا ، يا ولد عمتي ، لاعزاء ولا مجاملات ولا عتاب في هذه الحالة . لا يذهب أحد منذ أمس إلى مآتم محمد ظرطور . وأعتقد أنه لن يحضر أحد هنا هذا اليوم أو بعده . ربما يحضر الشيوخ والذين لا يعملون أو بعد صلاة العشاء . إنما في النهار لا الارزاق أولى . وهذه عادات من زمان .

- لقد كانت عندي فكرة . أن يتعاون أهل البلد جميعا في قطع القيسي حوضا حوضا ...

يبدأون من حوض " أمخلي " مثلا ثم " التلوت " وهكذا . لأن المياه تصل كل حوض بعد السابق يومين فتكون لديهم فرصة أكبر .

- ياشيخ عباس لا تقل هذا الكلام أمام أحد غيري حتى لا يسخرون منك ، ويقولون أنك نسيت الزرع والقلع .

- لا .. أنا لم انس .. ولكني وجدتهم كلهم يدا واحدة في سد قطع جسر الصبغة . فلماذا لا يكونون يدا واحدة في ضم المحصول .

- لا . قطع جسر الصبغة خطر على البلد . اذا اندفعت المياه من النيل الى الأرض مباشرة فلن يوقفها شيء . ستغرق الزراعة وحتى الجسور وتدخل البيوت ايضا . ليست هذه أول مرة .. ولا تنسى الناس تجاربها المرة .

- أرسلت اخوتي الثلاثة وأنا " ضعفان " لا أقدر على هذا العمل الجسيم .. لم يرك أحد من اخوتي فلم يقولوا لي . عرفت من يونس عبد الله . قالوا فقط أن فوزي ولد مرسي " قرصه " ثعبان من الثعابين التي طردتها المياه من جحورها في غيطكم الكبير .

- لا . توفي غرقا ..

- في شبر ميه ؟ .. جائز .

- على أي حال نحن نشكرك على مشاركة إخوتك في حماية غيطنا الكبير .

- لا شكر على الواجب . لكن انتبه حتى لا
تشكر أحد غيري . أنت ومرسي واسماعيل ونصر فقط
الذين كانوا يردون الخطر عن غيطكم الكبير .
باقي الناس كانوا يردون الخطر عن غيطانهم
القريبة والبعيدة . وحدة المصير هي التي
وحدتهم .

- عظيم . فلماذا لا يتوحدون في جمع
المحصول حوضا حوضا .

- ما الذي جرى لعقلك يا عباس . لأن الأرض
مقسمة بين الناس . كل واحد له زراعة . قيراطان .
ربع فدان . أكبر غيط فدان . من أجل هذا أطلقوا
على غيطكم اسم " الغيط الكبير " فكل واحد بعد
زوال الخطر ينتبه لزرعته . ولو قلت لهم تعاونوا
مع بعض يتمسك كل واحد بأن يكون غيطه أول غيط
يجمع محصوله . وان قلت حوضا حوضا فلا بد أن تكون
البداية من حوض " داير الناحية " لأن القيسي فيه
استوى . وليس من المعقول أن يبدأوا من الآن في
قطع الأخضر ويتركوا المستوي .

وحتى في كل حوض وفي كل زراعة ستجد قناديل
استوت وقناديل لا تزال خضراء . فالطريقة المتبعة
في هذه الحالة منذ القدم قطع المستوي في كل غيط .
وبعد يومين يكون قد استوى غيره فيقطعونه وستجد
أنه حين تطلق المياه في الحيضان لا تجد الا البوص
الأخضر ويكون أغلب المحصول قد تم جمعه . هذه أشياء
تعلمها الفلاحون من جدود الجدود .

- أنا كنت أريد أن أؤدي خدمة للبلد .

- أنت خدمت البلد على قدر علمك وإن شاء
الله ربنا يوفقك وتتعلم في البلد ما فاتك وأنت في
الأزهر .

- ما الذي يمكن أن اتعلمه في البلد يا
أحمد .

- أن تصبح فلاحا . فنحن بلد فلاحين .

- كيف ..

- والله لا أعرف الجواب . الفلاح يعرف أنه فلاح ولكن لا يعرف كيف هو فلاح . لكن مثلا منذ اليوم لن يساعد أحد أحداً . كل فلاح مشغول بزرعه . وانت عددكم قليل . ثلاثة أخوة ونصر الجمال . فأخواك في حاجة اليك . بقي اسبوع أو ستة أيام لن تجد فيها من يجلس معك . اين يونس عبد الله الذي لم يكن يفارقك ليلا أو نهارا . انه في غيظه الذي لايزيد عن اربعة قراريط . اين مرسي واين اسماعيل . مرسي ترك المأتم واسماعيل معه ومعهم نصر الجمال في الغيطان يجمعون القيسي فلماذا لا تذهب ولو تقف معهم اذا كنت لا تستطيع أن تعمل بيديك .

- اذهب ان شاء الله .

- استأذن انا ؟

- إلى أين ..

- الى الغيط .. غيطنا .

كمثل عصا موسى لقت كلمات أحمد عبد اللطيف البسيطة أفكاره المركبة . فشرع بإحباط ثم بهبوط ورغبة شديدة في النوم . فدخل حجرته واستغرق في نوم عميق كما لو كان يخشى اليقظة حتى صباح اليوم التالي .

قالت له صفيه : عمتي تريد ان تراك .

قالت له بمزيج من الحزن والغضب والجدية : خذ هذه " شمسية المرحوم أبوك " الشمس في الغيطان حارقة وأنت غير متعود فلا تحمل . احتمي بالشمسية وساعد أخويك بدلا من " القعدة هذه " .

لم ينطق ..

كغابة هائلة من أعواد " القيسي " الخضراء تحمل قناديلها ، أو كبحر أخضر هائل عليه طبقة من الزبد الأبيض ، غابة كانت أو كان بحرا فإن اضطراب سطحه المستوي ينبئ عن أن تحت السطح تجري ، أو تعمل ، أو تسبح كائنات حية لا تبين ، تجذب أطراف الأعواد فتحدث موجة سريعة تعود بعدها الأعواد

قائمة ولكنها بدون قناديل ، وتنتقل الموجة من وضع إلى مواضع فيختفي اللون الأبيض من كل موضع مرت به تلك الكائنات الخفية التي قطعت القناديل أو لقت الزبد ، إنما تكشف تلك الكائنات عن ذواتها عند أطراف الغيطان فيما يجاور الجسور ، أسراب من البشر ذوو حجوم متفاوتة ، شبه عراة إلا النساء ، يندفعون خارجين من لجة الزرع الى الجسور حاملين مقاطف مليئة بالقناديل يفرغونها على الجسر ثم يغيبون في اللجة كأنهم نمل يحفر بيتاً ، ومن حين إلى حين ، ومن موضع إلى موضع ، يندفع من داخل الغيط من ضاقت نفسه وأغرقه عرقه ، ولسعت جلده تلك الشعيرات الرقيقة التي يلتقطها جسده العاري من " القناديل " ويسمونها " الغف " يندفع جرياً وهو يحك جلده ويلقي بنفسه في المياه ، مياه التربة أو مياه النيل بعنف ، يتبرد من جحيم الحر ، أو يتحرر من لسعات الغف ، من الفجر حتى المغرب ، وفي المغرب تحمل القناديل على الرءوس وفي التلاليس على ظهور الحمير وفوق " شواغر " الجمال ويعودون إلى القرية ، يجمعهم وقت العودة ، ويجمعهم جسر الصليبة ، ولكنهم لا يتبادلون الحديث بل يسعون صامتين الى منازلهم كسعي الجنائز الى القبور .

لا يضاف إلى تلك الصورة ، ولا يخل باتساقها ، إلا حامل الشمسية ، الواقف على الجسر ، المتنقل من غيط لهم الى غيط لهم ، يحرس القناديل المقطوعة التي لا تحتاج الى حارس ولكنه ، على أي حال ، يعمل مع أخويه ، يعمل شيئاً أو يعمل لا شيء لقد أصبح معهم ولو على شاطئ البحر الأخضر وهما ونصر الجمال فيه غارقون .

بعد ستة أيام تدفقت المياه إلى حوض ثم إلى حوض ، وتحولت أسطح المنازل إلى مساطيح للقناديل البيضاء ، وجمعت القناديل الخضراء ، لتكون غذاء للماشية ، وجمعت الهمامية من ناتج زرع أهلها في ذاك العام محصولاً ناقصاً لا يكاد يفي بما سيحتاجه أهلها من خبز البتاو طوال العام .

حاصر الفيضان القرية فاختلطت فيها الكائنات الحية جميعا حتى كادت تضيق بها كما يحدث كل عام ، تميز ذلك العام بهجوم الغربان وبشقاء النسوان ، أما الغربان فسرايا وفصائل وكتائب مرابطة حشداً فوق الأشجار والحيطان تنقض جماعة جماعة ، بجسارة الجماعة ، على قناديل القيسي التي افترشت أسطح المنازل ، لا تصدها مناوشات الصبية الحارسين بل تتحداهم وقد تعاقبهم نقرا في أطراف أيديهم وأرجلهم ، ولا يغري الصبية بالصمود ما كان يغريهم في مساطيح الغيطان ، فيتسللون هاربين الى ملاعب الدروب ، أما النساء فقد أضيف الى همومهن في ذلك العام ما يضاف عادة الى هموم الحكام إذا ما أعلنت حالة الطوارئ ، لم يعد بعد الذين غادروا القرية إلى الغرب لجني القطن لأصحابه ، وليس من عادة الذين لا يغادرونها العمل داخل البيوت فلا يتدخلون في شئونها الداخلية ، وقناديل القيسي حاملة الحب الذي ستودعه النساء في الحواصل مهددة بغارات الغربان الشرهة ، فترى النساء على الأسطح جاثيات ضاربات بعصى رقيقات ما تيسر لجهدن ما تيسر لجهدن من القناديل ، ثم جامعات الحب نهارا ، بعد نهار ، بعد نهار ، وفي الليل حين يأتي القمر ، فتتحول القناديل ببطء شديد إلى الحواصل والصوامع على دفعات من الحب قليلة إذ المحصول في الأصل قليل ، كل هذا قد يهون ، أما الإضافة غير الهينة فهي ما يفعله ذلك " الغف " الذي يتطاير من القناديل المضروبة فيلسع الجلد ، انه يتسلل كالهباء الخفي إلى أجساد الضاربات ذوات الملابس الفضفاضة من الجلايب ، وهناك يلتصق بمواضع قريبة ومواضع غريبة من جلودهن الملساء الرقيقة ، وليس في البيت ماء جار " تغطس " فيه المرأة من حين إلى حين كما يفعل الرجال في الترعة ، قد تضم واحدة منهن أطراف ثوبها إلى قدميها وتربطها بحبل متين ، غير ان تلك حيلة تعوق حركة " دق القيسي " فلا يحتال بها إلا القليل ، فيتحملن طوال النهار على الأسطح المكشوفة لأشعة الشمس الحارقة ، ولا يشتكين ، لا يغيظهن إلا عودة الرجال إلى المصاطب والمناظر

والرهبات يستهلكون من الدخان والشاي ما يتوقعون الوفاء بثمنه إلى أبو الحسن مما يبيعونه من " قوت العيال " تتوقف النساء عما يشقيهن يوما في الاسبوع ، انه يوم السبت ، إنه يوم السوق ، إنه يوم اللحم والمرق والفتير ، غير ان أغلب الرجال يفسدون نهايته بما يدعونه من إرهاب أو يصطنعونه من أمراض ينسبونها إلى فيضان ذلك العام ، ومع ذلك فلكل شيء وجه آخر حتى الفيضان ، وقد بدأت رحلة المياه من الفيضان إلى النهر تاركة ما سيثقل النساء من أطنان السمك الصغير.

ولكل وجه وجه آخر ، فقد وجد أهل القرية في ذلك العام ، وفيما سبق أو وجدوه في مثله من أعوام ، مادة لا تنتهي من القصص المقارن ، ولما ذكروا فوزي ولد مرسي تذكروا وأحصوا عشرات من الشهداء الذين أغرقهم الفيضان وهم يدافعون عن قريتهم ، واستجابت علاقاتهم القبلية المفترقة لمشاعر الوحدة ضد مخاطر المياه المغرقة فأصبحوا أكثر انسانية مما سبق من أعوام ، وانفكت حتى كادت تنفرط روابط التكتل القبلي، وأخذ الناس ، زرافات ووحدا ، يتزاورون ويتسامرون ويلهون ، مختلطين في الرهبات وفي المناظر وعلى المصاطب ، وفي الدروب ، وعند " تاية " سطوحى عبد المنعم ، لا اختلاط الأقارب ذرية فرج قداح ، بل اختلاط الذين يواجهون الخطر معا ، يخسرون معا ما يخسرون ، ويكسبون معا ما يكسبون ، ويضربون مثلا فيضان ذلك العام ، وما يزالون راجعين أمثلة من القصص والحكايات حتى آباءهم وجدودهم حيث خسروا معا كل شيء ولم يكسب أحد منهم شيئا يوم تعرضوا معا لغارة الأمير فاضل باشا ، ويتبادلون تأكيد وحدة المصير مما صار أخيرا ، فيتحدثون بضمير الجمع ، فينسبون إلى أهل القرية جميعا ، دفع خطر السلطة عن أبناء القرية ، وعرائض القرية إلى الحكام ، وثأر القرية من قتلة ابن القرية محمد ظرفور ، ووقوف القرية سدا بشريا في قطع جسر الصبخة .

ويكون عباس ولد محمد اسماعيل ، وأخوه مرسي ، وولد عمه علي مشهور ، ويونس عبد الله قد قدموا زائرين ، فيقول أحد المستقبليين : " دا حتى الشيخ عباس كان مع الرجال وسط الميه والطين يوم قطع جسر الصبخة " .

ويقول آخر مازحا : " أنا رأيتُه وقلت في عقل بالي الشيخ عباس حاطط على راصه طين عشان حزين على الغيط الكبير " . ويضحكون من نموذج " النكتة الصعيدية " التي تقوم على أساس التورية لا أساس المفارقة ، وهو سعيد بما يقولون ، انهم يحتضونه بطريقتهم وكم تمنى أن يعرف الطريق إلى أحضانهم ، المهم أن قد سقط التكلف وعاد إلى القرية التي ينتمي إليها ولم يخسر التوقير بل كسب التقدير ، فمنذئذ سيذهبون إليه يستشيرونه في مشكلاتهم الخاصة ويستكتبونه خطابات إلى أقارب أو أصحاب بعيدين ، وسيحرر لهم عقود الأيجار و " حجج " البيع ، ويأتمنه عليها أطرافها فيودعونها لديه ، وسيشكو بعضهم بعضا لديه فيصلح بينهم ، ويستفتونه جادين في المسائل الشرعية منذ ان عرفوا منه مالم يكونوا يعرفون ، إن عدة الأرملة أربعة أشهر وعشرة أيام وليس ثلاثة أشهر ، لقد أصبح عندهم واحدا منهم موثوقا لديهم فاستبدلوا بانتماؤه إلى عائلة " المشاهرة " (أولاد مشهور) انتماءه إلى الهمامية بكل عائلاتها وبيوتها .

ثم قطع ما تيسر من القضي فانشغل بيت اسماعيل بالتحضير لزواج اسماعيل من بخيطة ، اجتمع الشيخ عباس وأخواه وعمه مشهور في حجرته للاتفاق على موعد الفرح فاتفقوا أولا على تحقيق رغبة اسماعيل في أن يكون فرحه أحسن فرح ، قال مرسي بعد أن نتفق على الموعد ، وقبله بأسبوع ، سأذهب إلى بلد الفراسية في سوهاج ، واتفق مع المنشد احمد الفراسي وبطانته على إحياء الفرح ، اعترض اسماعيل ، قال أن الشيخ أحمد الفراسي قد أصبح عجوزا فيعجز صوته عن أن يصل إلى سمع البلد كلها ، أضاف أن جماد غندور المنيحي قد ذكر له أن في كوم امبو ، الموطن الأصيل للغنادير ، شيخ مشهور يحي الأفرح بإنشاد المدائح النبوية وأنه مستعد للذهاب مع اسماعيل لإحضاره هو وبطانته لإحياء الفرح ، اتفقوا ، قال الشيخ عباس أريد أن أضيف إلى فرح اسماعيل شيئا جديدا ، سأذهب إلى طما أو أسيوط واحضر بطاقات معدة للدعوة إلى الأفرح تحمل اسمي اسماعيل وبخيطة وتاريخ الزواج ونرسل دعوة منها إلى كل من نريد في البلد ، قال الحاج مشهور لا يا ولدي أسماء النساء عورة فلا يجوز كتابتها في الأوراق ، ثم

ليس في بلدنا أحد أفضل من أحد وسيعتبر الذين لا تكتب دعوات اليهم أننا قد فضلنا عليهم من كتبنا اليهم فيغضبون ويقاطعون الفرح ، قال مرسي نحن أصحاب الفرح فلا شأن لنا بترتيباته ، تلك مسئولية " العرّاسة " فلنرسل الي كبيرهم مهني نوح ليحضر ويرتب أموره .
أرسلوا نصر ليحضر مهني نوح كبير بيت العرّاسة .

" العرّاسة " صفة تطلق على بيت من أفراد ميسورين مشهود لهم بالمعرفة والحكمة ودمائة الخلق ، يتولون إدارة أفراح الزواج لحساب أصحابها بدون مقابل ، كلماتهم نافذة وارشاداتهم متبعة ، وغايتهم أن تمر ليلة الفرح بسلام بدون أن يشعر أي واحد حاضر أن قد حظي بقدر أقل من غيره من الاحترام والإكرام ، فإن وقع خطأ غير مقصود يتحملون المسئولية ويعفى منها أصحاب الفرح فلا يغادره أحد غاضبا على أهله ، إنهم الحافظون على طقوس أفراح الزواج طبقا " لبروتوكول " يتوارثون حفظه أبا عن جد .

حضر مهني نوح ، وسمع منهم ما اتفقوا عليه ، فاعترض مباشرة على صيغة الدعوات ، قال للعائلات شيوخ، وللبیوت كبار ، تتم الدعوة من عائلة المشاهرة ممثلة في الحاج مشهور ، ومن بيت العريس ممثلة في أخيه الكبير ، يمران على المناظر ويقابلان كل كبير ويوجهان الدعوة إلى عائلته أو بيته ولا يسمون أشخاصا، أضاف أنه نظراً للتقارب بين العائلات الذي حدث نتيجة تعرضهم لخطر الفيضان فأتوقع أن يكون الحاضرون الفرح كثيرا ، يلزم لهم طعام كاف ، ومقاعد خشبية (دكك) كفاية ، تستكملون ما ينقص من منضرتكم من مناظر العائلات الأخرى ، يلزم أربعة فوانيس اثنان في الرهبة وواحد في المنضرة وواحد احتياطي ، قاطعه الشيخ عباس قائلا سنعلق الكلوب في الرهبة ، قال مهني نوح - بعد أن تأمل الشيخ - إنكم أحرار فيما تفعلون فهو فرحكم ولكن في هذه الحالة لن يكون لنا شأن بالفرح ، قال الشيخ عباس مستنكرا : لماذا ؟ قال بغيظ : لأن الحریم یاشیخ عباس قد اعتدن حضور الأفراح والوقوف أو الجلوس خلف الدكك ، ضوء الكلوب القوي سيكشف وجوههن " فيتزغنن " حتى لا يراهن أحد فلا يرين شيئا ، لو كان القمر كافيا لاكتفينا بضوئه ، أما

الكلوب وضوؤه القوي فسيفسد الرؤية اللائقة بالحريم حسب تقاليدنا ، على أي حال أمامكم وقت وسأدرس مع أخوتي كل ما يلزم وسنكون جاهزين لتولي المسؤولية قبل الفرغ بثلاثة أيام ، حينئذ سنخبركم بالتفاصيل .

رُشت أرض الرهبة بالماء عدة مرات منذ الصباح حتى تماسك ترابها ، توافد كثيرون بعد صلاة العصر فرادى أو اثنين اثنين يدخلون المنضرة ثم ينصرفون ، من يدخل المنضرة يرشده أحد العزّاسة إلى حجرة فيرى اسماعيل واقفا عاريا في طشت تحيط به مجموعة من العزّاسة يغرفون ماء دافئا من حلة ويصبونه عليه ويدعون جسمه بقطعة ناعمة من ليف النخيل وصابون ، يبارك لاسماعيل ويلقي في ماء الطشت العكر بالصابون قطعة معدنية من النقود ، قرشا ، أو قطعتين قرشين ، نقوطا ، فيقول واحد من العزّاسة بصوت جهير : " فلان ولد فلان نقط بالخير وسع الله عليه " ويكررها بعدد قطع النقود ، فيثبت واحد من العزّاسة خارج الحجرة الاسم ومقدار النقوط في دفتر أعده من قبل ، فالنقوط مساهمة مقدمة في تكاليف الفرغ سترد إلى صاحبها في فرحه ، النقوط قليلة لقلة من يتوقعون أفراحا قريبة لهم أو لأبنائهم .

يترك العزّاسة اسماعيل لأقاربه وأصدقائه ليعدوه للدخلة ويصحبوه إلى باب الدار ، يتجهون إلى الرهبة يشرفون على رص الدكك حول السامر رصا معدا بحيث يجلس كل الحاضرين من كل عائلة متجاورين ، بترتيب يحفظ لشيخ كل عائلة مكانا بارزا تتلوه أماكن لكبار البيوت ، بعد المغرب يتوافد المدعوون .. يستقبلهم الحاج مشهور ومرسي وقد انضم اليهم الشيخ عباس ، يقودهم العزّاسة إلى الأماكن المعدة لهم ، وتكون حلل الطبخ وأرتال الخبز الأبيض والصواني النحاسية وصحافها قد ملأت الردهة الداخلية في المنضرة ، في ركن الردهة قفة أو اثنتان مليئتان بقطع من اللحم المسلوق ، لحم عجل في فرغ اسماعيل .

يتقدم العزّاسة إلى حيث يجلس الحاضرون من كل عائلة فيدعونهم إلى العشاء ويرشدونهم إلى حيث يتعشون ، أفراد كل عائلة يأكلون متجاورين ، يتولى مهني نوح شخصيا إعطاء كل واحد منهم قطعة من اللحم

ليختم بها الطعام ، يمرون وهم منصرفون على بضعة غلمان من العرّاسة يحمل كل منهم إبريقا نحاسيا ومعه طشت صغير خاص به ، و " محرمة " ، فيغسل يديه من يريد ويجففها بالمحرمة ، قبل صلاة العشاء ينتهي العشاء ، لا يتهافت رموز العائلات والبيوت على وليمة الفرح فلا يحضرون إلا بعد صلاة العشاء ، حينئذ يكون قد فاتهم صرخة الدخلة المدوية وما زفها من زغاريد وما صاحبها لأول مرة في فرح اسماعيل من إطلاق أعيرة نارية من بنادق خفية ، يستقبلهم العرّاسة مرحبين ويسبقونهم إلى أماكنهم المحجوزة لهم ، يرحب بهم في مواقعهم الحاج مشهور ومرسي وعباس ، اسماعيل قد أخذ مكانه الذي اختاره له العرّاسة ومعه أنداده وأصدقائه ، غلمان العرّاسة يمرون على السامرين بأكواب الشاي الداكن .

في ركن من الرهبة دكتان مضمومتان كأنهما مسرح صغير ، قدم إليه بعد صلاة العشاء من المسجد الشيخ النقشبندي وبطانته ، بعد أن شربوا جميعا أكوابا من " الينسون " ، وقف الشيخ النقشبندي وارتجل كلمة من كلمات مقعرة يهنئ فيها العريس وأهله وأهل قريته ويدعو لهم جميعا بالستر والسعادة ، ارتفع صوته منفعلا وقال : يا أهل الهمامية لقد حقق الله لي أملا كنت دائما أتمنى أن يتحقق ، أن أحضر إلى بلدكم وأراكم وأعرفكم ، أنتم لا تعرفون أننا في بلدنا نعرفكم ونعرف أسماء جدودكم كما نعرف الجدود من أهل قاو والريانية ونشكر لكم دائما أتكلم وقفتم وقفة الأبطال المجاهدين مع جدنا الشيخ أحمد الطيب ابن الشيخ أحمد عبيد الجعفري النقشبندي رضي الله عنه ونفعنا الله به في الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

هاج الناس في السامر ، بكى بعض كبار السن ، زغردت النساء ، تعالت أصوات الآخرين واختلطت فلا يعرف أحد ما يقول الآخر ، لا تظهر عالية إلا نداءات " الله أكبر " ، دعاهم الشيخ النقشبندي إلى الهدوء بحركة من يديه الاثنتين وترديده " صلوا على النبي " حتى هدأوا ، وتلاشت الأصوات .. قال بهدوء وهو منفعل : سأنشد لكم قصيدة من إنشاء الشيخ أحمد الطيب نفسه بعد أن نقرأ الفاتحة معا على روحه الطاهرة وروح

أصحابه الذين استشهدوا معه ، قرأ الفاتحة جهراً
وردها الجميع بعده آية بعد آية ثم أنشد يقول :

بدأت بسم الله ذي المثل الاسني
تبارك رحمانا رحيمًا ومحسنا
وأحمد ربي بالمحامد كلها
وأثني ثناء جامعًا متضامنا
وصل على النور المجزأ إذ به
أقمت جميع الكائنات من الفنا
وأل بدور يستضاء بنورهم
وهم قدوة السادات في الدين نجمنا
بأسمائك الحسنی انيظت مقاصدي
وانت جدير بالإجابة هنا
توسلت يارباه فيها بسركن
وأسرار تنزيل كتب ورسلنا
ياهادي الخيرات اهد إرادتي
ومن ظلمة الأغيار والشك نجنا

قبيل صلاة الفجر كان قد أنشد ١٦٠ بيتا هي كامل
أبيات المنظومة ، وقد اجتمع حوله كل قادر على
الانتقال من الشيوخ والكهول والرجال والشباب والنساء
فقضت القرية ليلة من النشوة كأنهم سكارى ، لا يدركون
من القصيدة ، ولا يحاولون ادراك ، إلا أنها كلمات
الشيخ أحمد الطيب فكأنهم قد ارتدوا والتحموا
بجدودهم يقاتلون تحت قيادته وهم يجهرون بندا
جدودهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

حتى اسماعيل لم يذهب إلى عروسه إلا بعد أن ذهب
الشيخ النقشبندي إلى المسجد يصلي الفجر .

(٣)

أما الشيخ عباس فقد قضى شهري الفيضان ينتقل من منضرة إلى منضرة ويستقبل في منضرتهم زائرين ، ويدخل مباريات السيجة جالسا على التراب ، واستعاد معرفته الوثيقة بفنون التحطيب التي تعلمها صغيرا فأخذ في تعليمها الصغار ، وحضر زفة العرب بمناسبة ختان مجموعة من غلمان " أولاد دويب " ، ولعلت الزغاريد له عدة مرات إعجاباً من المحجبات حول السامر ببراعته في " فك " رموز الشعر البدوي القديم الذي كان يتحدى عوض الله به أهل الهمامية ، بل لقد صحح لعوض الله نفسه أخطاء تأويله لما كان يروي من الشعر القديم .

قبل أن ينحسر الفيضان عن الأحواض تماما ، جاءت ذات يوم أخبار بأن لجنة الدمرداش قد تحركت ومعها قوة المركز وعساكر انجليز في ثلاثة " كنبيل " واتجهت الى قاو العثمانية عابرة الهمامية ، انتظرت القرية قلقة متوترة وقد حل الهمس محل الحديث الواضح إلى أن عادت " الكنبيل " إلى البداري مارة بالقرية بدون ان تتوقف عندها ، ثم جاءت أخبار من قاو العثمانية بأنهم قد أخذوا ستة عشر شابا من بينهم ثابت ولد نصار معوض الخليفة المرتقب لعمه ابن عم أبيه ، سند عثمان .

- ما العمل ؟

نسأل الشيخ عباس .

اجتمع عشرات من أهل القرية مساء ذلك اليوم في منضرة " أولاد مشهور " .

قال : أين العمدة ؟

قال أحمد عبد اللطيف : أخي مريض منذ أسبوع ، وقد أوصانا أن نسألك الرأي ، وأن نسألك أيضاً عما إذا كنت واثقاً من أن العرائض ستمنع اللجنة من الحضور إلى البلد .

قال : أنا واثق من أن العرائض قد وصلت إلى من أرسلت إليهم في المركز وفي المديرية وطبقا

للقانون كما أكد لي الابوكاتو عبد الكريم ابو شقة بعد أن قرأ العرائض أنه لا يجوز أن تأخذ السلطة أي شخص يرفض التطوع .

قال يونس عبد الله : من أجل هذا عبرت الكناويل بلدنا ولم تدخلها .

قال الشيخ عباس : لا يا يونس ، أنا أظن أن اللجنة رأت أن تدهم قاو العثمانية وهي ما تزال محاطة بمياه الأحواض قبل أن ينفج الطريق إلى الجبل خوفا من أن يهرب الناس إلى الجبل ، أما بلدنا فهي فوق الجبل ، وهم يعرفون أننا جميعا نستطيع أن نتسلق الجبل ونختفي في مغاراته بمجرد ان نراهم عند الكبري ، إذا صدق ظني فسنعرف الحقيقة غداً ، لأن وضع الرياينة مثل وضع قاو ، وموضع بلدنا بينهما ، فإذا داهمت اللجنة الرياينة غدا وأخذت انفاراً فسيكون معنى هذا أنهم لن يداهموا بلدنا ، إما لأن العرائض قد نفعت وإما لمعرفتهم أن طريق الهرب إلى الجبل مفتوح ، أما إذا لم يداهموا الرياينة فعلينا أن ننتظر ونترقب ما سيحدث ، وليكن كل من ذكر اسمه في العرائض مستعداً للهرب إذا ما حدث مكروه ، أما أنا فساذهب غدا صباحاً إلى المديرية رأساً وأقابل المدير الجديد محمد مقبل باشا فهو صديق عبد الكريم ابو شقة الابوكاتو الذي ارسل العرائض ، وأعرف ما هي الحكاية ، إن شاء الله لن أعود إلا بكل خير ، وأنتم ، إذا بدأت اللجنة تذهب إلى الخط البحري فاطمئنوا ، عزيز حسين يعرف لكم هذا الموضوع .

تبادلوا أحاديث مختلطة بهمهمات فلا تبين ، غادر الوقوف المنضرة ، وبقي بعض الجالسين هم من بين الجالسين عزيز حسين يريد الانصراف ، قال له : انتظر يا عزيز إني أريد ان اتحدث معك فغادر الباكون المنضرة تلقائياً ، إلا يونس عبد الله ، قال : اذهب معك إلى اسيوط ، قال : لا داعي ، بعد يومين بالظبط انتظرنني في البداري ومعك الركوبة ، قال : إذن أوصلك غدا بالركوبة إلى البداري وأعود بها ، قال عزيز حسين : سأوصله أنا فإني ذاهب غدا ان شاء الله إلى البداري في مأمورية .. انصرف يونس عبد الله .

- أية مأمورية يا عزيز ؟
- " استلقت أخباراً " ؟
- أية أخبار ، وكيف " تستلقتها " ؟
- من رشاد أفندي ضابط المباحث .
- هل تعرفه جيدا ؟
- أنا أعمل تابعا له ..
- حسبت أنك تابع للعمدة او للمأمور .
- هذا عمل آخر ، كل مشايخ الخفراء ووكلاؤهم يؤدون عملا لحساب المباحث التي تحاسبهم عليه .
- طيب .. ماهي آخر الأخبار ؟
- الراجل المأمور الذي كان " نص لبة " نقلوه بمجرد قفل التحقيق في حادثة الكمبيل وأحضروا مأمور غيره متفرعن " تقولشي أنه انجليزية " .. يريد أن يعيد فتح التحقيق ليقدم إلى الانجليز متهمين بأية طريقة ، الضابط مغيظ من المأمور ، قال لشيخ خفراء العقال البحري الموقوف : تصور ياشيخ " الغفر " ان الرجل الانجليزي يريد أن يعتبرها حادثة طريق ولكن المأمور الجديد " راصه وألف جزمة " أن يقبض على الفاعلين ، وعلى فكرة ، مسألة العثمانية واللجنة والسلطة والدمرداش كلها حركة المأمور القديم .
- ألم تسمع شيئا عن العرائض ؟
- وصلت أيام المأمور المنقول وأحدثت ارتباكا في المركز ، قال لي شيخ خفراء العقال البحري أن المأمور اجتمع ومعاون الادارة وضابط المباحث ، رشاد أفندي ، وقرأوها .. ثم ركنها المأمور في درج مكتبه ، لكن بعد يومين أخذها شخصيا وذهب إلى بيت الباشا في ساحل سليم وقضى هناك يوما كاملا ثم عاد .. في اليوم التالي حضر

إلى المركز مندوب الدمرداش وحده ، ولا أعرف
مالذي حدث بعد ذلك .

- لماذا لم تقل لي كل هذا في وقته يا
عزيز ؟

- والله ياشيخ عباس كل شيء بأوانه ، أنا
حالف على الكتمان ، وما كنت لأقول لك لولا أنني
كنت في المركز منذ يومين وسمعت رشاد أفندي ضابط
المباحث يقول عنك إنك " راجل متنور وجدع " .

- لمن قال هذا ؟

- لمعاون الادارة أمامي .. فأنا اطمئنت.

بلعها ممتعضا وقال :

- طيب الآن ما رأيك وأنت مطمئن ؟

- فيم ؟

- فيما نتحدث عنه ..

- رأيي لن يعجبك ..

- لا بأس قل لي ما رأيك ..

- ياشيخ عباس خسارة أن تفقدك البلد ، ولا
أريد أن أشركك في رأيي حتى لا تكون مسئولا ولكن
لك عليّ ألا تدخل اللجنة البلد حتى لو وصلت إلى
الكبري ، أنا عامل حسابي ، فأنت ثق بي ، وتوكل
على الله .

حين عاد من اسيوط وجد عزيز حسين ويونس عبد الله
منتظرين في قهوة الأسمر .. استقبلاه باحترام كبير ،
لم يسألاه عما فعل ، انتظرا أن يبدأ هو الحديث ،
فبدأه سائلا :

- هيه . هل جرى شيء في البلد يا عزيز ؟

- لا .. إنما ذهبت اللجنة إلى الرياينة (
العقال القبلي) يوم ان سافرت وأخذت معها سبعة
أشخاص من بينهم الولد العيان قبصي ولد سالم من

" أولاد مصبح " جايز يموت في الطريق لأنه عيان خالص ، وهم موجودون الآن مع رجال العثمانية في حجرة الحجز في المركز ، سيرحلونهم غدا بعد الفجر في " صندل " يرسي على شط البحر الشرقي غربي المستشفى .

- أليس غريبا يا عزيز ألا تجد اللجنة في العثمانية إلا ستة عشر شابا ولا تأخذ من الريانة إلا سبعة وكل منهما أكثر من عدد أهل بلدنا بعشرين مرة وأسماء أولاد بلدنا اثنان وستون ؟

قال عزيز حسين : شغل حكومة يا شيخ عباس .

قال : يعني ايه ؟

قال : يعني طبيخ .. اسألني أنا عن الحكومة .. أكبر ضلالية .. حسان عثمان عمدة العثمانية خائف منذ مدة من ثابت ولد نصار والشبان الملتفين حوله لأنه يريد أن يعيد سيرة عمه سند عثمان ، فاتفق مع المأمور أن يطوعهم في نظير ألا تأخذ اللجنة أحدا غيرهم من البلد ، فبدأوا منذ شهر يعملون لهم مخالفات .

قال : مخالفات .. أية مخالفات ؟

قال مخالفات لا أول لها ولا آخر ، اصطياد أبو فصادة مخالفة ، غسل بقرة في الطريق العام مخالفة ، الجري بالحمير في الدروب مخالفة ، من لا يمنع كلبه من النباح على شخص غريب مخالفة ، من يرفع صوته بالليل يكون قد عمل غاغة وهي مخالفة ، الصراخ في الجنازات مخالفة ، من ينزل التربة عريانا مخالفة ، وغيره وغيره كما علمونا أيام التدريب ، فيحرق الشويش عتريس محضر بأن فلان الفلاني ارتكب مخالفة كذا ويبلغها المركز ، المأمور يصدر أمرا بتغريم المتهم جنيها أو نصف جنيه ، يستدعونه إلى المركز .. يحبس هناك حبس مصاريف .. كل يوم مقابل عشرة قروش .

قال : ما علاقة هذا بمن أخذتهم اللجنة .

قال : عملوا لكل واحد منهم مخالفة ، وصدر أمر عليه بالغرامة ، وبلغوهم بالأوامر ، حسان عثمان قال لهم لاتدفعوا الغرامات ولا تذهبوا إلى المركز ، حين تعرفون أن المأمور سيمر ويحضر إلى الدوار تعالوا جميعا ومع كل منكم نصف مبلغ الغرامة ، وقلوا ليس لدينا أكثر من هذا . أنا سأوسط لدى المأمور فيقبل منكم " النص " فقط ، وفعلنا جمعهم في اليوم المتفق عليه مع المأمور وجمع منهم أنصاف الغرامات ، ثم حضر المأمور ومعه اللجنة ، وأخذوهم " بربطة المعلم " وكتبوا إنهم متطوعون ووقع الشيخ يونس .

قال : وماذا عن الريانة ؟

قال : طبيخ بيتي ، ضحك ثم استطرد : محمود هريدي العمدة غني .. عمل مع المأذون مقاولا ، المأذون كتب كتاب كل من تجاوز سن العشرين على إحدى البنات بدون علم الأزواج أو الزوجات ، العمدة أخذ من المأذون شهادة بأسماء غير المتزوجين ، المأذون كتب أسماء سبعة أغلبهم مرضى ليبدو الأمر جديا ، استدعاهم العمدة وحضر المأمور واللجنة في اليوم المتفق عليه وأخذهم ، والأذون أخذ الأجرة خمسة جنيهات عن كل عقد زواج قسمها مع شكري منقريوس ، وهو عارف ، والعمدة عارف ، والمأمور عارف ، حتى ضابط المباحث عارف .

سأل : ألم تعرف شيئا عن اتجاه الحملة القادمة؟

- عرفت من سائق " البوكس فورد " الخاص بالمركز أن حملتهم غدا إلى قرية " التناغة " على الشط البحري .

- عظيم .. يعني لن يذهبوا إلى الهمامية .

- الله أعلم .. وأنت ما أخبرك ؟

- أنا قابلت أبو شقة يوم أن وصلت حكيت له الحكاية .. صباح اليوم التالي أخذني وذهبنا معا إلى المديرية ، وجدناها مليئة بالانجليز والحالة متوترة ، دخلنا حجرة الباشا المدير ،

شرح له أبو شقة الموضوع فغضب ولعن أبا هذه الأيام السوداء ، استدعى شايشا استدعى به الحكمدار .. جاء الاميرالاي الحكمدار وقعد ، قال له المدير : يا زكي بك هذا الرجل من الهمامية وهي قرية صغيرة كما تعرف وسبق أن أنذر أهلها المديرية والمركز بأنهم لا يريدون التطوع في السلطة ، وعبد الكريم أبو شقة حاضر معه ليحذر من أن محاولة لجنة التطوع دخولها قد يسبب إخلالا بالأمن ، فأرجو أن تطلب مأمور المركز من هذا التلفون وتنذره بأنه إذا حدث إخلال بالأمن في الهمامية سيكون هو المسئول .

- حاضر يا فندم ..

بينما كان الحكمدار ينذر المأمور في التلفون، أرسل المدير الشاويش لإحضار شكري أفندي منقريوس وكيل الدمرداش ، قال له المدير : هل أنت ممثل الشيخ الدمرداش في اسيوط . قال : نعم . قال : عليك إذن أن تبلغه على لساني أن يمنع لجنة التطوع من الذهاب إلى قرية الهمامية مركز البداري لأسباب أمنية .. مفهوم ؟ .. مفهوم ياباشا .

خرج الرجل .. وقف الباشا .. خرجنا نحن ..

بقيت أنا في المديرية لآخر النهار لأعرف مسألة خاصة تهم الشيخ محمود عبد اللطيف ربنا يشفيه ..

قال عزيز : هل جاءت كشوف الأطيان من المختلط ؟

قال ضاحكا : لسه .. وكيف عرفت بأمرها ؟

فضحك عزيز حسين وقال : أولاد الحرام بلغوا المركز أربع مرات أن علي حامد يصطاد أبو قردان صديق الفلاح ويأخذ دهنه ويبيعه بزعم أنه دهن " بلسان " الذي تداوى به البواسير ، فقبض عليه رشاد بيه ضابط المباحث ، بموافقة المأمور المنقول ، وبعد ثلاثة أيام حجز في حجرة الحجز أقر بأسباب سفر صديق إلى مصر ، وتفاصيل الأسباب ، ولكنه أنكر علاقته بأبو قردان فوجدوا أنه مظلوم وتركوه .

فضحكوا جميعا ثم توقفوا بغتة .

وقف على رأسهم علي فلفل فراش المركز وقال
للشيخ عباس البك المأمور يريد ان يراك .

- لماذا ؟

- لا أعرف ..

- قام وقال لهما انتظراني .. دخل على
المأمور حجرته ، قال له تفضل إجلس ياشيخ عباس
ولا تنسى أننا الآن وحدنا ، كلنا مصريون ، منذ أن
جئت إلى هنا طردت الرجل الانجليزي إلى الحجرة
التي كان يشغلها باشكاتب المركز ، لم يكن مقبولا
أو معقولا أن يتصنت أجنبي على ما يدور بيننا
خاصة وأن من تقاليدنا التي ربانا عليها ديننا
الحنيف الصدق في القول أليس كذلك ؟

قال : نعم .. والاخلاص في العمل ..

ألقى أمامه أوراقا ثم سأل :

- ياشيخ عباس هل أنت محرر هذه العريضة
.. انظر فيها ؟

- نعم انا محررها حسب رغبة أصحابها ..

- هذه فكرة عظيمة تشكر عليها فلولا هذه
العريضة لكنا دخلنا الهمامية ونحن عائدون من
العثمانية .

- التوفيق من عند الله .

- أنا أسألك وأنت تجيب بصراحة ، هل
تنطوي هذه العريضة على محاولة اخفاء اسم أي شخص
تنطبق عليه شروط التطوع التي تعرفها .

- لا .. أبدا ..

- ربما يكون قد امتنع أحد الأشخاص عن
إدراج اسمه لأنه رغب في التطوع .

- لا .. أبدا .. لا أحد ..

- هذا مريح لنا كإدارة .. ونحن نشكرك عليه .. نخشى فقط أن يظهر شخص غير المكتوبة أسماءهم في العريضة لأننا حينئذ سنعتبره راغباً في التطوع .

- طبعاً .. إذا ظهر ..

- طيب .. ثم استدعى ضابط المباحث .. يارشاد أفندي خذ الشيخ عباس وقدم له قهوة في مكتبك إلى أن أفرغ أنا من كتابة المحضر ، وعد إلىّ بعد عشر دقائق لتأخذه ..

بعد عشر دقائق عاد رشاد إلى مكتبه يحمل محضراً محرراً بخط المأمور يتضمن استدعاءه المدعو عباس محمد اسماعيل من ناحية الهمامية مركز البداري وإقراره بأنه محرر عريضة برغبة مذكورين فيها من أهل الهمامية في عدم التطوع لخدمة السلطة ، وبسؤاله عن التفاصيل أقر بأن الذين لم ترد أسماؤهم في العريضة يرغبون في التطوع ، وإذا تبين لنا أن اسم المذكور غير وارد في العريضة مع أن شروط التطوع تنطبق عليه فقد اعتبرنا إقراره أمامنا رغبة منه واستعداداً للتطوع فأصدرنا الأمر بتحقيق رغبته وحجزه بمقر المركز لترحيله مع باقي المحتجزين غداً .. المأمور (إمضاء) ..

قاده رشاد أفندي إلى مدخل حجرة وتركه واقفاً مذهولاً ، جاء شرطي جسيم البدن خشن اليد ، فتح بابها الحديدي ، وزج به فيها عنوة ، التف خلفه فلمح شكري منقريوس على باب الحجرة التي كان يشغلها حسين أفندي فريد ، وقف داخل الحجرة مذهولاً ، تأمله الآخرون ، قال واحد لا يعرفه : " وقعت يا شيخ عباس " ، فلم يرد .. قال ثابت نصار : " اللي وقع يسد " ، لم يرد ، بدأ ينتبه إلى ما هو فيه ومن حوله ، حوله أكثر من عشرين انساناً جالسين على أعقابهم متلاصقين زائغي الأبصار لا راضين ولا كارهين ، إنهم فقط مستسلمون ، لا تتسع الحجرة لأكثر من خمسة أشخاص نياما ومثلهم إن كانوا قاعدين ، وليس في الحجرة من بعدهم إلا حيث وضع قدميه واقفاً ، يلتصق ظهره بقوة بظهر الباب الحديدي خشية أن يقع ،

أرضها قار وارتفاعها ستة أمتار ، تحت سقفها بنحو متر نافذة رأسية مستطيلة ، متر في نصف متر ، تعترض فتحها قضبان من الحديد ، تعربد حولها أسراب من أشباح الهوام ، الهواء ساخن عطن عفن ، تتساقط من سقفها قطرات مكثفة من بخر عرق بشري فتتحول إلى حشرات من البق صاعدة على الجدران الكالحة ، والرجال جالسون على أعقابهم متلاصقين زائغي الأبصار لا راضين ولا كارهين ، انهم فقط مستسلمون ، فليستسلم ، جلس هابطا ببطء على عقبه ، وكأنما قد سمع أصواتا تتحدث إليه ، لم يرد ، تجمعت أطراف الكاكولة والقفطان خلف ظهره وهو يزحف هابطا فأصبحت كالوسادة ، شعر ببعض الراحة من ضغط حديد الباب ، ذبل الضوء المتسرب من النافذة إيذانا بمغيب الشمس ، حين غامت بدت السماء سوداء واختفت الهوام ، أحس بتيار هادئ من الهواء البارد ينفذ إلى رجليه من فرجة ضيقة أسفل الباب ، ود لو استأثر به حتى لا يختنق ، انشغل وقتا وهو يتمايل ويجذب أطراف ملابسه المعلقة على ظهره خفية إلى مواضع خفية ، أخيرا اتخذ تيار الهواء الهادئ طريقه من بين رجليه مرتفعا داخل القفطان إلى أن خرج من فتحة تحت ذقنه ، أصبح يتنفس هواء قادم من خارج الزنزانة لا تخالطه إلا بقايا رائحة علقت به وهو قادم من " الاسطبل " حيث خيول الحكومة تخوض في روثها ، أفضل بكثير من رائحة هؤلاء الآدميين ، أفاق تماما وبدأ عقله في استئناف التفكير .

أراد أن يستجدي الحديث فحالت الظلمة المطبقة دون أن يعرف إلى من يتحدث فأطبق شفثيه واستسلم للنعاس ، أيقظه صوت ضربة مفتاح حديدي في قفل الباب ، فتح عينيه فرأى السماء باهتة ، لم يستطع أن يتأمل لونها الغريب ، حال دون تأمله دفع قوي للباب من خلفه وصوت غاضب يأمر " أولاد الكلب " الذين يعترضون فتح الباب إلى الداخل ، أذهله ان يكون من المقصودين ، فلم يستجب ولم يجب ، فما زال الباب مدفوعا بقوة حتى دفعه بقوة فانكفا على الجالس أمامه ، جرفه الباب فأصبح خلفه ، لعن الشاويش آباء الجميع ثم نادى : عباس محمد اسماعيل .. قام فيرز فظهر فجره من كم الكاكولة وقال :

تعال .. طرف العمامة محشور بين الباب والحائط ،
لم تستجب لحركته فانفطرت فجذبها وحملها في يده
خارجا بطربوش بغير عمامة كأنه مغربي ، لا راضيا ولا
كارها بل مستسلما .. أدخل حجرة فيها رشاد بيه
ضابط المباحث وآخران .. قدم إليه الضابط ورقة
مكتوبة وقال له وقع .. وقع .. لا عالما ولا جاهلا ما
فيها بل مستسلما .. نظر إلى الآخرين فإذا هما عزيز
حسين ويونس عبد الله .. يونس عبد الله ينتحب فسالت من
عينيه الدموع .. قال الضابط متجهما : خذ يا عزيز
.. فقال عزيز .. تفضل يا شيخ عباس .. قال إلى أين
يا عزيز .. قال إلى البلد .. قال : ويونس عبد الله
.. فنهرهما رشاد أفندي وأمرهما بالخروج فورا
فخرجتا ..

(٤)

سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق .. إلى أين
أنت ذاهب .. تعال من هنا .. الحماران بي بيت علي
دلوكه وراء بيت خليل بولس .. أودعناهما ، أنا
ويونس ، هناك بعد " فك القلس " وعودتي من البلد
..

- وهل ذهبت إلى البلد ؟

- سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق ،
المهم الآن أن نأخذ الحمارين ونعود سريعا ، لف
الشملة على الطربوش حتى لا يراك أحد " مبهدلا "
هكذا .

- نحن الآن على الطريق .

لا تسألني عن شيء قبل أن تجيب عن سؤال ..
لماذا لم تكتب اسمك في العريضة .. لم يجدوا اسمك
بين المعترضين فاعتبروك راغبا في التطوع فأخذوك ،
فلماذا لم تكتب اسمك .

- أنا سطرت الأوراق وكتبت نص العريضة
وأسماء العائلات وسلمتها إلى أحمد عبد اللطيف ..
لم أكتب أنا أسماء ، كتبت بمعرفة من كلفه
العمدة بكتابتها ولا أعرف لماذا لم يكتب اسمي ..

ربما سهوا من العمدة أو لم يكن يتصور أن يحدث لي ما حدث .

- ولماذا قلت للمأمور ان العريضة بخطك .
- لأنها فعلا بخطي ولم أشأ أن أرشد عمن كتب الأسماء حتى لا أزج باسم العمدة في الموضوع .
- على أي حال الحمد لله ..
- أعلى أن اسمي لم يرد بين المعترضين يا عزيز .
- لا .. الحمد لله على أنك برىء . لقد قضيت ليلة سوداء وأنا أغلي غيظا منك لأنني حسبت أنك لم تكتب اسمك مع باقي الانفار معتقدا أنك أحسن منهم فلا يسري عليك ما يسري على الآخرين .. كنت حزينا من أجلك ولكني كنت شامت فيك ..
- ولماذا تحسبني من هذا النوع المستعلي على أهله .
- لأن حكايتك كلها من أولها إلى آخرها توحى بانك منهم .
- أية حكاية ياعزيز ؟
- حكاية العرائض .. أنت الذي اقترحتها . وأنت الذي سطرته .. وأنت الذي قدمتها .. فرحت بنفسك فأبرزتها ليعرف الناس أنك أنت من الناس صاحب الخطة وقائد تنفيذها .. فلم يبذل الطرف الآخر جهداً لمعرفة من وراء فكرة العرائض ومحررها وحاملها ومرسلها .. فركزوا اهتمامهم على التخلص منك ..
- وما الذي يهمهم في التخلص مني شخصيا ما داموا قد صادقوا على رغبة الناس .
- لأنهم ، ياشيخ عباس ، يريدون أن يقضوا على الفكرة حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على تبنيها والا لكتبت كل القرى عرائض .

- سنتحدث معا مرة أخرى " على رواقه " اريد الآن ان اعرف ما حدث .

- سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق فما زال الطريق ممتدا . أما ونحن نتحدث عنك فهناك سؤال تتداوله البلد كلها وقد احترت في معرفة جواب عليه . هل تسمح لي بأن أسأله وسأكنم الجواب إذا أردت .

- قل يا عزيز .

- ياشيخ عباس منذ حضورك من مصر وأنت مشغول بهموم البلد كما لو كنت المسئول عن أهلها .

ولقد أحبك الناس واحترموك واستمعوا اليك واطاعوك من أجل اهتمامك بهمومهم .. غير أنهم يتساءلون .. أليست الجزيرة من هموم البلد بل همها الأكبر فلماذا لم تشغل نفسك ولو بالحديث عنها .

- أية جزيرة ؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله . ألا تعرف الجزيرة .. جزيرة الهمامية .. " جزيرة بيت الباشا " ..

ألا تعرف حكاية البلد مع الجزيرة وكيف حرمت منها بعد أن كانت جزيرتها فافتقرت بعد غنى وجماعت بعد شبع .. رحم الله والدك .. ما ان تعين شيخ مشايخ حتى أراد أن يسترد الجزيرة لأهل البلد ، فباع أغلب ما يملك واشتراها ، " بحجة " مكتوبة من وكيل لطيف باشا الذي كان يديرها .. وقد كان لطيف باشا قد تلقاها مكافأة على اشتراك قوات جرجا في الغارة على بلدنا بعد ان طرد أهل بلدنا منها .. و .. ياشيخ عباس هل نمت ؟

- لا .. سمعتك تتحدث عن شراء والدي الجزيرة " بحجة " مكتوبة .

- طبعا .. لا بد أنها موجودة بين أوراقه لدى والدتك .

- سنتحدث معا مرة أخرى " على رواقه " عن هذا الذي قلته " أريد الآن أن أعرف ما حدث ، لماذا لم يتركوا يونس عبد الله يعود معنا .. اني اركب حمارة فكيف يعود حين يخرج .

- يونس عبد الله لن يعود إلى البلد يا شيخ عباس .

- لماذا يا عزيز .. قل لي لماذا ؟

- أقول لك من البداية لأن يونس عبدالله هو النهاية .. كنت انا وهو في قهوة الأسمر حين تركتنا وذهبت إلى المركز انتظرنا حوالي ساعتين وبدأنا نقلق .. ثم شاهدت المأمور ومعاون البوليس وشكري منقريوس يخرجون ويركبون " البوكس فورد " ويتجهون الى " بحري " ، أما إلى ساحل سليم وأما إلى أسيوط .. فتشجعت بمعرفتي أن ليس باقيا في المركز الا رشاد بك ضابط المباحث ، ذهبت اليه ودخلت مكتبه فوجدته مغموما .. بدأت الحديث بأن سألته عن صحته .

ثم قلت له إنني رأيت البوكس متجها الى " التناغة " بدون قوة مع المأمور ومعاون البوليس .

والتناغة بلد شرسة .. ابتمس وهو يتأملني ثم قال لا مبرر للمكر يا عزيز حملة التناغة تأجلت .. والمأمور ومعاون البوليس ذاهبان لحضور اجتماع في المديرية . وشكري منقريوس معهما " توصيلة " الى ساحل سليم . وانت تعرف كل هذا ولكن تريد أن تبدو ماكرا . والذي لا تعرفه ان المأمور ومعاون البوليس سيقضيان الليل في اسيوط .. وانني منذ ان غادرا " النوباتشي " المسئول عن المركز . ومسئول ايضا يا وكيل شيخ الخفراء ، عن ترحيل الانفار المحجوزين وتوصيلهم على مسئوليتي الى الصندل الذي سيرسو غربي المستشفى الساعة السابعة صباحا وهم خمسة وعشرون نفرا من بينهم ، يا وكيل شيخ الخفراء " بلديك " عباس محمد اسماعيل ، أم أنك لتعرف هذا ؟

- أخذتموه ؟

- أخذه المأمور .

- لماذا ؟
- لأنه تطوع كما يقول المحضر (وقرأ لي المحضر) .
- هذا غير معقول " ياسعادة البيه " .
- إجلس حتى لا تقع .
- ولماذا يفعل المأمور هذا الشيء غير المعقول ؟
- سياسة .
- سياسة " ايه " يا بك . الرجل لا يعمل بالسياسة . وليس في بلدنا سياسة . حتى الجرائد التي كانت تأتي إليه في " البوسطة " انقطعت .
- سياسة المأمور الجديد يا عزيز .
- لا أفهم .
- كنت أظنك نبيها .
- نبهني يا بك ..
- البك المأمور .. هذا المأمور .. له رأي مخالف لرأي من سبقه ، انه مثله يكره الانجليز ويكره الدمرداش ويكره السلطة ولكنه يرى أن المقاومة لا تجدي لأنهم الأقوى .. وأن الطريقة الأفضل للتعامل معهم هي تنفيذ رغباتهم ، تنفيذها بمعرفتنا .. لاقناعهم بألا حاجة الى تدخلهم المباشر .. وأن هذه الطريقة ستؤدي الى مغادرة الانجليز المركز ، وتوقف شكري منقريوس عن التردد عليه .. " وحشر انفه في شئونه .. وإذا كان لا بد من التضحيات لكسب ثقتهم فلتكن في أضيق الحدود أو فيما يعتبرونه ذا أهمية خاصة بالنسبة اليهم .
- وماذا نكسب يا رشاد بك اذا كنا سننفذ ما يريدون بدون أن " يتعبوا أنفسهم " ..
- الحقيقة اننا كسبنا .. داهموا " الرياينة " في حملتهم الأولى وقتلوا واحدا من

بلدكم واستولوا على الغلال والحمير في عهد
المأمور القديم ، أما في عهد المأمور الحالي ،
فبالاتفاق مع العمدة ذهبت الحملة بقيادة المأمور
شخصيا وعادت بسبعة انفار بدلا من مائة وثلاثة
وخمسين ، وبالاتفاق بين المأمور وعمدة العثمانية
عادت بستة عشر من الاشقياء بدلا من مائتين وعشرة .

- لماذا اذن اخذ الشيخ عباس ؟

- كان لابد من أن يفعل شيئا يرضي السلطة
والادارة ويؤكد ثقتهم به .. وكان المأمور القديم
قد اكتشف خطأ الشيخ عباس في انه لم اسمه في
العريضة مع انه اورد اسم اخيه الصغير .. فوضع
امام اسم هذا الأخير علامة استفهام صغيرة . ثم
ركن العريضة " وصهين " لفتت علامة الاستفهام تلك
انتباه المأمور الجديد ولم يكن صعبا عليه ان
يتبين انها " تساؤل " بالرمز عن سبب عدم ذكر
الشيخ عباس اسمه مع أخيه . فلما تلقى طلبا
جديدا متكررا بعمل شيء للحد من نشاط هذا الرجل
قدمه عربونا وقبض الثمن ثقة شجعتة على اقتراح
التوصية بمغادرة من تبقى من الجند الانجليز في
المركز " اكتفاء " به . وقد انتظر حتى حضر
الشيخ عباس الى المركز بقدميه .. فاستدعاه وبعد
حجزه غادر المركز هو ومعاون البوليس لحضور "
لجنة "رجال البوليس ليقدم من حجز الشيخ عباس
دعما لاقتراحه إصدار التوصية .. هل فهمت الآن .

- فهمت .. هذا " لعب " كبير .. والآن ما
العمل هل نترك الرجل يضيع هل يرضيك هذا يارشاد
بيه .

- لا تضيع وقتا .. شكري منقريوس في ساحل
سليم اذهب اليه وتفاهم معه كما يفعل الآخرون .

وعد بورقة منه تفيد الاستغناء عن عباس ،
وستجدني في أي وقت هنا حتى الصباح .

هكذا قال لي رشاد بك .. لم اذهب الى الساحل
بل جريت بالركوبة الى الهمامية .. هناك قابلت
مرسي وقصصت عليه ما حدث .. فأخذ يبكي وكاد يصرخ

كما تصرخ الحريم فطلبت منه أن يكتم الخبر .. ولكن اسماعيل " طب علينا " فعرف بالأمر . وقال أنا كنت عارفا أن هذه نهايتنا . لا وقت نضيعه يا مرسى .. لا أملك أنا شيئا ولا بد من خمسين جنيها تدفعها الى شكري ونسترد أخاك .

دخل الدار وطالت غيبته .. ذهب اليه اسماعيل ثم عاد .. لماذا التأخير يا اسماعيل .. " الفلوس " مع أمي وهي تبكي في صمت ولكنها تسأل كيف لا تخسر فلوسها بعد ان خسرت ولدها . وما الذي يضمن أنك من الصادقين . ومرسى يحاول اقناعها فلم تقتنع الا بعد أن حلف لها .. " بالطلاق ثلاثة " من صفة بنت أحمد علي بأنه إذا لم يعد عباس في خلال يومين سيرد لها الخمسين جنيها .

فبكت صفة وأمي مشغولة الآن بتأنيبها لتغادر غرفتها حتى لا ترى من أين تخرج الفوس ، ومرسى يستعجلها . وهذا هو سبب التأخير .. قبل أن ينهي اسماعيل كلامه حضر مرسى ومعه الفلوس .

ورفض أن يعطيها لي وقال انه سيذهب معي الى ساحل سليم .. حاولت ان افهمه ان هذا سيفضح الأمر فلم يقتنع حتى بعد أن حلفت له يمينا كبيرا .. فذهبت الى بيتي جريا واحضرت له بندقية واعطيتهما له رهنا الى حين أن أعود بك أو بالفلوس .

- بندقية الحكومة ياعزيز ، جزاء هذا السجن .

- لا .. بندقية رمنجتون . " خلينا في موضوعنا " .. عدت جريا بالركوبة الى البداري .. فوجدت يونس نائما تحت شجر السنط عند قلس علي دلوكة .. سألني بلهفة عما فعلت فقلت له أحضرت الفلوس ، وسأسوق طوالي الى الساحل .. وصلت ساحل سليم بعد المغرب بقليل . توجهت إلى سراي عبد الرحمن بك محمود وسألت عما اذا كان شكري أفندي منقريوس في السراي .. قيل لي لا .

سيتعشى اليوم في سراي خليل بك .. ذهبت الى سراي خليل بك وسألت فليل لي أنه قد أخذ " كمبيل "

البك وسافر إلى أسيوط .. ضاقت بي الدنيا ولم أعرف ماذا أفعل فعدت الى البداري ليلا .. قعدت أنا ويونس عبد الله في قهوة الأسمر .. لا نتكلم .. أنا يائس في صمت وهو يبكي في صمت .. اخيرا توقف ونظر اليّ وقال : اسمع ياعزيز انا اثق في رجولتك ، ولكن لا بد أن تعرف ان البلد لن تصدق ما قلت . سيتهمونك يا عزيز بأنك سلمت الشيخ عباس الى المباحث ، فانفجرت في صدري بركان من الغضب والتحدي والخوف ، قلت له انتظرنى حتى اعود ولو في الصبح .

دخلت المركز .. اقتحمت حجرة رشاد بيه . قال لي : ما بك . كيف تدخل هكذا بدون استئذان ..

جلست بدون استئذان . وقلت له : اسمع يارشاد بك .. كل البلد تعرف انني تبعك .. وانت لا تنسى كيف ضحيت من اجل تنفيذ تعليماتك . والآن انا مهدد بالقتل وأطلب منك حمايتي .. قال :

لاتخف سأحميك . قلت له احلف .. قال : والله سأفعل كل ما استطيع لأحميك .. قل لي من الذي يهددك .. قلت له : البلد . كل البلد ... وعائلاتها .. ورويت له رواية ذهابي الى البلد واخرجت له الفلوس وقلت له لقد جمعت البلد هذه الفلوس واعطتها لي واقسم رؤساء العائلات بأني إذا لم اعد بالشيخ عباس فسيقتلونني جزاء أنني سلمته الى سعادتك . لانهم يعتقدون جزما بأني سلمته الى المباحث ، وقد ذهبت الى الساحل ووجدت ان شكري منقريوس سافر الى اسيوط .. والآن أنا أمامك والفلوس امامك ، والطبنجة في جيبك وفي جيبى سكين ، فاما تخرج لي الشيخ عباس أو تقتلني أو اقتل نفسي لأنني مقتول مقتول على أي حال. قال اهدأ ودعني أفكر في هدوء ..

ثم رفع رأسه وقال لي : اطمئن .. اترك لي وقتا كافيا لتدبير الامور .. قلت له هل ستؤخر الترحيلة .. قال إن شاء الله لا .. قلت له هل استطيع ان ارى الشيخ عباس .. قال : لا .. اذهب الى دوار النواصر ونم فأنت متعب ، وسأستدعيك في الوقت المناسب .. قلت له .. لن ابعد عن المركز سأذهب الى بيت علي دلوكة أنام بل سأنتظر .. وقمت فقام وصافحني .. فقبلت يده وقلت له انقذني ربنا يحفظك من كل سوء .

ذهبت الى بيت علي دلوكة فوجدت يونس عبد الله منتظرا مع الحمير .. قال بلهفة : خير إن شاء الله . قلت خير .. قال ماذا حدث .. قلت : اطمئن اترك لي وقتا كافيا لتدبير الأمور .. بعد ساعتين جاء عسكري وطلب مني الذهاب الى المركز لمقابلة الضابط النوباتشي . ذهبت اجري .. وطرقت الباب المفتوح استأذن في الدخول فأذن لي وقال لي اسمع ياعزيز .. بعد التفكير في الأمر ، واخذ رأى بعض الزملاء بالتليفون لا يوجد الآن الا حل واحد . قلت ماهو ؟ أن يتقدم شخص من بلدكم ليتطوع بدلا من الشيخ عباس .. فكاد يغمى عليّ .. وقلت : انا .. حتى لو كان التطوع موتا فالموت ولا العار .. قال : لا تتسرع أمامك ساعة لتفكر وتقرر وحدك بعيدا عنها فاذا قررت أن تكون بدير احضر إليّ مع آذان الفجر .. اذا لم تحضر فسأفهم وتتم اجراءات الترحيل .

لم أذهب مباشرة الى بيت علي دلوكة . أخذت ألف وأدور في الشوارع والدروب .. وصلت الى غربي المستشفى وجلست على شاطئ الماء تحت المنطحات ، وتذكرت فكري عبد النبي حين قابلته في المكان ذاته .. كان مستعدا للموت انتقاما لمقتل صديقه .. وعدت الى المركز وقد قررت أن أفديك بروحي . بادرنى رشاد بيه بأنه كان يبحث عني .. قلت خير .. قال زميلي في مباحث اسيوط اتصل بي فذكرت له أنك البديل فقال لي انك لا تصلح الا بعد فصلك من خدمة الحكومة ولا أعرف كيف فاتتني هذه البدهية ، إني آسف .. فتركته بدون أن أرد .. ولم يستوقفني وذهبت اجر قدمي يائسا ، متهالكا الى يونس عبد الله وجدته لا يزال منتظرا يقظا . وحكيت له الحكاية . " من طقطع لسلام عليكم " .. ففوجئت به يعانقني ويقفز واقفا ويجرني من يدي .. ما هذا يا يونس .. قال وهو في فرح " زي مايكون لقي لقيه " . أنا البديل . أنا فداء الشيخ عباس . هذه إرادة الله .

والحمد لله .. وعدنا معا الى المركز فقدمته الى رشاد بيه وكتب على المحضر المقدم انه طبقا للتعليمات يعفى من التطوع نهائيا من يقدم بديلا عنه . وقد تقدم في تاريخه وساعته المدعو يونس عبد الله رزوق من الهمامية مركز البداري متطوعا بدلا من

المدعو عباس محمد اسماعيل فقررنا بحجز الأول الى
أن يتم الترحيل ويخلى سبيل الثاني .. وقد كنت أنت
حاضرا النهاية .. ووقعت على المحضر بعد أن كان
يونس قد بصم قبل استدعائك ..

وهكذا ..

منذ ان شاع أن يونس عبد الله قد عاد من " السلطة
" قبل أن يعود غيره وهو جالس في مقعد داره يحكي
ويعيد لا ينقص ولا يزيد لمن يحيط به من رجال وشباب
وصبية ، بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن
يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم
يكن أحد ليعرف قبل ان يحكي يونس عبد الله .

هذا هو أصل الحكاية وفصلها ..

الفصل الثالث

الجزيرة

قال الراوي

(١)

يشغل الحديث عن الجزيرة ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية ، يكفي من يريد أن يقطع الصمت الرهيب الذي كثيرا ما يرين على الجالسين على المصاطب أن يسأل شيئا منهم عن ماضي الجزيرة أو حاضرها أو مستقبلها ، حتى يستيقظ النيام وينتبه الخافلون ، ويشارك القعود والقيام في تلاوة مذكرات القرية والجزيرة منذ قديم الزمان .. تختلط الأصوات وتختلف الروايات تبعا للانتماء القبلي الى العائلات أو تبعا للمصالح والغايات .. فلقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الأثيرة لا تزاحمها حتى سيرة بني هلال .

الأصل في أمر الجزيرة ان مجرى النيل يقع فيما بين جسريه الشرقي والغربي ، وهو منخفض ضيق نسبيا تجري فيه المياه هادئة رائقة أيام التحاريق ، هادرة عكرة أيام الفيضان ، وتحول في الحالين دون أن يترسب فيه طمي أو طين .. انه مفروش بغطاء غير سميك من الحصى مختلف الألوان .. بالمجرى تتحدد " زمامات " القرى والمدن من الأرض الخصيبة ، ماكان غربيه فلأهل الغرب . وما كان شرقيه فلأهل الشرق .. مع ذلك فإن النيل متصل الاستقرار في مجراه لا يدع مجراه متصل الاستقرار .. فمن عام الى عام ، أو كل بضعة أعوام ، أو ما لا يحصى من الأيام يغير النيل مجراه منحرفا الى الشرق أو منحرفا الى الغرب ، فيما بين جسريه ، وهو متجه دائما الى الشمال .

حين يفيض النيل وفاء كل عام يفىء على أرض مصر بما يحمله ، من منابعه وعلى امتداد مجراه ، بآلاف الملايين من أمتار الطمي المكعبة ، لا يعود بها أبداً من الشمال لانه ابدا لا يعود الى الجنوب . يحملها بقوة اندفاع مائه المتدفق فلا يترسب منها

على الأرض ، ويبقى ، الا حيث تسكن حركته أو تهدأ قوته .. وهي تسكن حيث تتوزع بإحكام مصنوع على الحياض وتغلق دونها ابواب السحاحير فلا تلبث أن تضع حملها من الطمي في الحياض قبل أن يؤذن لها بأن تعود الى النيل في أواخر موسم الفيضان في توقيت موضوع .. ولما كان الماء العكر قد توزع وانتشر على حياض الوادي كلها قبل ان يسكن فهو ضحل في كل حوض ، فما يضع إلا ما حمله من الطمي وهو جد قليل ، غلالة رقيقة من طين خصب ، اما بقية آلاف الملايين التي يحملها ماء النهر الدافق فلها مصير آخر . أقل القليل منها يبقى النيل المجهد من طول السفر ورعاء الطريق قادرا على حمله الى أن يلقي بذاته وبما حمل في احضان البحر .. أما اكثر الكثير فيترسب بهدوء التيار في مواقع تحدها معوقات طبيعية ومعوقات صناعية . تصد تلك المعوقات قوة اندفاع الماء الحامل اذ تعترضه فإن غلبته اضعفته فيما يليها فحملته على أن يضع فوقها قدرا مما حمل . عرف الفلاحون منذ ان كانوا فلاحين تلك الظاهرة فتعلموا كيف يحصلون من طمي النيل وهو في فيضانه على رواسب طمي قبل أوانه ، يختارون مواقع ناتئة من الشاطئ ويبنون فيها " اكتافا " من الحجارة فإذا ما فاض النيل وادركها تياره صدت تياره فانحرف عنها شرقا أو غربا . تاركا جنوبها رواسب من الطمي لا تلبث بعد سنين أن تتراكم حتى تطمر الاكتاف أو تكاد .

كلما واينما ترسب في القاع طمي فقد ارتفع القاع .. والارتفاع عائق للتيار بقدر ما يرتفع .. فيترسب عليه الطمي عاما بعد عام بعد اعوام الى ان ينحسر الفيضان ذات عام عن قمة سافرة فوق الماء تبشر الفلاحين بان قد " طرح النهر جزيرة " ولن تنصرم أعوام كثيرة حتى تصبح " الجزيرة " مساحة فسيحة من الأرض بالغة الخصوبة ، ينتقل إليها الناس فيما بين مواسم الفيضان يزرعونها .

ما يقرب من ربع الأرض الزراعية المتاحة لجهد الصعايدة جزر متتابعة وقد تكون متجاورة في سلسلة ممتدة من جزيرة الروضة الى جزيرة الذهب ثم جنوبا حتى اسوان .. يتلوى فيما بينها مجرى النيل تاركا

بينها فواصل من ماء أيام التحاريق .. انها " الأخوار " المجاري القديمة للنيل المصدر الأساسي في الصعيد للأسماك ما دامت محتفظة بماء النهر الذي هجرها .. أما الجزر فهي المجال الأول لزراعة البرسيم اكسير حياة الماشية ، والقمح عنوان الرخاء ، ثم خضروات وفاكهة من البطيخ والشمام والخيار ، تساوي ، عند فلاحي الصعيد ، النقود ذاتها ، لأنهم لا يخزنونها في الحواصل أو في الصوامع ولا يأكلونها غذاء بل يبيعونها " لأهل البندر " في أسواقهم نقدا . ولا يخلو الأمر من افتتاحية عذاب .. اذ حين تنحسر مياه الفيضان عن " جزيرة " لا تتركها خالية من كل نبات بل عن نبات مائي في تجمعات متشابكة كثيفة الجذور قصيرة السوق طويلة الأوراق الشائكة .. انه نبات " الحلفا " أو " سوت " رمز الوجه القبلي قبل توحيد الوجهين . ويكون على الفلاحين أن يخوضوا في الطين قبل ان يجف ليجتثوها من أعماق جذورها الغائرة في الطين .. اما اقتلاعها شدا من سوقها القصيرة أو أوراقها الطويلة فيدمي الايدي ويخدش الاذرع والصدور ..

ومع ذلك فإن الفلاحين ذي الخبرة ، مرها وحلوها، يراقبون انحسار الفيضان دائبين يستطلعون اطراف ذلك النبات الشائك كعلامات مأمولة عسى أن يكون النيل قد ترك لهم رزقا مباركا ، كما يستطلع المسلمون ظهور هلال شهر رمضان المبارك ، فإن ظهرت فهي بشرى للفقراء في الأرض برزق وفير ..

ولا يشغل الفلاحون أنفسهم بما يعرفونه من أن النيل الذي يغير اتجاه مجراه خفية إبان الفيضان ويرسي قواعد الجزر التي لم تلبث أعواما ثم تبين يظهر في الوقت ذاته مجراه الجديد مما يعترضه من أطراف ارض لاتقاوم هشاشتها تياره " فينحرها " يجرفها خفية ، فإذا ما انحسر الفيضان اختفت كأنها لم تكن قط .. ذلك هو " نحر النهر " ، المقابل السلبي " لطرحة النهر " ، ولما كان وادي النيل كله يمد النهر عاما بعد عام بما يطرحه على أرض مصر القديمة من أرض جديدة ، وكان ما ينحره النهر من موقع يطرحه فيما يطرح في مواقع أخرى فإن " نحر النهر " ليس هلاكا للأرض الخصبة بل هو تغيير

لمواقعها بعد الاضافة اليها ، ويبقى النهر مصدر خير كامل غير منقوص ، متصل غير مقطوع ، بما يطرح وبما ينحر .

لمن طرح النهر ؟

ابتدع المشرعون ما ظنوه جوابا فصاغوه نظاما في قوانين مصر .. فقد أضافوا نظاما إلى أسباب " الملكية " ملكية الأرض الزراعية في مصر ، سببا اسموه " الالتصاق " مؤداه أن ما يطرحه النهر من ارض على جانبي مجراه يصبح " ملكا " لأصحاب الأرض التي وقع عليها فالتصق بها ، وأن ما ينحره النهر من أرض يلقيه ، افتراضا ، على أرض القرية التي تليها شمالا ، فيعوض الطرح " ملك " النحر .

يبدو حلا منطقيا ، ولكنه مثل كل الأفكار المجردة القائمة على فروض غير واقعية ، ولو كانت منطقية ، فشل في حل مشكلات واقع حياة الفلاحين في مصر .. أول اسباب الفشل ان احدا في مصر ، منذ ان جرى النيل في مصر ، لم يكن يدرك معنى " ملكية الأرض " الزراعية ، ولم يعرفها نظاما حتى منتصف القرن الماضي .. نعني بالملكية الحق العيني الخاص على التربة ذاتها بمكوناتها المعدنية والكيماوية ، بما يتضمنه من سلطة التصرف (الرهن والبيع والهبة والايجار والاتلاف والترك) ، كان الحق الممكن والمفهوم في الأرض الزراعية مقصورا على " الانتفاع " بما يتضمنه من زراعة أو مزارعة حتى عهد سعيد باشا والي مصر الذي اباح لنفسه ان يوزع ارض مصر على الأمراء والأميرات والجواري والباشوات والبكوات " ابعديات " مملوكة ملكية عينية ، أما الفلاحون فلم يفهموا ابدا كيف إذ يفيض النيل حاملا الطمي من منابع لا يعرفها احد ، ويضيف اليه ما ينحر من مواقع لا يعرفها احد ، ويضع حمله في مواضع لا يعرفها احد ، يأتي احد فيزعم ان الطمي قد التصق بالأرض فأصبح ملكا لأصحاب الأرض التي وقع عليها فالتصق بها ، يبيعونه ويرهنونه ويهبونه ويؤجرونه ، أو يتلفونه ويتركونه لا يزرعون وهم لا يعرفون حتى من اين جاء فوقه . ثم يسخر الفلاحون فيقولون من ذا الذي سيجري على شاطئ النيل متتبعا ما نحر من

ارضه فذاب في الماء ليرى اين يطرحه النهر ليملكه
تعويضا . ثم من ذا الذي ينتمي الى قرية قبلية
سيهجر قبيلته الى قرية قبلية أخرى سعيا وراء
قراريط معدودة قيل انها تعويض عن طرح النهر عما
نحر النهر من قراريطه المعدودة إن غامر فهاجر
فسيقول له أهل القرية الشمالية إن ما طرحه النهر
على أرضنا قد التصق بها فهو ملك لنا " حسب
القانون " ..

لم ينفذ القانون اذ فشل ..

أيا ما كان رأي واضعي القوانين ، وايا ما كان
الراوي في ملكية الأرض وعلاقتها بالنظم الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية فهو يروي مذكرات القرية ..
ولقد كان لأهل القرية رأي في طرح النهر (الجزيرة)
ورؤية لعلاقتهم به أو بها ، صاغه مثلا الحاج سيد
عبد النبي الذي تجاوز المائة عمرا فشاع إذ يأخذون
الحكمة في القرية من أفواه الشيوخ .. قال رحمه الله:
" اللي يحط الطين في الميه يبقى هو صاحبه ، واللي
يحط الطين على ارضه يبقى هو رزقه " .. أما رؤية
أهل القرية لعلاقتهم بطرح النهر و " الجزيرة "
فعقيدة موجزة التعبير في غير حاجة الى تبرير مثل
كل العقائد .

أنها رزقهم ، كذلك أراد الله مالك الأرض ومقسم
الأرزاق أن يستولد الماء طينا من أجلهم ، فالحمد
لله .

(٢)

ولقد كانت للهامية منذ ان كانت كفرين
متجاورين " النظرة " والشيخ جابر " تابعين لبلدة
قاو الكبيرة (العثمانية) ، جزيرة من طرح النهر
أو أكثر من جزيرة لسبب طبيعي ، ففي تاريخ غير
معروف غير النيل اتجاه مجراه وانحرف شرقا بعيدا
عن ارض مديرية جرجا فاصطدم تياره بجسر النيل
الشرقي الذي يحرسه الرجال سخرة أو تطوعا وتسانده
من خلفه كتلة مسطحة من الأرض الصلبة تستمد صلابتها
من اتكائها على سفح الجبل الشرقي ذاته .. انها
وجسر النيل مستعصيان على النحر . فارتد عنهما

النهر واتجه مجراه " غربا - شمالا " . وأفرغ كثيرا مما يحمل من الطمي قبل أن يرتد ، وهو مرتد وما زال يصطدم فيرتد فيطرح عاما بعد عام حتى بانث في تاريخ غير معروف ، ثم نمت ثم اتسعت جزيرة اسميت " قبالة الدير " اذ كانت مقابلة في النهر " للمغارات " التي كان يسكنها رهبان النصارى في الجبل الشرقي .. ثم اسميت " جزيرة نزلة همام " قبل أن تسمى القرية الهمامية إذ هي موازية ومحاذية لتلك القرية وواقعة في زمامها . خرج اليها أهل " النظرة " وأهل " الشيخ جابر " مع أهل " قاو " التي أصبحت لكثرة أهلها واتساع أرض الجزيرة بالاضافة إلى أرض حياضها عاصمة اقليم " رأس خط " كما جاء في الخطط التوفيقية ، قبل الغارة .

ويبدو مما تتداوله الاجيال من مذكرات القرية وذكرياتها ان أهلها قد عاشوا حقبة طويلة من الزمان في رخاء عميم مصدره الجزيرة ، فما يزال المعاصرون ينقلون عن المعاصرين مكونات الرخاء وعلاماته . كانت " بوابات " البيوت الكبيرة ذات المطاحن الخاصة من حجر يكفي ارتفاعها واتساعها دخول الجمل بما حمل مباريات التحطيب بعصى الشوم بين الأفراد كانت تقوم بعصى طويلة من الخيزران بين فرسان على ظهور الخيل المطهمة .. شباب يمتطون الجمال " الهجن " في مواسم الفيضان ، حيث لا عمل يزورون قبائل عربية يزعمون أن بينهم وبينها قرابة عرقية في الفيوم وفي الشرقية ، ويستقبلون شبابا منها زائرين " الشيخ جابر " في العام التالي .

ثم الغلال والماشية والانعام و " الذهب المشغول " خلاخيل وأساور واقراطا واخزمة من حلقات في أطراف أنوف الصبايا من الذهب الخالص . منها رمزها الذي انقرض . حلية تسميها الذكريات " لبة " وتنسبها الى أكثر النساء المحصنات من العائلات .. يصفها الرواة بإنها شبكة عريضة من الجنيهات الذهبية ، " البننتو " المتلاصقة تعلقها المرأة في رقبتها فتغطي صدرها من نحرها الى سرتها ، تصدر " شخشة " مسموعة كالوشوشة حتى لو سارت حاملتها مدثرة بشقتها .

أیما ما كان من مبالغة ذكريات القرية الفقيرة أو من دقتها فإن ظهور الذهب في مذكراتهم المروية يوحي بأن قد فاض الثراء عن احتياجاتهم فادخروه زينة في " الذهب المشغول " ففي سنين الرخاء الخوالي ، والبيوت الكبيرة ، والتفاخر القبلي ، والجزيرة ، كانت مهور الزواج مباريات بين الصبايا والشباب فيما يقدم اليهن منهم من ذهب مشغول ، ولم تكن أية عروس أو أي عريس في حاجة الى بيع المهر لشراء بقرة ، كانت الماشية كثيرة وفائضة العدد واللبن والجبن والدهان ظهور فيض ، " الدهان " في مذكرات القرية ينبيء عن صدق ما تضمنته ذكريات القرية من رخاء تلك الأيام ، اذ الدهان هو الخلاصة القليلة للبن كثير .. ومع ذلك فما يزالون في القرية يعتبرون أن شرب الرجل دهانا افطارا من مفاخر الرجال وغذاء للرجولة .. انهم لا يشربونه اذ هو قليل ولكنهم يتفاخرون بأن آباءهم وجدودهم كانوا يشربونه اذ هو كثير ، ويصلون بينه وبين مواقف الرجولة في معارك الغارة .. يحفظون رثاء أخ أخاه ممن اعدموا فريا على الخوازيق يقولون انه قال :

ياخسارة كان لي خي ولد ابويا شقيق ..

يتغدا بخروف ويفطر دهان ع الريق

قعد اربعين يوم سادد لوحده طريق ..

لحد ما تكسر السيف وخلصت المزاريق

فاضل عدو الله جاب ألف رجالة ..

كتروع الجدع حطوه على الخوازيق

تحرم على النسا لحد ما آخذ تاره ..

واشرب من دم فاضل باشا بريق

ويذكرون ما يتذكرونه نقلا عن ذاكرية من أن قد كان الذهب المشغول الخاص بنساء كل عائلة يحفظ عند " كبيرة العائلة " زوجة كبيرها ، في حرز واحد من جلد رقبة الجمل وبطولها ، وديعة وكنزا للعائلة جميعا ، ولكل عائلة كنزها ، فرض عليهم الاكتناز أن

أرض الجزيرة لم تكن في مذهبهم قابلة للبيع أو الشراء نقدا ولو كان النقد ذهباً ، إنما يقسمونها زراعة وانتفاعا على امتداد الخطوط المفترضة التي تفصل مساكن العائلات ونخلها وأرض حياضها ثم عابرة الخور الى أرض الجزيرة ذاتها .

ويقسم كثير من المعاصرين " بالله ثلاثة " على متى وكيف داهم أهل العقال البحري بيوت النطرة والشيخ جابر وما نقلوه اغتصابا من رقاب الجمال المليئة بالذهب المشغول من بيوت العائلات وحملوه على ظهور الجمال الى بيوتهم ، وقد تبالغ الذاكرة في دقتها فتذكر مفردات كل كنز منقول .. ولا عتب على الراوي .

أيا ما كان الحال فقد دك الكفران دكا ونهبت الأموال غصبا ، واعدم كثير من الرجال فريا ، وتشرد من بقي منهم والنساء والصبية والاطفال سنين طويلة الى حيث لا يريدون ان يذكروا ولو تذكروا . فلما شملتهم " المراحم الخديوية " ، وعاد من عاد منهم يبنون بيوتا متحاضنة على سفح الجبل زالت بهجتهم وعمتهم الفاقة .

تخلو ذكريات القرية عما بعد العودة من ذكر الجزيرة . لا يذكرون ولا ينكرون بل يصمتون كموقفهم من كل حدث يعتبرونه عارا . يتحدث السيد عبد النبي، وله عذر من شيخوخته ، حديثا خافتا متقطعا فيقول انهم حين عادوا بعد ست سنوات وجدوا ان الخديوي قد انعم بالجزيرة على لطيف باشا مدير جرجا وقائد يوم الغارة فتغير اسمها من قبالة الدير الى " انعام لطيف باشا " . وأنه قد أوفد اليها من أقام في " نزلة همام بك " شخصا تركيا غليظا اسمه محمد آغا شماشجي لطيف باشا . جمعوا كل ما يملكون واشتروا الجزيرة . ولكن أية جزيرة ؟ .. يضيف بعد صمت طويل . لقد غضب النيل من أجل أهل الشيخ جابر وانتقم من لطيف باشا فما زال يقضم كل عام أجزاء من غرب الجزيرة ويلقيها في تيار الماء إلى أن عاد المطرودون فتوقف وقد أبقى لهم أقل من خمس الجزيرة . الجزء الشرقي المرتفع وما فيه من شجيرات قليلة . ولقد عاد إلى ما بقي أهل الشيخ

جابر رجالا ونساء وصبية وهم يدقون الطبول كالفاتحين يحملون " بيرق " الاشراف ، وهناك ذبحوا عجولا وأقاموا ذكرا وبشرهم الامام محمد معتوق بأن الله سيسخر البحر ليعيد لهم باقي الجزيرة كما سخره ليخفيه في الماء انتقاما من الظالمين .. فاقتمت العائلات الجزيرة شرائح ممتدة من الشرق الى الغرب على امتداد بيوتهم وغيطانهم القديمة . اقتسموها بالتساوي بين العائلات التي دافعت عن البلد في الغارة وطردت منها ، مع أن عائلة المشاهرة (أولاد مشهور) قد دفعوا أغلب الثمن . اعترافا لهم بما قدموا كتبوا حجة شراء الجزيرة باسم كبيرهم الشيخ محمد اسماعيل الذي اختاروه شيخا للمشايخ . عادت الحياة ولم تعد العافية فكفوا عن الحديث عن الجزيرة . غير ان الصمت لن يطول .

تستأنف الجزيرة عودتها الى مذكرات القرية بقوة متصاعدة يرويها جيل لم يشهد الغارة ولكن نقلنا عن آباء وأمهات وأعمام وجدود شهدوها وذلك على مدى الاعوام الاولى من القرن الحالي التي انشغلت مصر خلالها بمشروع بناء خزان أسوان . لقد كان من آثاره المبكرة ، المتوقعة ، ثبات أرض " الجزر " على امتداد صعيد الوادي فوق مستوى الفيضان العادي والتحكم في مياهه في غير موسم الفيضان على وجه قطع الاتصال بين مجرى النهر وبين كثير من الأخوار التي تفصل بين الجزر فجفت الأخوار وتحولت الى أرض زراعية طوال أشهر التحاريق أو أغلبها .

في تلك السنوات أجرى " فك الزمام " . حصر الارض الزراعية والقابلة للزراعة ووضع حدودها بواسطة لجان حكومية قررت في النهاية أن جزر طرح النهر ، ومن بينها " جزيرة الهمامية " هي " ملك الحكومة " . وأن من يريد ان ينتفع بأرضها أن يستأجرها من الحكومة بعقد مكتوب مساحة واحدة لمن يعرض أعلى ايجار في يوم معلوم تجري فيه المزايدة بين الراغبين بديوان المديرية .

في اليوم المعلوم لم يتقدم أحد من أهلالقرية " للتعامل " مع الحكومة . كانت القرية لا تزال تعيش مرحلة " الخائفين " منذ الغارة ولاسباب أخرى .

تقدم عبد الرحمن بك محمود ابن " الباشا " منفردا ، أو هكذا قيل ، فأجرت له مقابل مائتي قرش عن كل فدان سنويا لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد مدداً أخرى . لم تطأ قدم أحد من بيت الباشا أرض الجزيرة ولم ترها عينه ، ولم تسلم الى مستأجرها ، فأناج عبد الرحمن بك عنه شابا من الهمامية شديد الذكاء شديد القسوة اسمه صديق محمود حماد . زكته الادارة اعجابا وجزاء على دور مخادع وجسور في الايقاع بسند عثمان وعصابته . وقد استطاع ذلك الشاب الذكي أن يشبع حنين أهل القرية إلى " رزقها " القديم بما أتاح لكثير من أهلها من رزق جديد مصدره الجزيرة . فقد استخدم من شبابها ورجالها القادرين القابلين ، في حفر بئر ارتوازية عميقة ، ثم في نقل عشرات من الصناديق التي جداءت اليها محمولة على صنادل عائمة في النيل ، ثم في افراغ ما في جوف الصناديق من حدائد منها الغليظ ومنها الدقيق ، ثم في مساعدة " خواجهات جاءوا من مصر " وأقاموا حول البئر خياما أقاموا فيها وهم يركبون أجزاء ما حملت الصنادل فاذا هو " بابور " بخاري جسيم يلقمونه حطبا كثيرا وفحما وفيرا فينفث دخانا كثيفا ، ويدير عجلات ثقيلة تمتد منها الى قاع البئر سيور طويلة فتدير عجلات أخرى تمتص الماء من جوف الأرض فيخرج الى سطحها دافقا رائقا ليروي أرض الجزيرة . ثم حملوا الطين على رؤوسهم وضربوه طوبا ، واستجلبوا الحجر من الجبل على ظهور رجالهم ثم على طوفات من البوص عبر الخور ثم على اكتافهم الى حيث " البابور " فانشأوا حوله سورا عاليا من حجر وطين ومنازل لمن سيقم . استغرق كل ذلك موسمين حابى فيهما النيل " بيت الباشا " فلم يدرك فيضانه موطىء البناء وإن كان قد أعاقه . وعوض اهله الهمامية أجورا من النقد عن محاصيل الأرض فحمدوا الله على كل حال .

فلما أن استقر الوضع وبدأ تدبير استقرار الزرع قال صديق محمود حماد لعبد الرحمن بك محمود حين قابله في " السلامك " أن الاصطفاء يستوجب الوفاء . وقد اصطفيتني سعادتك لأكون رجلك وخادمك في قرיתי وأن اختار من بينها من يحتاج اليه

الزرع. ولكن مع الوفاء اولى بالحق أن يقال .
والحق يا باشا أن أهل الهمامية كما يؤمنون بالله
يؤمنون بأن أرض الجزيرة أرضهم . فلو زرعوا فيها
لانزعوا فيها ولن نستطيع أن نقلعهم منها . لقد
رضوا حتى الآن لأنهم يتقاضون اجورا ولكنهم لن يرضوا
أن يدفعوا ايجارا . فأرى ، والرأي لسعادتك ، أن
ننقل الى الهمامية من يحرس الجزيرة مسلحين ، ومن
يزرعها فلاحين من فائض ما أفاء الله على سعادتك من
جزر وأرض وعاملين . وانا قمين بأن أكون هناك عينك
ويدك وحارس الحراس والفلاحين اجمعين . بغير هذا لن
نستطيع أن نحفظ بالجزيرة . اللهم إلا في حالة
واحدة .

سكت صديق : وانتظر الباشا ذكر تلك الحالة
الواحدة . فلما طال السكوت ، قال : ما هي تلك
الحالة يا صديق . أنت تعلم أن اقتراحك غير عملي
ومفرط التكاليف .

قال : أعرف يا باشا ، ولكني أخشى أن أذكر الحل
الأخير فتتهم مقاصدي .

قال : قل ولا تخف من الاتهام .

قال : أهل القرية ، وأنا أعرفهم ، يخافون
الحكومة ، ولا يخافون أحدا غير الحكومة ، بل أنهم
يجتنبون التعرض لكل من ينتمي الى الحكومة . ولا
يزالون يقفون احتراما لكل ما يمت الى الحكومة
بصلة ولو كان حصانا يمتطيه عسكري ، وحتى لو لم
يكن أحد يمتطيه ..

قال يستعجله : الحل يا صديق .. ما هو الحل .

قال : أن يصبح رجلك وخادمك من الحكومة . أن
أعين عمدة . والعمودية شاغرة منذ " استعفى " محمد
اسماعيل جودة ، ويقوم بأعبائها نائب شيخ ضعيف .

ضحك عبد الرحمن بك محمود ضحكا عاليا وقورا ثم
قال : خلقت المشكلة يا صديق لتصل إلى الحل .
فليكن . مثل ذكائك يستحق المكافأة . ستكون عمدة
الهمامية إن شاء الله . أول عمدة . اصبر فقط وانتظر.
وقدم لي دليلا على كفاءتك في الزراعة من محصول

الجزيرة في العام القادم . ولك أن تستخدم فيها من تشاء ولكن بأجر وليس ايجارا .

أجر أو ايجار فقد اعادت الحكومة وبيت الباشا وصديق محمود حماد ، بدون قصد اتصال القرية بالجزيرة بعد انقطاع طويل . فعاد الحديث عنها ماضيا وحاضرا ومستقبلا يشغل قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية .

ولما كان الحديث دائرا أبدا حول الجزيرة وعلاقتها برزق أهل القرية فقد كان الخلاف فيه خلافا عقائديا حقا . اذ يبين مما ترويه الذكريات وتذكره الروايات أنه كان مثل كل خلاف في العقائد شديد الاضطراب والغموض . لا تكاد تبين فيه المواقف الفعلية من المصالح الخفية تحت ركام من المجادلات اللفظية التي توهم ، عمدا أو بغير عمد ، بأن الخلاف دائر حول الحقيقة المجردة وليس الغايات الشخصية .

فثمة نظرية طاعة أولي الأمر غير المشروطة التي روج لها الامام محمد معتوق ويحتج بها ابنه وخليفته، يسانده الشيخ شحاته الضرير قارئ القرآن على المقابر . والشيخ عبد الرزاق مطهر الأجساد من الجان ، وصراف القرية الذي يجمع ضرائب الأطيان . والشيخ محمود عبد اللطيف نائب العمدة وله في الترويج لها رأيان ، ولكل رأي وجهان ، ثم الذين يعدون أنفسهم لمغادرة الحياة الدنيا ونهرها في انتظار جزاء الصبر والطاعة في جنة الرحمن . أولئك جميعا يستنكرون مجرد استنكار أن يفعل أولياء الأمر ما يشاءون بالجزيرة فينهون عن ذلك المنكر . وثمة نظرية ملك الله والاستخلاف في الأرض التي روجها في القرى الشيخ أحمد الطيب . أنهم يتذكرون جيدا أن قد قال لآبائهم وجدودهم وقد هموا بالاستيلاء على أراض من قرى أخرى وهم زاحفون تحت قيادته : أن ما يفتح الله به عليكم من أرض هو " فيء " تنتفعون بها زراعة ومزارعة ولكن رقبته تبقى في ملك الله الذي استخلف الانسان فيها لتعميرها وحرم ملكيتها .

يضرب لهم مثلا من موقف الصحابة حين فتح الله على المسلمين أرض العراق . أولئك يستنكرون من

الحاكمين أن يمتلكوا الأرض ولا يزرعونها بل يؤجرونها بمقابل لمن يزرعها كما لو كانوا لها مالكين من دون الله . يستنكرون ملكية أرض الجزيرة وتأجيرها ويبررون ملكيتهم أرض الحياض وتأجيرها بنظرية أولي الأمر . فقد فرض أولو الأمر نظام الملكية والتأجير منذ قديم الزمان ولكن الحق أحق أن يتبع . وثمة نظرية تاريخية تستمد من أحداث الغارة ما تحوله إلى قاعدة ، تحذر الجيل الذي لم يقتل ولم يتشرد من شرور الغرور حتى لا يقتلوا أو يتشردوا كما وقع لأبائهم وجدودهم من قبل نتيجة عصيانهم الحاكمين واستخفافهم بما لاطاقة لهم به من قوة ، ولو كان بتحريض من أولياء الأمر الصالحين ، إن قول الله تعالى أولى بأن يتبع . ولقد قال سبحانه وتعالى " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " . وقال جل جلاله : " لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة " وثمة نظرية " برجماتية " تقول : لقد عادت الينا الجزيرة اذ اتصل بنا رزقها الموفور بعد سنين طويلة فلنحمد الله على ما نتقاضى من أجور ولو قليلة . فيقول من يقول ولماذا وقد عادت الينا الجزيرة يكون رزقنا منها قليلا وهي كلها رزقنا . يعقب آخر فيقول قائلا : كما لو كان رزقنا من جزيرتنا كرزق اولادنا وبناتنا وشبابنا من جمع قطن أهل الغرب . فيقول شيخ حكيم أو رجل يدعي الحكمة : ما هو البديل ، فتختلط الأصوات وتضطرب النظريات ولايكاد أحد يعرف ما يقول الآخرون . هكذا تقول مذكرات القرية نقلا عن قالوا ومن يذكرون ما كان يقال .

لا خلاف بين أهل القرية في انهم يريدون أو يتمنون أو ينتظرون أن يستردوا رزقهم ، جزيرتهم المرتبطة في مذكراتهم القديمة بالرخاء والرفاه أيام أن كانت علاقتهم بها بسيطة . علاقة الفلاحين بالأرض . انما دب الخلاف بعد أن اصبحت علاقة مركبة متعددة الأطراف . ظهرت الحكومة وظهر بيت الباشا كل يزاحم أهل القرية في رزقها اذ يحرمهم منه ويتخذ له رزقا . الحكومة تسميه " ملكية " وبيت الباشا يسمونه ايجارا وما اضطربت آراء أهل القرية إلا لأن مفهومهم " للحكومة " ومفهومهم " لبيت الباشا " كان مضطربين شديدي اضطراب .

يتضح بعد جهد غير يسير في دراسة وتحليل ما صيغت به ذكريات القرية من ألفاظ وجمل وأساليب تعبير أن أهل القرية لم يكونوا يعرفون ماهي " الحكومة " على وجه التحديد . فالحكومة ، هذا اللفظ العام المجرد لم يكن يعني عندهم نظاما عاما لادارة شئون الناس بما يحقق مصالحهم طبقا لقواعد عامة معروفة أو قابلة للمعرفة . تخلو مذكرات القرية خلوا تماما من " حضور الحكومة " إليهم لتطعمهم من جوع أو تأمينهم من خوف أو تقضي لهم أمرا عرض أو تشفي منهم انسانا مرض . الحكومة غير موجودة في قريتهم فهي عندهم ذات دلالة لا غامضة فقط بل موهومة أيضا . الموجود ، المحسوس ، الملموس ، الثابت الوطيد كالجبل الشرقي ذاته هم " الحكام " اشخاص آدميون يحكمونهم فرادى ومجتمعين . وحين ترد " الحكومة " في مذكراتهم أو ذكرياتهم ينسبون اليها افعالا لا تنسب إلا إلى أشخاص طبيعيين ، آدميين يعرفونهم بأسمائهم ووظائفهم معرفة المحسوس بالبصر والسمع واللمس . " الحكومة " أخذت الأولاد الى الجهادية يعني ان الخفراء فلان وفلان والعمدة فلان ابن فلان اخذوا الأولاد الى المركز في البداري ليرسلهم المأمور الى الجهادية وما بعد هذا غير معروف . ستحضر الحكومة غدا الى القرية لتحصل الأموال الاميرية يعني ان الصراف احمد افندي شيخون سيحضر غدا من المركز الى القرية ليحصل الضريبة المفروضة على الاطيان ، يحمل في حقيبته ورقتين لكل ممول . الورقة الأولى محضر حجز على زراعة الممول أو ماشيته وتعيينه حارسا عليها وتحديد تاريخ لبيعها في المزاد العلني للوفاء من ثمنها بما هو مستحق عليه من أموال . في رأس الورقة تاريخ قديم وفي ذيلها ملحوظة : رفض الحراسة فكلفناه بها وتوقيع الصراف وشيخ القرية . الورقة الثانية محضر تبديد يتضمن حضور الصراف بصحبة شيخ القرية للشروع في بيع المحجوزات فتبين أنها غير موجودة وان الحارس بددها فتحرر هذا اثباتا لما تقدم ويحال الى السلطة المختصة لمحاكمته عن جريمة التبديد . ليس لهذه الورقة تاريخ في رأسها ولا توقيع في

ذيلها . الحكومة تستدعي الممول ، فأما السداد بما يترتب عليه من " تقطيع الورقتين " واما وضع التاريخ والتوقيع الورقة الثانية (محضر التبديد) واحالته الى المحاكمة حيث الحبس " مضمون " وتدور مساومة بين الحكومة والممول حول مسألة التاريخ . يستأجل فإن قبلت الحكومة اجلت تاريخ التبديد الى يوم متفق عليه واستحقت شكر الممول . والحكومة صادقة بشهادة ذاتها المدونة في أوراقها . فبلرغم من أن أحمد أفندي شيخون لم يحضر ولم يحجز ولم يعين حارسا فإن " الحكومة " قدرت المستحق في دفتر تسميه الجريدة . وعينت زراعة الممول وماشيته وحجزت على ما يوفي ثمنه بمستحققاتها وأكثر ضمانا ثم حضرت فاكتشفت جريمة التبديد ، أو لم تكتشفها بعد حسب ما يتم من مساومة حول المفاضلة بين " الحبس أو الدفع " . غير هذا غير معروف . حينما يحضر الشويش عتريس الى القرية راكبا حصانه لجمع رجال مطلوبين لحماية قرية أخرى من مخاطر الفيضان فقد حضرت الحكومة راكبة حصانها ، فوجب ان يقف أهل القرية للحصان وراكبه احتراما للحكومة .

هكذا تعني كلمة " حكومة " في مذكرات القرية صفة تطلق على أفراد معينين بأشخاصهم مختلفين اسماء وأدوارا ، ولكنهم متميزون عن باقي " خلق الله " بأن لهم ، ولكل واحد منهم سلطة الحكومة ، اذن ، فالحكومة وعلى وجه الدقة ، " سلطة " يمارسها متعددون فكل منهم حكومة . ما وراء ذلك غير معروف.

وتبرز بوضوح شديد هذه الدلالة السلبية لكلمة " الحكومة " في ذكريات القرية من سير ابطالها ، الذين تغني لهم البنات ويرسل اليهم الرجال أموالا قليلة من قليلة ، ويزعم بعض الشباب أنهم على علاقة بهم ، ويحلم كثيرون بأن يكونوا مثلهم ، من أمثال سند عثمان بطل الشراقة الشهير وخلفائه الاقل شهرة . محور بطولتهم أنهم " تحدوا الحكومة " تمردوا على طاعتها ، ورفضوا أوامرها وقاوموها وهزموها مع أن أحدا منهم لم يشعل ثورة ولا شارك في انقلاب ولا حتى رأى مصر العاصمة . ولكنهم على وجه اليقين تحدوا مأمور وضباط وعساكر وعمد وخفراء مركز البداري الذين كانوا يطاردونهم ويسمونهم " "

مطاريد " للقبض عليهم فلم يستطيعوا . أولئك الذين لم يستطيعوا هم " الحكومة " التي تحداها سند عثمان ومن جاء بعده . أما غيرهم فغير معروف .

ولما كانت تلك " الحكومة " كما يعرفونها في القرية أفرادا كثيرين ، يمارس كل واحد منهم سلطته بطريقته ي دائرة عمله ، فإن مذكرات القرية تكاد تخلو من أي ادراك واضح للعلاقات بين أولئك الكثيرين المتفردين . تتردد فيهم مقارنات من واقع الخبرة - خبرتهم - بالمقدرة على ممارسة السلطة فيدركون ادراكا غامضا أن أولئك الأفراد الحكومات درجات بعضهم أقدر من بعض . هنا تكشف مذكرات القرية عن أغرب مفاهيمها . سلم التدرج الرئاسي عندهم مقلوب . أو ربما معدول . فالأكثر اقتدارا على ممارسة السلطة عليهم الأعلى اعتبارا . يعرفون أن في البداري مأمورا وفي اسيوط مديرا . وفي مصر وزيرا ، ولكن ألف وزير لا يحركون شعرة من رأس أي قروي ، أما الشويش عتريس رئيس نقطة نجوع الجزيرة فهو حاضر بكل سلطته في وعيهم ولو كان غائبا . يضبط مسالكهم على ما يرضيه إذا ما طلب وتتشعر الابدان خشية غضبه إذا ما غضب . تماما كما لا ينسى الجزار وهو يقسم لحم الجدي يوم السوق ويوزعه بالقرعة بين المشتريين ان يضم الى نصيب العمدة نصيبا خارج القرعة . ليس العمدة في حاجة الى مزيد من اللحم . ولكنها تذكرة ماضي سحيق لمن شاء ذكره بأن العمدة حكومة ذات سلطة ، والقرعة قاعدة مساواة ، والسلطة تنفي المساواة . لقد حصل العمدة على ما اشترى مقترعا كالأخرين ، اما ما اضيف فهو نصيب السلطة .. حتى الخفير هو حكومة ذو سلطة ولو لم تزد عن تزوير مخالفات صيد العصافير .. ولكل سلطة احترام وتقدير بقدر ما تتماس مع المسئلة عليهم ، فلا يستحق أي وزير من الاحترام أو التقدير ما يستحقه أي خفير .

الآن يقال لهم أن الجزيرة ملك الحكومة . فلا يعرفون من " هو " الحكومة الذي ملك الجزيرة وهي رزقهم . فتبدو المقولة غير معقولة فيضطربون في تبريرها أو تفسيرها . لا تتعبوا أنفسكم في جدل لا يفيد . حكومة أو لا حكومة انها " الغارة " عادت من

جديد . والخبرة عبرة لكل رشيد . لا ينقذنا من أية حكومة الا من انقذونا من فاضل باشا . فلنلتمس الضمان والامان من بيت الباشا ، الذين ضمن جدهم جدودنا .

فيزداد الموضوع تعقيداً ..

ذلك لأن مفهوم القرية لتعبير " بيت الباشا " ليس أكثر وضوحاً من مفهومها للحكومة . فأهل القرية يعرفون أن " بيت الباشا " اشارة الى عائلة عريقة كثيرة العدد يقيم اغلبهم في موطنهم قرية ساحل سليم التي تبعد عن قريتهم بنحو ثلاثين كيلومتراً شمالاً ، ويقيم كثير منهم في مصر العاصمة اقامة دائمة . ويقال أنهم كلهم متعلمون ، وأن منهم باشوات وبكوات وأفندية . كل هذا لا يعني شيئاً خاصاً بالنسبة الى القرية فلا تعنى مذكراتهم به كثيراً . " فبيت الباشا " في ساحل سليم مثل " بيوت باشا " كثيرة يسمعون عنها في أبو تيج وفي النخيلة وفي طما وفي طهطا وفي جرجا وبلاد أخرى كثيرة لا يذكرون اسماءها ، ولا يعنون بذكرها كثيراً . ولكنهم يعرفون ويذكرون أن بيت " الباشا " يمتلكون آلاف الأفدنة من الأرض الزراعية ، ومئات الأفدنة من حدائق الفاكهة الغناء المحاطة بأسوار من الأحجار ، اقيمت داخل سرايات تصل اليها الكهرباء " بسلك مخصوص " من ابو تيج عبر النيل ، وأن الطريق البري اليها مرصوف من اسيوط حتى ساحل سليم ثم يتوقف عندها إذ يوجد جنوبي ساحل سليم على امتداد مركز البداري بيت باشا آخر . حتى هذا لا يعنيه كثيراً . فالله يرزق من يشاء بغير حساب . وهكذا تخلو مذكرات القرية خلوا تاماً من أي لفظ صريح أو اشارة ضمنية الى معنى من المعاني المرتبطة بالعلاقات الاقطاعية بين ملاك الأراضي والفلاحين . فليس الفلاحون اقناناً ولا تابعين وليس بيت الباشا سادة ولا أصحاب سيادة على غيرهم من الفقراء . انهم عائلة مثل كل العائلات وإن كانت أكثر العائلات ثراء . والثراء رزق فلا اعتراض .

ثم أن أهل القرية يعرفون من " بيت الباشا " الا عبد الرحمن بك محمود . فمحمود باشا سليمان ليس الا والد عبد الرحمن بك . ومحمد باشا محمود ليس إلا

أخ عبد الرحمن بك . وكذلك حفني . أما أولاد صالح ، عبد المجيد وعبد الحميد وخلييل فهم أولاد عم عبد الرحمن بك ليس الا . وإذ يتجسد " بيت الباشا " في عبد الرحمن بك محمود . فإنهم ينسبون الى " بيت الباشا " ما يعرفونه عن عبد الرحمن بك .. وهم لا يعرفون عنه الا كل ما هو فاضل ونبيل فيجلونه في مذكراتهم اجلا لا كبيرا حين يذكرونه وهم يذكرونه كثيرا .

عبد الرحمن بك محمود رجل فارح الطول ، ابيض البشرة لا يحمل من مميزات بيت الباشا الا الشفاه الغليظة . يقيم اقامة دائمة في دواره في حديقته الشاسعة الواقعة غربي ترعة قاو . يلبس ملابس الميسورين من أعيان الريف . العمامة والكاكولة والقفطان الشاهي ذا الحزام الحريري ، ويمسك عصاة من الابنوس الاسود ذات مقبض ابيض على شكل " فيل بزلومة " . فهو فيما بين أعيان البداري لا يتميز مظهرا ولكنه يمتاز مخبرا . فهو يعرف أغلب الناس في ثلاثة مراكز من مديرية اسيوط . البداري وابو تيج وصدفا . يعرفهم معرفة شخصية . لا يعرف أحد كيف تيسر له هذا ولكن مذكرات القرية تنسبه الى فرط محبة الناس . باب دواره مفتوح لكل من يريد . يستقبل الزائرين في " السلامك " المعد لاستقبال عشرات . تقودهم اليه مجموعة من الكتبة والاتباع ، الحافظين الاسماء العارفين الأحوال ، عبر ممرات طويلة بين أشجار البرتقال . يستقبلهم في مضيعة مجاورة وكيل الدائرة ثم يصحبهم فرادى أو جماعات في ترتيب يختاره الى السلامك . ما أن يدخل زائر أو زائرون حتى يقف عبد الرحمن بك محمود ويتقدم خطوة أو خطوات . يصافح كلا منهم . يناديه باسمه . لا يفلت يده الا بعد أن يسأله بتعاطف رقيق كأنه صديق ، عن حاله وعائلته وزراعته وما بلغه من حادث وقع له قريب . ثم يدعوه الى أن " يتفضل " بالجلوس على أقرب مقعد شاغر من مقعده . يكرر هذا مع الآخرين بينما لا يكف الخدم عن تقديم الشاي الى الوافدين . التدخين فقط ممنوع بأمر الأطباء المشرفين على صحة عبد الرحمن بك . ليس ثمة أية فرصة في مجلس عبد الرحمن بك لأي انسان ولو كان من

الأعيان في ان يحظى بترحيب أكثر حرارة أو أن يسبق غيره الى مقعد أقرب الى جواره . إذا تحدث زائر فكل عبد الرحمن بك اذان صاغية . لا يقاطع المتحدث أحد في مجلس عبد الرحمن بك أيا كان مضمون الحديث الا عبد الرحمن بك باستفسار يتحول الحديث به الى حوار يدعو عبد الرحمن بك الى المشاركة فيه من يختار . حين يحين موعد الغداء يفتح الخدم الكثير أبوابا جانبية كثيرة تؤدي الى مائدة عامرة يدعو اليها الزائرين ، وهناك يتعرف الزائرون على نعيم الثراء حين يعم . من حين الى حين يأكل معهم بيديه مثلهم حتى يجنبهم حيرة اختيار أدوات الطعام المناسبة . ولكنه لا يأكل كثيرا .. يستأذنهم في الانسحاب بأدب شديد معذرا بأوامر الطبيب . ويتركهم وما يأكلون . لا يرونه بعد ذلك مجتمعين . فاذ ينسحب عبد الرحمن بك تاركا ضيوفه على راحتهم يأوي الى غرفة يصحبه فيها حفظة الاسماء وعارفوا الاحوال ووكيل الدائرة فيعرف منهم اصحاب المصالح وأفكارا مجملة عنها . بعد الغداء والشاي والسجائر لمن يدخلون يستدعي وكيل الدائرة كل صاحب مصلحة وحده أو كل أصحاب مصلحة واحدة الى مقابلته . هنالك يطلبون منه ان يقضي لهم من المصالح ما يشاءون ولو كان محالا فلا يجادلهم فيه بل يأمر أحد الكتبة بأن " يأخذ " مذكرة بالموضوع ، ويكلف آخر بأن يتذكر أن يذكره به ، ثم يسأل الطالبين ان كان ثمة " خدمة أخرى " يسعده أن يؤديها فيقبل الشكر والدعاء . يقف مصافحا مودعا حتى باب المكتب. تتكرر تلك الطقوس مع كل من لديه حاجة يريد ان تقضى ثم ينصرفون .

تتنوع المصالح وتختلف المطالب التي وعد عبد الرحمن بك بتحقيقها ولكنها تنطوي جميعها على مطلب مشترك : الانصاف . من ظلم واقع أو موهوم . فورا كل مطلب شكوى من ضياع مصلحة مادية أو أدبية صحت الشكوى أو لم تصح . والمشكو واحد دائما . انه " الحكومة " كما يعرفونها : عمدة او ضابط أو مأمور أو صراف او شويش . وهم يلجأون الى " بيت الباشا " متجسدا في عبد الرحمن بك لأنهم يعتقدون أن " بيت الباشا " هم الذين يتحكمون في أداء هذه " الحكومة

" التي لا يعرفون غيرها . وإذ لا يجادلهم عبد الرحمن بك في صحة ما يشكون منه أو فيما يطلبون ، ثم بعد التحقيق في الشكوى وتحقيق المطالب ، يؤكد يوما بعد يوم صحة اعتقادهم بأن " بيت الباشا " حاكمون فوق الحاكمين . عبد الرحمن محمود لا يفي بكل ما وعد به ولكنه يفي بكثير منه ويسعى في ذلك جادا ولو استعان برءوس الاسرة في القاهرة أو فروعها في المديرية . ذلك لأنه يعلم وهم يعلمون أن أحدا منهم لن يدخل مجلس شورى القوانين ، أو الجمعية التشريعية أو مجلس المديرية ، ممثلا للبداري أو ابو تيج أو صدفا إلا إذا رشحه للناس عبد الرحمن محمود . وهو يرشحهم فينجحون ، لا اصطفاء ولا شراء ولا رياء . ولكن رضاء من قوم يعتقدون أن " بيت الباشا " حاكمون فوق الحاكمين . فلا بد لبقاء العقيدة من الوفاء بما يطلبون . وهكذا يجد أهل القرية في " بيت الباشا " ملاذا لهم من ظلم الحكومة ، وإذ يلوذون به يجدون مالا يوجد في " أي حكومة " المساواة في الاهتمام والاحترام والاكرام . يجدونه فيمن يعرفونه من " بيت الباشا " أو في " بيت الباشا " كما يعرفونه فيه ، عبد الرحمن بك محمود ، فحمدوه وشاع حمده في مذكراتهم .

الآن يقال لهم أن عبد الرحمن بك محمود ، وليس احد غيره ، هو الذي يزاحمهم في رزقهم إذ استحوذ على جزيرتهم ويريد لهم أن يخدموا فيها اجراء وهم اصحابها . فهم هذه العلاقة الجديدة أو تفسيرها أو تبريرها يقتضي هدم تمثال " بيت الباشا " الذي نحته سنوات طويلة في رءوسهم على صورة عبد الرحمن محمود . والرءوس اكثر صلابة من أن تشق ليهدم فيها تمثال المساواة في الاهتمام والاحترام والاكرام الذي أجلوه خيرة ولا يريدون أن يفقدوه طفرة .

فازدادت المشكلة تعقيدا والآراء اضطرابا .

وهكذا كان يكفي من يريد أن يقطع الصمت الرهيب الذي كثيرا ما يرين على الجالسين على المصاطب أن يسأل شيخا منهم عن ماضي الجزيرة او حاضرها أو مستقبلها ، حتى يستيقظ النيام ، وينتبه الغافلون ، ويشارك القعود والقيام في تلاوة مذكرات القرية

والجزيرة منذ قديم الزمان . تختلط الأصوات وتختلف الروايات ، تبعا للانتماء القبلي الى العائلات أو تبعا للمصالح والغايات . لقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الأثيرة لا تزاحمها حتى سيرة بني هلال .

(٤)

قال عزيز حسين :

في ذلك الوقت كان عبد الرحمن بك محمود قد استأجر الجزيرة وشاع الخبر . ولم يكن أحد يعرف كيف سيستلمها وكيف سيديرها بعد أن تنزل مياه النهر . كثر اللغط والخلاف بين الناس في البلد . قال الشيخ احمد معتوق أنه لا ينقذ البلد من ضياع الجزيرة إلا من أنقذ جدهم جدودنا من التشرذ . فاجتمع رؤساء العائلات وذهبوا ، وعلى رأسهم الشيخ محمد اسماعيل ، إلى ساحل سليم ليتفاهموا مع عبد الرحمن بك لعله أن يقبل الاستغناء عن الجزيرة وتركها لأهل البلد . قابلهم الرجل مقابلة حسنة واستمع اليهم ووعدهم بأن يفكر في الأمر . دخل عليهم صديق حين سمع آخر الكلام . كان مختبئا في بيت الباشا . فلما سمع قول عبد الرحمن بك أنه سيفكر في الأمر دخل وقال وهو واقف بجراحة . أي أمر ستفكر فيه يا باشا . هذه أمور صغيرة لا تشغل بال سعادتك بالتفكير فيها . انتم سادة الأرض والناس . ندخركم للمسائل الكبيرة . وقد كان أولى ببليدياتي الحاضرين أن يلجأوا اليّ ليتفاهموا معي اذ أنا الوكيل والمدير . تبادلوا النظرات . ضحك عبد الرحمن بك وقال للشيخ محمد تفاهموا مع صديق ياشيخ محمد . قال الشيخ محمد ماهو مفهوم لا يحتاج الى تفاهم يا باشا . وانصرفوا إلا صديق .

في طريق عودتهم قابل الشيخ محمد مأمور المركز . كنت انتظره فكنت معه . قدم استقالته من منصبه . قال له المأمور هكذا بدون أسباب ياعمده . قال ليس من المناسب ذكر الأسباب في ورقة رسمية . قال المأمور قل لي اذن لأعرف بصفة شخصية . قال لقد تعرضنا لاهانة لا نستحقها في سلامك عبد الرحمن بك محمود . قال المأمور مندهشا ، كيف هذا إن عبد الرحمن بك لا يهين أحدا ياشيخ محمد . قال الشيخ

محمد عليه رحمة الله ولكنه لم يمنع كلبه من أن ينهشنا . قال : من . قال : صديق ..

شاع ما حدث في القرية فتحدث به الناس وتجادلوا كثيرا في كيف يردون الالهانة وترددت فكرة استرداد الجزيرة تحت ضغط الشعور بوحدة الاعتبار ووحدة العار . ولكنه تردد بقى مستورا فلم يعد مذكورا . تلاشى في ظلام الستر .

(٥)

بعد استعفاء المرحوم الشيخ محمد اسماعيل كان عدد سكان القرية قد زاد فاستحقت أن تتحول " مشيخة المشايخ " إلى عمدية . اختارت الحكومة الشيخ محمود عبد اللطيف ، شيخ عائلة " أولاد عيسى " ليكون " نائب عمدة " وأصبحت أنا وكيل شيخ الخفراء . اختارته لأنه أكبر المشايخ سنا . الشيخ محمود عبد اللطيف رجل طيب ولكنه ضعيف . يكفي أن تعرف أنه لم يمارس سلطته كقاض لا قبل انشاء محاكم الخط ولا بعده ، كان يفضل التراضي والتوفيق ولو بين المتناقضات فإذا لم يستطع لا يحسم الأمر بل يمرض ويعتكف في داره ويبقى مريضا معتكفا حتى تحل المشكلة أو تتفاقم . أصبحت القرية فعليا بغير عمدة . فظهر الخلاف وتفاقم بين المشايخ وعجز كل شيخ عن أن يحقق ارادة عائلته فتولى كبير كل بيت من عائلة الدور الذي كان يقوم به الشيخ كحكم في الخلاف بين الأسر . وشاع اختلاف كبار البيوت فاستقل كبير كل اسرة بالتعبير عنها . ولم تلبث الاسر نفسها ، كثير من الاسر ، ان شاع الخلاف بين أفرادها . فاضطربت الحياة فيها اضطرابا شديدا بسبب الجزيرة وصديق محمود حماد .

فقد اتخذ صديق من العمل في الجزيرة كمورد للأجور وسيلة للسيطرة على كثير من شباب القرية ورجالها . فاضت الاجور في ايديهم فجنح الشباب الى الاستئثار بأجورهم دون أسرهم وجنح الرجال الى الاستقلال بأموالهم عن زوجاتهم ، فجنحت العرائس الى الحرص على مهورهن لأنفسهن فلا يبعن " صيغتهن " من الذهب والفضة لشراء بقر كما كن يفعلن من قبل ، فاخفت البقرة كاساس لبناء بيت الزوجية ، فاخفتى

اللبن والجبن والدهان ، فأصبح على كل زوج ينشئ أسرة أن ينفق من " جيبه " نقدا على بيته ولو اشترى " القيصي " من السوق . فارتفع ثمن " القيصي " فباعه كثيرون من غير المأجورين ففرغت قبل الأوان الصوامع والحواصل من المصدر الأساسي للغذاء ، فتهافت شباب ورجال وكهول آخرون على طلب العمل في الجزيرة مقابل أجور مضمونة فانخفضت الأجور ، فتنافسوا طلبا للعمل فأصبح منهم العاملون والعاطلون يتبادلون مواقع الشبع والجوع تبعا لاختيار صديق محمود حماد ، وقد اصبح له من كل أجر نصيب مدفوع . ولما كان كل ذلك نقضا لاركان " البيت " فقد كان حديث النساء فجر كل يوم في اجتماع الموردة . فبدأ خراب البيوت حين بدأ رفض الزوجات مسئولية إدارة بيوت فارغة من القوت ، فعرفت القرية " الغضب " الطويل الذي ينتهي غالبا بالطلاق. هكذا سقطت القرية رجالا ونساء في جوف دوامة من الشقاء لا يعرفون منفذا منها الا استرداد الجزيرة ولكنهم لا يعرفون كيف يستردونها فيختلفون في هذا اختلافا ممزقا .

(٦)

وقد أصبحنا نحن الخفراء أكثر حرية في الاختلاط بالناس والمشاركة في مجالسهم والمساهمة في الحديث عن مشكلات الحياة التي يعانونها ونعانيها معهم . وكنا ، بفضل ما تعلمنا أثناء التدريب ، نعرف أن هناك قانونا وانه يساوي بين المواطنين . كما كنا نعرف أن طرح النهر يصبح ملكا لمن التصق بأرضهم وان اغتصاب الأرض من مالكا جريمة . وكنا حينئذ " نذاكر " الدروس لنحفظها ونستعين على حفظها بما كنا نحفظه من الجزيرة وتاريخها منذ الغارة ، ولكننا لا نتحدث به . استرجعنا كل ما تعلمناه . وخضنا به ، وبمثله ، في الجدل القائم حول وسيلة استرداد الجزيرة . وكان أقصى ما بحنا به من رأي قريبا إلى ما كنا نفكر فيه ولا نجرؤ على الحديث عنه هو أن من يسترد ما اغتصب منه لا يرتكب جريمة . بدأت تتكون في القرية شبكة من الجيل الجديد يعجبهم ما نقول وينقلون عنا ما قلنا الى غيرهم في مركز تجمعهم " تاية " سطوحي عبد المنعم عند

الصليبة . ولكنهم يتوقفون حيث وقفنا نحن فلا يعرفون وسيلة واضحة محددة لاسترداد الجزيرة . ويسألنا بعضهم مستنكرا ، أستم أنتم الحكومة ومعكم العمدة ، وحتى لو كان معكم رئيس النقطة ومأمور المركز فلماذا لا تردون الجزيرة الى اصحابها . لا نرد ..

(٧)

ثم عاد الشيخ عباس ولد محمد اسماعيل من مصر وبدأ يتحدث في " منضرته " الى من يحضر أحاديث غريبة في جرأتها عن الملوك والأمراء والباشوات والبكوات ، وعن الانبياء والصحابة ، وعن الاغنياء والفقراء وعن " الحكومة والرعية " . يقرأ الجرائد ويحرض الناس على أن يأخذوا حقوقهم بأيديهم وأن يقاوموا الظلم ويروي لهم قصة الشيخ جمال الدين . قال لهم مرة الظالم مأواه جهنم ومعه المظلوم اذا رضي بالظلم . هذا في القرآن . وقرأ آية لا أذكرها . هل تتذكرها يا إمام ؟ قال محمد أحمد معتوق ولد الامام وخليفته ، اتذكرها ولو أني كنت صغيرا حين سمعتها وأعرفها . إنها قوله تعالى : " الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " . صدق الله العظيم .

قال عزيز حسين : تمام . هذه هي الآية التي قرأها الشيخ عباس في منضرته . لا أنسى حكايتها . فقد جمعنا الشيخ محمود عبد اللطيف يومها وحرّم علينا الذهاب الى منضرته . قال لنا ان ابن عمه عباس ولد محمد اسماعيل " ثورجي " وربما يكون الخديوي عباس قد أرسله ليحدث فتنة في البلاد وأمرنا بأن نتحاشاه فتحاشيناه . قامت الحرب وبدأت السلطة " تأخذ الأنفاس " تصدى الشيخ عباس لحماية البلد من السلطة فأعجب به الشيخ محمود نائب العمدة سرا وقال لنا ان الخديوي عباس الذي كان يعرفه الشيخ عباس قد طرده الانجليز فلا مانع من أن تحضروا مجالسه وتحدثوا اليه وعنه فيما هو مشغول به من فعل وحديث فكنا نذهب مع الذاهبين . وفوجئنا

بأن مسألة الجزيرة واغتصابها لم تكن خاطرة على باله . لم ينشغل بها فلم يتحدث عنها قط ولم يتحدث الناس عنها ي مجلسه . كان الناس قد اعتادوا الاستماع اليه ولا يسألونه حديثا .

مع ذلك .

فمن خلال ما كان يقول ويعيد ويزيد عرف الناس في القرية أن ليس أحد من الخفراء أو العمد أو العساكر أو الضباط أو المأمورين أو حتى المديرين، حكومة . ولا هم كلهم بعضهم مع البعض الآخر ، حكومة، وانما هم خدم الحكومة في مقابل أجور . أما الحكومة فهي مجموعة قليلة من الباشوات المقيمين في مصر يسمونهم وزراء . هؤلاء الوزراء أنفسهم ليسوا إلا خدما اذلاء للانجليز كشف لهم الصنم ثم حطمه حين كشف حقيقة الحكومة ثم حطم هيبتها . وأضحكهم حين قال لهم أن جد السلطان كان بائع دخان مثل محمود أبو الحسن . ثم أنه كان يقرأ على الناس أخبار الحرب في الجريدة ، وكلما قرأ خبرا عن القتال في دولة يقول للناس أن الوزراء لا يقاتلون ولا يموتون من أجل حماية الأرض أو العرض . الذين يقاتلون ويموتون هم الناس مثلكم . وهم يقاتلون ويموتون من أجل الدفاع عن أرضهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم . وهذا ما يفعله الانجليز في كل بلد يدخلوها لولا أن يقاتلهم رجالها ان كانوا رجالا حقا . بمثل هذا الكلام كان يتحدث الشيخ عباس يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر والناس يستمعون ولا يتحدثون في مجلسه ، ولكن خارجه يتحدثون وينقلون ما حدث الى من لم يسمع الحديث حتى النساء في البيوت . ويصلون بين ما يتحدثون عنه وبين استرداد الجزيرة فتتجه أفكارهم الى التقارب يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر .

لم تزد هم الحرب فقرا على فقر ، ولكنها زادت من شعورهم بالفقر حين تجاوزت آثارها الاقتصادية حدود الحاجات المادية الأساسية فأشاعت الاضطراب في علائقهم الاجتماعية المستقرة فتمردت النساء وخربت البيوت . كان لابد لهم من موارد مالية ليعود اليها الاستقرار فتطلعوا الى الجزيرة التي خرجت من

أحلامهم . اختلّفوا أولاً في جدوى ذلك التطلع الذي يناقض واقع خوفهم المزمّن من الحكومة ، وقد عرفوا ان الحكومة سلطة عليا عليها سلطان هو خليفة الخديوي وليست أفرادا ذوي سلطة ممن كانوا يحسبون. يناقض الولاء الادبي الموروث لبيت الباشا كما يعرفونه في عبد الرحمن بك محمود ، يناقض الموروث الفقهي الذي كان يردده امامهم عن طاعة أولي الأمر. فما زالوا مختلفين . اختفت الحكومة فجأة بقيام الثورة . واختفت هيبة بيت الباشا منذ ان قبض على محمد محمود باشا وحبس كما يحبس غيره من الناس فتلاشى الخلاف حول جدوى التطلع الى استرداد الجزيرة وحلت معه إرادة موحدة على استردادها .

مع ذلك بقي الخلاف قائما حول وسيلة استردادها ، لا يعني كثير من أهل القرية كيف تسترد الجزيرة ، وعند كثير غيرهم تكون القوة هي الوسيلة الوحيدة . وكلهم بشر جاهلون أو خائفون وهما فريقان من الناس لايعترفون على أنفسهم بما هم عليه فتراهم جميعا نزاعين إلى الابقاء على الخلاف واللجاجة فيه المجهول والمعلوم . من يجهل يتعلم من خلال الحوار ، أما الخائف فلا يزايله خوفه إلا في جوف كثرة وحدها المصير . وقد تولى الكثرة تدريجيا مصاحبة الحرب التي لا يعلم أهل القرية أسبابها إنما أثرت في الكثرة فوفرت ظروف الوحدة خلال معايشة القرية يوما بعد يوم لمدة سنين أخبار القتل والقتال العنيف . ثم ما ان انتهت الحرب حتى جاءت أخبار الثورة ، الثورة مصدر للفخار إذ قوتها الضاربة في الأرض من الفلاحين مثل أهل الهمامية . كل هذا أذاب في أفئدتهم إنكار العنف واستنكاره بل نزع بهم شوق إلى ممارسته كشوق المريض الاستمتاع بالصحة إذا ما تم الشفاء . وكان شفاؤهم من المرض متوقفا على أن يتوفر لهم من السلاح ما تصل اليه اخبار يوم .

وقد حصلوا عليه من حيث لم يحتسبوا .

كيف ؟

اسأل نعمان ولد الشيخ عمار زيدان فعنده
الجواب .

قال نعمان :

كان والدي ، عليه رحمة الله ، يكره صديق محمود حماد لسبب أصيل يكتمه إلا عني إذ أنا أكبر أبنائه ، حين استقال المرحوم الشيخ محمد اسماعيل ، اختارت الحكومة الشيخ محمود عبد اللطيف ليخلفه كنائب عمدة إلى أن يولى على القرية عمدة يرشحه المشايخ . اختارته لأنه أكبر المشايخ سنا . لم يكن والدي يرى أن ثمة علاقة تفضيل بين السن وتولي المنصب . كان يرى أن أولى بالفضل أن يكون لشيخ أكبر العائلات مالا وأكثرها رجالا ، فكان ، يرى أنه أحق بالعمدية من غيره . ثم أنه وحده الشيخ الذي يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن . مع ذلك ، لم يكره الشيخ محمود عبد اللطيف . ربما لأنه لم يسع إلى المنصب الذي اختير له ، وربما لأن عائلتنا وعائلته من جدين أخين شقيقين وأن كانا أخين غير شقيقين لباقي الجدود ، والراجح ان والدي قد رأى " نائب العمدة " شاغلا منصب العمدية مؤقتا إلى أن يعين للقرية عمدة أصيل. لن يكون حينئذ غيره لولا صديق محمود حماد .

علاقته بيت الباشا الذين يختارون العمدة في كل قرى المركز ، وكالته عن بيت الباشا وكالة رسمية ، إدارته مزارع بيت الباشا في الجزيرة ، كل ذلك يجعل لصديق عليه درجة ، فيضعه منه موضع الغريم الأصيل فهو يكرهه ويخشاه معا ، لكنه يكرم كبرياء ولا يتحدث به حياء الا حين ينفرد بولده الكبير ، فكانه يشكو اليه .

إلى أن جاء يوم .

فوجئت وانا جالس مع والدي منفردين في منضرتنا بأن دخل إلينا صديق . السلام عليكم .. رددنا السلام واقفين . صافح والدي فرحب به ودعاه إلى الجلوس بجواره . جلس . هممت بان أنصرف فإذا بصديق هو الذي يستوقفني ويدعوني إلى البقاء .. التمست رأي والدي بنظرة فأذن لي بإيماءة . فسمعت حديثا عجبا .

قهوة ؟

بعد العتاب ياشيخ عمار فقد جئت عاتبا ومعاتبا

..

خير إن شاء الله ؟ ..

قال صديق : ياشيخ عمار أنت من أعيان بلدنا المرموقين ، ثم ان عائلتك أكبر العائلات في القرية، ولا يخفى عليّ ولا عليك أنني انتمي إلى بيت قليل الرجال .. ، فلا يخفى على حكمتك أنني وقد اخترت زوجتي من أكبر عائلات قاو الكبيرة ، قد قبلت لأن أهلها يعرفون ان عائلتكم قد قبلت منذ قديم الزمان تزويج ابنتهم بهية لجدى حماد ، وأنا منذئذ نعتبر فرعا من عائلتكم ، وقد دعوت عائلتكم في شخصكم الكريم لحضور فرح زفافي لتشرفونا وترفعوا رءوسنا أمام عائلة أصهاري الذين حضروا جميعا وكانوا يتوقعون حضوركم ، فلماذا قاطعتم الفرحة ياشيخ عمار ، لا أهمية عندي لمن لم يحضر من العائلات الأخرى ، ولكن عدم حضوركم أنتم أصهارنا منذ الجدود قد أخل بصورتي في أعين أصهاري الجدود ، فما الذي حدث مني يبرر مقاطعتكم فرحي ..

قال والدي : يا صديق حدث ما لم يحدث ..

ما هو ؟

لم توجه دعوتك إلا إلى عائلتنا وأولاد عيسى فلم نحضر لا نحن ولا هم ، لأنك يا صديق لم توجهها إلى باقي العائلات كما هو متبع في بلدنا . إن كانت بقية العائلات غير ذات أهمية عندك فهذا شأنك ، ولكن المساواة في التعامل مع العائلات وخاصة في المجالات ذات أهمية كبرى بالنسبة لكل العائلات . وقد تحدثت مع الشيخ محمود عبد اللطيف عن دعوتك الغريبة واتفقنا على أن حضورنا سيكون موافقة منا على بدعة تفضيل عائلة على عائلة التي ابتدعتها ، ولقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، فلم نحضر لا نحن ولا هم . إن الله لا يستحي من الحق .

وجم صديق . فخفف والدي من حدة كلامه وقال باسم : على أي حال مبروك " وعقبال ما تفرح بجواز أولادك " . ومد يده مباركا فتصافحا .

قال صديق الله يبارك فيك و " عقبال أولادك " .
إنما فقط أريد أن تعرف انت بالذات أنها ليست
غلطتي . إنها غلطة علي حامد ولد عمي الذي عهدت
إليه بتوجيه الدعوات إلى كل العائلات .

حصل خير .

لا يكون خيرا إلا إذا سامحتني والمسامح كريم .

وأنت تكرم في دارنا يا صديق .

هناك أمر آخر أرجو ان يكون عنوان إكرامك لي
ألا ترد رجائي فيه .

تفضل ..

منذ ان صاهرت أكبر عائلات قاو الكبيرة لاحظت أن
قد كثرت السرقات من زراعة القمح ، يسرقونه أخضرا
ليأكلوه فريكا ، ويسرقونه ناضجا قبل ان يحصد .
ويسرقونه من الاجران قبل أن يدرس .. ويسرقونه حبا
بعد الدراسة .. ويسرقون التبن بعد نقل الحبوب .
كما لاحظت انها كلها سرقات " حسنة " كما نقول .
ناس جوعانة تسرق لتأكل وما يسرقون إلا قليلا ،
لكنها على أي حال سرقة وقد تحريت الأمر فعرفت أن
فقراء العائلة الكبيرة التي زوجتني بنتها عددها
كبير . وأن كثيرا منهم يظنون أنني لو أمسكت أحدهم
وهو يسرق فسيشفع له عندي أصهاري . فاجترأوا على
الزرع ثم تجاوزت جرأتهم حدها فأصبحت استهتارا .
والاستهتار باب مفتوح للعدوان . ولما كان الحارسان
القادمان من ساحل سليم مشغولين بما كلفا به حصرا
وهو حراسة الوابور والماشية ، ولست أريد ان
يعرفوا مدى فداحة السرقات حتى لا تنتقل أخبارها
الى بيت الباشا فتنتقص عندهم مما يعتقدون في من
هيبة ، فإني في حاجة إلى " شاب جدع " يتولى حراسة
الطرف الجنوبي من الجزيرة ، ويختار من يساعده
واحدا او اثنين ، سأوفر له وللمن يختار المأوى
والسلاح وأجرا مجزيا ، ثلاثة جنيهات كل شهر على
مدار السنة وجنيهين لكل واحد من مساعديه . على أن
يقيموا جميعا في الجزيرة إقامة دائمة .

ولقد استخرت الله فاخترت أجدع أولاد بلدنا ، ولدك نعمان ، فأرجو موافتك إذ جئت اليك مستجيرا من الجيران . وضحك .

قال والدي : سأرد عليك غدا ، وما فيه الخير يعمله الله .

قال : ما رأيك ؟

قلت : لا أقبل أن أكون أجيرا عند رجل تكرهه .

قال : بل تقبل . أنني اكرهه وهو غير صادق فهو غير امين . لا حاجة بصديق اليك فلست أفضل من كثيرين يتمنون ما هو معروض عليك . إنه يريد أن " يربط " نفسه بعائلتنا وبني عن طريقك ، كما ربط نفسه بأكبر عائلات قاو عن طريق الزواج بعانس شمطاء ، إنه يعد من الآن مسوغات تعيينه عمدة ومن بينها صلاته الاجتماعية بالعائلات . ومع ذلك تقبل . بل تقترب منه أو تلتحم . لأنك حينئذ ستعرف كيف يفكر وماذا يدبر وتحيط بأسرار علاقته المريبة ببيت الباشا ، وقد يكون كل هذا مفيدا في يوم لا نعرف متى يجيء . وما نعرفه اليوم هو أنك لا تستطيع أن تنقل " تليس القيضي " من مكانها إلا إذا احتضنتها ورفعته منها ولا تستطيع أن تنحر الذبيحة وأنت بعيدا عنها . ثم أنه منذ ان قامت الحرب وارتفعت أسعار كل شيء اختلت الأمور وأصبحنا نبيع قدرا من المحصول بدلا من ادخاره للغذاء . وأصبحت الزوجات يحتفظن بالمهور ذهبا وفضة . فما ستقبضه أجرا سيعجل بزواجك إن شاء الله ، وهو بعد أكثر من مرتب وكيل شيخ الخفراء ، تقبل إذن ، وتحذر وعلى بركة الله ..

هذا ما أتذكر مما ذكر ، ذلك لأنه قال كلاما كثيرا تلقيته بعيون مفتوحة وآذان مغلقة بحلم اقتناء سلاح منذ ان ذكر صديق السلاح ومنذ ان قال والدي : إقبل .

انتقلت إلى الجزيرة ورابطت في مريض في جنوبها ، لحق بي ولدا عمي الزهري عبد الله وأخوه محمد عبد الله ، ثم فكري عبد النبي بعد مقتل محمد ظرفور ، لم يمدنا صديق بسلاح إلا بعد أن انضم إلينا فكري

عبد النبي . كان ذلك بعد زراعة القمح عام الفيضان الذي أغرق القيسي ، أمدنا صديق بأربعة بنادق رمنجتون وذخائرها . عرفنا أنه اشتراها من فكري عبد النبي .

ثم كثر السلاح ..

فقد كانت الجزيرة طوال سنوات الحرب تزرع قمحا. يعبأ القمح في اكياس يسع كل منها اردبا ، ويجمع التبن في " بالات " ضخمة مغطاة بالخيش ومحزمة بالحبال . في وقت معلوم تحضر في البحر صنادل تجرها غلايين ، تحمل القمح والتبن وتتجه شمالا ، يحرس كل صندل منها أربعة جنود وضابط من الانجليز ، استمر هذا سنة وراء سنة إلى أن قالوا انتهت الحرب . بعد ان قالوا بشهر جاء خبر هز المركز كله ولم يكن من الممكن أن نصدقه لولا أن بيت الباشا كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، وصديق وخفراء الوابور قد غادروا الجزيرة وساحل سليم إلى مصر . فقد قيل أن الانجليز قبضوا على محمد باشا محمود ورحلوه الى بلد بعيدة تدعى مالطة وحبسوه هناك . فكري عبد النبي أكبرنا سنا تولى الرياسة في الجزيرة وباشرنا الزراعة بعد ان استأجرنا " أسطى " من طما لتشغيل الوابور . فلما اقترب الحصاد احترنا فيما نفعل بالقمح والتبن ، إذ لم يكن من المتوقع أن الانجليز الذين قبضوا على محمد باشا وحبسوه سيعودون إلى شراء القمح والتبن من اخيه عبد الرحمن بك كما كانوا يفعلون من قبل .

قال فكري عبد النبي ، ننتظر ونرى .. انتظرنا.

باع فكري عبد النبي من المواشي في سوق طما ما وفر أجور العاملين في الحصاد والدراسة والأكياس والتعبئة ، لم نقبض نحن أجورنا ، قال ننتظر ونرى .. انتظرنا .

في موعد كل عام جاءت الصنادل وحراسها الانجليز. لم نعرف ماذا نفعل وصديق غير موجود . قال لنا ريس الصندل أن الانجليز يقولون أن وكيل دائرة بيت الباشا منتظر وصول الغلال والتبن في أسيوط ، قلنا نذهب معهم إلى أسيوط لتأكد مما

يقولون . قالوا واحدا فقط . قال فكري عبد النبي اذهب أنت معهم وستجدني قد سبقتم بالقطار . فقابلني في المحطة ، ذهبت بسرعة للسلاح . فقد كانت تعليمات صديق أن نخفي السلاح كلما حضر الانجليز ، وصلنا الى اسيوط بعد المغرب . رسونا قبلي " الحمرة " غادرنا الانجليز على أن يعودوا اليانا في الصباح ، قبل أن تمضي ساعة ، أي قبل صلاة العشاء ، تحول الليل في اسيوط الى نهار ، حريق فظيع امتدت السنة لهبه إلى السماء فأثارت الأرض والسماء ، قلت أذهب لاستطلع الخبر . ما ان اقتربت من الحمرة حتى رأيتها محاصرة ، أحاط بها الانجليز . آلاف من الانجليز . يقبضون على الناس ، كل الناس كبارا وصغارا ، ويرصونهم في صفوف طويلة تبدأ من النهر حتى الحريق . تتبادل أيديهم جرادل الماء وتنتقل من خلالها حتى تصل إلى النار ثم تعود من يد الى يد لتملأ من جديد ، الناس يصرخون والانجليز يصيحون والرصاص يدوي ، فزعت فهربت جريا معالجارين بعيدا عن الحمرة ونارها ، وجدتني مع عدد كبير من الناس يتزاحمون على دخول مركز البوليس القريب من الحمرة ، زاحمت ودخلت ، امتلأ المركز اناسا يتساءلون . عرفنا أن جبالا من التبن كان الانجليز يخزنونها قريبا من الحمرة إلى أن تنقلها القطارات قد احترقت " بفعل فاعل " طلع علينا المأمور ونحن وقوف في الحوش ، هالني أنه لم يكن مهتما بل كان مبتسما .

لا أنسى طلعتة وهيبته وابتسامته ، ولا أنسى اسمه .

رفع يديه فتوقفنا عن المهمة . قال : يا إخواني . ما بالكم هلعون . حريق مثل كل الحرائق اشتعل في تبن مثل كل التبن . فما بالكم هلعون ، التبن ليس تبننا بل سرقه الانجليز من إخواننا الفلاحين ، فما بالكم هلعون ، إن يكون صوت رصاص الانجليز فإن رصاص الانجليز يدوي في مصر المحروسة منذ شهور . فما بالكم هلعون ، إن كنتم تخافون الموت فقد قال الله تعالى لأفضل خلق الله محمد رسوله ونبيه " إنك ميت وإنهم ميتون " فما بالكم هلعون ، إن يكن منكم من يأسى على ان تلك خسارة تصيب بلدنا

مصر ، فمصر لم تعد بلدنا منذ ان استولى عليها الانجليز ، وأني لناقل إليكم أمراً تلقيته إن كنتم لا تصدقون ، يقتل بالرصاصة عمداً من ينتقل من قرية إلى قرية ابتداءً من مغرب هذا اليوم إلى أن يسمح لكم الانجليز بالانتقال في بلدكم . على كل منكم إذن أن ينصرف فوراً إلى بيته ، انصرفوا سريعاً وفوراً ، انطلق الناس يجرون إلى منازلهم حتى خلوا من المركز وبقيت أنا لا أعرف إلى أين أذهب ، استدعاني محمد بك كامل وقال لي برقة لماذا لم تنصرف فقلت أنا لا أعرف إلى أين أذهب وحكيت له حكايته ، قال هل تعرف كيف تنظف الخيول ، قلت أعرف ، قال فأنت معين منذ اليوم للمساعدة في تنظيف خيول المركز حتى يأتينا فرج الله .

قضيت الليل معالشاويش النوباتشي سمعان بخيت الذي قدم لي ، الله يستره ، عشاء وشايا ، قلت له ما الحكاية ياشاويش ، قال لقد قامت الثورة في مصر وامتدت إلى المديرية والمراكز والبنادر والقرى ، وسقط كثيرون قتلى مصريون وانجليز ، وربنا يستر ، والسبب ؟ قضى الليل يحكي لي أسباباً لم أفهم أكثرها ولكني فهمت أنها مثل ما قال : " جاء ضيف غريب وأنت في الغيط وطلب إليك أن تجيره مؤقتاً للضرورة ، فأقام عندك إلى أن أصبح آمناً . قلت له " تفضل من غير مطرود " فقال بل الأرض أرضي فماذا تفعل ؟ قلت بحماس شديد : " يوه أندب رصاصة في عينه . دي الأرض زي العرض " . قال هذه هي الحكاية . أنت المصري ومصر أرضك وجاء الانجليز يحتمون من الحرب ، انتهت الحرب ، قال لهم سعد باشا " تفضلوا من غير مطرود " قالوا بل مصر لنا ، فقام المصريون يقاتلونهم في كل مكان فهل تحب تشترك في القتال .

قلت طبعاً .. ألم أقل لك أن الأرض مثل العرض .

قال سأقدمك غداً إلى البك المأمور .

في صباح اليوم التالي أدخلني إلى حجرة المأمور وتركني وخرج بدون كلام .

قال لي محمد بك كامل هل أنت متزوج ؟ . قلت لا . هل لك أخوة ، قلت أربعة . قال : هل تريد ان تكفر

عن ذنبك ؟ قلت يا بك أنا لم أرتكب ذنبا قال :
أليس ذنبا أن تقدم خيرات البلد إلى الانجليز .
قلت: أنا لم أقدم اليهم شيئا . إنها أرض الحكومة
وقمح عبد الرحمن بك محمود . قال : لو لم تكن أنت
وباقى الفلاحين قد زرعتم الأرض هل كان عبد الرحمن
محمود يزرعها ؟ . قلت لا . هل كان الانجليز يحصلون
على خيراتها ؟ . قلت ، لا تؤاخذني يا بك الأرض أرض
الحكومة . قال اجلس . أغلق الباب واجلس . أغلقت
الباب وبقيت واقفا . ، قال اجلس يا نعمان . قلت
العفو يا بك . نهرني وقال اجلس فجلست . قال
مبتسما من الذي قال لك أن الأرض أرض الحكومة . قلت
الحكومة . قال طيب يا نعمان افترض انه لا توجد
حكومة فلمن تكون الأرض ؟ قلت لأهل البلد . قال
عظيم ، هل تعرف من هو رئيس الحكومة ، قلت لا ...
ضحك ثم قال : آه نسيت أن أسألك عما إذا كنت تقرأ
الجرائد . قلت أني لا أقرأ ولا أكتب مع ان والدي
يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن . أني أقيم منذ سنين في
الجزيرة ولا أغادرها فلا أعرف ما يدور في الدنيا .
قال رئيس الحكومة يا نعمان اسمه حسين رشدي باشا
هل سمعت عنه . قلت لا . قال استقال . استعفى . فلم
تعد هناك حكومة في مصر . قلت بلهفة فرحة الحمد لله
يا بك . قال علىماذا تحمده . قلت الحكومة غارت
وكبير بيت الباشا محمد باشا محمود محبوس في آخر
الدنيا . وأخوه سافر إليه ، يبقى خلاص والحمد لله .
قال : خلاص من ماذا يانعمان . قلت خلاص من الذين
أخذوا الجزيرة من بلدنا وحرموا اهلها من خيرها .
والله لو كان أحد قد قال لي أنه لا توجد حكومة لكنت
وزعت المحصول على أهالي البلد . " لكن ماحدث
قاللي " . قال : لا يا نعمان لن تعود اليكم
الجزيرة إلا بعد طرد الانجليز لأنها جزء من أرض مصر
ومصر كلها تحت يد الانجليز ، فماذا تقول . قلت ،
يقال أن رجلا اسمه سعد باشا يقاتل الانجليز ليطردهم
من مصر . قال هذا صحيح ومعه الشعب كله . قلت وهل
إذا انتصر سعد زغلول باشا وطردهم الانجليز من مصر
تعود الجزيرة إلى الهامية ، قال إن شاء الله ،
المهم الآن طرد الانجليز . قلت خلاص . قال ماذا تريد
ان تقول ، قلت أنا وبلدنا كلها مع سعد زغلول
باشا، قال ما الذي تستطيع أنت أن تفعله . قلت ما

تأمر به يا بك . قال عظيم . انتظر في حجرة
السلاحيك إلى أن ادعوك .

بعد ثلاثة أيام ألبسني الشويش سمعان بخيت بدلة
عسكري قديمة من غير طربوش وأخطني في جوف " البوكس
فورد " حيث وجدت ثلاثة آخرين لم أتبين وجوههم بسبب
الظلام . غلقالسائق الباب الخلفي وسار بنا البوكس
حتى وقف في حارة ضيقة ومظلمة لا أعرفها . جاء
السائق مسرعا وأنزلنا مسرعا ، وفتح باب الحديقة
مسرعا ، ودفع بنا الى داخله ثم غلقه وغادر المكان
مسرعا ، خرج إلينا من بين الشجر شخص يحمل فانوسا
باهت الضوء . قادنا على ممر قصير انتهى بنا إلى
باب من حديد . أدخلنا منه وصعد بنا سلما ضيقا
انتهى إلى باب من خشب فتحه ، ودخل أمامنا فدخلنا
إلى حجرة مضيئة مليئة بالحلل والأطباق " وبوابير "
الجاز قال لنا انتظروا هنا إلى أن تتناولوا
العشاء وغادر المطبخ إلى داخل الدار . قدم شخص
آخر من باب جانبي فقدم إلينا طبيخا وخبزا ولحما
وأرزا وشايا بدون ان ينطق كلمة أو يسألنا سؤالاً ثم
انصرف . عاد إلينا الذي قادنا في الحديقة من
الباب الذي خرج منه وقال اتفضلوا الباشا منتظركم .
دخلنا إلى حجرة كبيرة مليئة بالمقاعد الوثيرة
مضاءة بكلوب قوي النور . الباشا على أحد المقاعد
وأمامه سبعة أشخاص آخرون جالسون على السجاجيد .
لمحت بينهم فكري عبد النبي فأسرعت إلى الجلوس
بجواره ، أخيرا شعرت بالاطمئنان . هممت بأن أسأله
همسا فأشار بأصبعه أن أسكت . سكت . كلهم ساكتون .
بعد وقت قصير دخل إلينا من باب كبير محمد بك
كامل ، قام الباشا ورحب به وتعانقا ، تأملنا محمد
بك وحين وقعت عينه عليّ ابتسم . قام فجأة وهمس
للباشا بما لم أسمعه فقال له تفضل وأشار إلى باب
حجرة جانبية ، جاء الذي قادنا في الحديقة وقال
للجالسين تفضلوا وسبقهم إلى الباب الذي دخله محمد
بك . هممت بأن أتبع الآخرين فشدني فكري عبد النبي
فبقيت جالسا بجواره . صعد الباشا سلما دائريا
عريضا إلى الدور العلوي . قبل أن يغيب عن نظري
حضر الذي قادنا في الحديقة قادما من باب المطبخ
ومعه الذي قدم لنا العشاء يحمل كل منهما خمس

بنادق وأكياس ذخائر ودخلا بما حملا الحجرة التي كان قد دخلها محمد بك ومن معه . بعد نحو ساعتين استدعانا محمد بك ، أنا وفكري عبد النبي ، فإذا بي أجد الغرفة خالية إلا منه . اختفى الرجال واختفت الأسلحة ، أبوابها كثيرة ، خرجوا من أحد الأبواب .

قال محمد بك لمن قادنا في الحديقة يا مقدس وهيب أطلب لنا ثلاثة اكواب شاي . جاء الشاي وشربناه . قال محمد بك استمعا إليّ جيدا . غدا . الساعة السابعة صباحا . سيمر البوكس خلف السراي ويقف عند الباب الذي دخلت منه يا نعمان . تركبا فيه . ستجدان بداخله أحد العساكر . سيقيد ايديكما بكلابشات وسيحملكما الى البداري ، ومعهم استمارة ترحيلكما الى محكمة البداري حتى إذا تعرض البوكس لتفتيش الانجليز في الطريق لا يقبضون عليكما ، ولكن قبل ان يصل إلى البداري سيفك قيدكما ويترككما بجوار حديقة " الزوايدة " التي لا سور لها ، وعليكما التسل والهرب الى بلدكما . سأترككما الآن وسيحضر اليكما من يوقظكما الساعة السادسة صباحا .

الباقي فكري عبد النبي يعرفه . السلام عليكم . نهض فجأة وبقينا وحيدين . أنا مذهول وفكري عبد النبي يتأملني ويضحك ويضحك ضحكات مكتومة .

ما الحكاية يا فكري ؟

ضحك وقال نم وسأحكي لك كل شيء غدا . في البوكس ..

قلت منفعلا : عليّ الطلاق إذا لم تحك لي الآن . قال : هل تزوجت من أسيوط لقد افترقنا وأنت أعزب . قلت ضاحكا برغمي على الطلاق ممن ساتزوجها . قال فكري : أهدأ وسأحكي لك .

(٩)

ركبت من طما قطار الليل القادم من قبلي على أمل ان اسبقك ونلتقي في محطة اسيوط صباحا كما اتفقنا . حين اقتربنا من اسيوط رأينا النار مشتعلة فيها غربي الحمرة ، وعندما وصلنا إلى

المحطة وجدناها شعلة نار فلم يتوقف القطار واستمر في طريقه بأقصى سرعة حتى اقترب من ديروط . فرمل فجأة حتى أن الركاب وقعوا على الأرض . ذهبت مع بعض الراكبين إلى سائق القطار أو الكمساري ، من نجده ، لنستطلع الأمر . اعترضنا نحو عشرة من الانجليز كانوا يركبون معا عربة خاصة . نزلنا من القطار وعدونا نحو سائقه . قال لنا أن القضبان قد انتزعت. بينما كنا نتحدث اجتمع كثير من الركاب ، وحضر ثلاثة من الانجليز . تحدثوا بغضب شديد الى سائق القطار ، لا أعرف ماذا قال لهم ولكني شاهدت واحدا منهم يطلق عليه الرصاص . فهجم الواقفون على الانجليز وذبحوهم ، وهموا بأن يذهبوا إلى من بقي من الانجليز في العربية فقلت لهم لا تفعلوا . ننتظر إلى أن يحضروا واحدا واحدا أو اثنين اثنين ليستطلعوا أخبار زملائهم ، وهذا ما حدث . قتلنا واحدا ، ثم اثنين ، ثم لم ننتظر . هاجم الرجال عربة القطار فوجدوا الباقين منتظرين فقتلوهم برصاص بنادق من سبقوهم وبالسكاكين جمعنا الجثث وأركبناها القطار ووضعناها عارية في العربية أعجبتني بندقية أحد القتلى أولا فاشتركت بها مع من قتل الأخيرين . عدت جريا على الطريق الى اسيوط . ما أن غادرت القطار حتى فوجئت باثنين من الانجليز هاربين . لا أعرف أين كانوا أو من أين أتوا . رأوني ورأيتهم إذ تقابلنا وجها لوجه . أحدهما يحمل طبنجة والآخر لا يحمل سلاحا . قبل أن يرفع يده بالطبنجة كنت قد اطلقت عليه رصاصة أصابته في ذراعه ، انشغل رفيقه به وجريت أنا عائدا ، قبل الفجر كنت قد وصلت الى الترعة الإبراهيمية . دفنت البندقية في جسرهما ، وخلعت ملابسني ، رفعتها بذراع وعديت الترعة بالذراع الآخر . لبست " هدومي " وتقدمت مشيا إلى المدينة ، حين اقتربت من المستشفى الأميري وجدته محاصرا بالانجليز . فاتجهت رأسا إلى الكنيسة القريبة منه . وجدتها مليئة بالناس . منهم قساوسة ومشايخ معممون وتلاميذ كثير يهتفون باسم سعد باشا ، بقيت معهم حتى هدأت الأمور ظهر اليوم التالي . تسلفت ذاهبا إلى سراي بيت ويصا . كنت قد جئت إليها مع المرحوم محمد ظروفور قبل ان يقتل . عرفني ويصا بك واستقبلني وتحدث معي

عن حديقته وعرض عليّ حراستها ، بعد أن سمعت حكايته
سمع حكايتي وقال لي لاتغادر هذا المكان قبل ان
أقول لك . في الظهر ركبت الكمبيل الملاكي وراء
السواق . السواق رخي ستائر على شبابيك الكمبيل .
قلت للسائق إلى أين يابيه . قال ستعرف . دخل
بالسيارة في حديقة سراية جورج بك خياط ، هذه التي
نحن فيها وأنزلي ويسلمني لأحد الخدم الذي سعد بي
السلامك ، في المساء حضر أشخاص لا أعرفهم وانتظروا
حتى حضر البك المأمور ، كون منهم فرقا ، كل فرقة
من ثلاثة ، وأمدهم بالسلاح ، وطلب منهم الانتشار في
شوارع أسيوط وحواريها ومهاجمة الدوريات الانجليزية
والاستيلاء على سلاحها والعودة بها إلى المركز فرادى
قبل الفجر ووضعها في البوكس الذي سيكون واقفا
أمام مدخل المركز ، ثم الانصراف والالتقاء في هذه
السراي بعد ثلاثة أيام .

بعد أن انصرفوا بدأ التحقيق معي . سألني ألف
سؤال ليعرف ويتأكد من شيء واحد . هل يكون أحد
الانجليز من الذين واجهتهما قد تحقق من شخصيتي ،
وهل إذا قابلني يتعرف عليّ ، وهل إذا لم يقابلني
يستطيع ان يذكر أوصافي ، وهل وهل . قلت إجابة على
كل الأسئلة إنني لا أعرف فقد كان الوقت ليلا ولم يكن
ضوء القمر كافيا ، قال انتظر إذن إلى أن ندبر لك
وسيلة تعود بها إلى بلدك سالما .

وقد سمعت أنت الوسيلة .

قلت ما شاء الله ، ونخرج من المولد بلا حمص .

قال ماذا تقصد ؟

قلت : نريد سلاحا .

قال : لا تعجل . انتظر وسترى فترضى .

عدنا إلى البداري مكبلين ، وعدنا الى
الهامامية سائرين على الأقدام بمحاذاة شط البحر إلى
أن وصلنا إلى الجزيرة . بعد اسبوع حضر صديق . لم
يسأل عن القمح أو التبغ . سألناه نحن . قال ليس
هذا من شأنكم . الثمن يدفع عادة في شارع الفلكي
وقد دفع . تحاسبنا وأخذنا أجورنا . قال فكري عبد

النبي استأذن أنا يا صديق فقد رزقني الله عملا آخر .
قال أي عمل وأين . قال : لقد عينني ويصا بك خفيرا
لحراسة حديقته في الرياينة حينما علم أنني صديق
المرحوم محمد ظروفور ، قال غاضبا انت حر ، فقط لا
تنسى أنك أنت الذي اخترت مفارقتي حين ياتياليوم
الذي تندم فيه علي ما اخترت .

تركنا فكري عبد النبي بعد أن اتفق معي على أن
أزوره في الرياينة إذا أرسل إليّ رسولا . بعد نحو
شهر أرسل إليّ والدي من يبلغني أنه يريد أن أذهب
إليه . ذهبت . دخلت الدار . خير . قال خير إن شاء
الله . جاء رسول من عند فكري عبد النبي يقول إنه
يريد أن يراك ، توجهت ساعتها إلى الرياينة على أن
أعود قبل المغرب ، قبل ان يمنع الانتقال بين
القرى، ذهبت فرأيت فذهلت ، قال فكري عبد النبي
اختر لنفسك أية قطعة تريد فقد وعدتك بالسلاح وها
هو أمامك ، الدار التي كان يسكنها محمد ظروفور
وسكنها فكري عبد النبي مليئة بالصوامع . كانت
امرأة محمد ظروفور تهوى وتتقن انشاءها . الآن تحولت
الصوامع إلى مخازن أسلحة من كل نوع وعليّ أن
أختار . اخترت قطعتين . قال فكري عبد النبي قطعة
واحدة فقط إلا إذا كان السلاح مطلوباً لأمر محدد .
إنه أمانة . استلمته بالعدد واستأذنت فيقطعة لك
وقد أردته بالعدد لمن أنا مسئول أمامه .

قلت من هو يا فكري ؟

قال لم تسأل . ما فائدة السؤال . لو سألتك أو
سألك أحد غيري عما جرى لنا في اسيوط . ومن آوانا ،
ومن كلبشنا ، ومن أوصلنا إلى البداري فهل تقول .
قلت لا والله . وقد سألني والدي عن سر غيلبي فقلت له
أنني مرضت في اسيوط . قال ممتعضا : " وين في
اسيوط ، في الوسعة ، غور من وشي " . فغرت . ضحكا .
قال فكري عبد النبي . إننا نحضر ليوم كبير وإلا
فلماذا استخدمني ويصا بك ، إنه رجل عظيم من رجال
سعد باشا وقد اعتاد ان يحضر إلى هنا كل اسبوع
بالكمبيل وفيه سلاح .

قلت ألا يخاف ان يمسكه الانجليز ؟

قال لا يستطيع الانجليز مساس شعرة من رأسه .

لماذا يا فكري من هو .. ملك ؟

قال لا . بس قنصلاتو أمريكياني .. حماية أمريكياني .

قلت : سبحان الله . ربنا قادر على كل شيء . هل سيساعدنا في استرداد الجزيرة .

قال :بعد الثورة لن يسترد أحد السلاح منا فنسترد جزيرتنا بإذن الله إذا لم يرودها لنا . فقلت سمعت في اسيوط أن قد سقطت حكومة الباشوات التي يرأسها رشدي بك . وغدا تنتصر الثورة وتقوم حكومة الفلاحين .

قلنا معا . آمين ...

(١٠)

قال الشيخ عباس كانت تلك أسوأ أيام حياتي ، فعلى الطريق إلى الهمامية ، وأنا غارق في مستنقع الحزن على يونس عبد الله ، عاجز عن انقاذه ، تحدث عزيز حسين حديثا قائدا ، أمرا ، موجهها ، مؤنبا ، ساخرا ، ولكنه صادق في دلالاته جميعا . كانت كلماته ونبرات صوته كأبر مسنونات يخرق بها قرابة منتفخة فتفرغ محتواها الكريه . حتى إذا ما داهمني بأنني لا أعرف شيئا عن الجزيرة ، ولم أهتم بأن أعرف شيئا عنها وهي فردوس القرية المفقود ، بالرغم مما أدعيه غرورا من علم بما ينفع الناس وما أظهره اصطناعا من اهتمام بهم ، بدأت أشعر بأنني أتلاشى ، وتمنيت لو أنه رحمني فتوقف عن الحديث . ولقد كدت أرجوه لولا ماربتني عليه القرية من أن استجداء الرحمة من غير الخالق هو قاع هاوية الذل وشرك بالله . ولقد أصبح حديثه ساخرا كما لو كان يستمتع به حين قال أن والدي قد باع أغلب ما كان يملك واشترى الجزيرة فاستردها لأهل القرية بعد عودتهم من الشتات وإن في بيتكم ذاته حجة البيع والشراء تستطيع ان تقرأها لو استبدلت بقراءة الصحف قراءة أوراق والدك .

قلت لوالدتي فور عودتي بصوت واهن متوتر
استنكرته أريد أن أرى أوراق والدي . فدست يدها
المعروقة داخل " السحارة " العتيقة وأخرجت أنبوبة
غليظة من الصفيح الصدىء ودفعتها إلى بغضب صامت .
حملتها مهرولا بخطى مضطربة إلى " منضرتي " وغلقت
على الباب ونبشت أوراقها وأنا ارتجف أو أكاد .
كنتفي أعماقي أتمنى ألا أجدها لأجد نفسي الضائعة .

وجدتها ..

ورقة كالحة ، ممزقة الحوافي ، عطنة الريح ،
عليها كتابة تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

" إنه في يوم ٧ شوال سنة ١٢٨٦ بعد هجرة
الرسول عليه السلام بدار الشيخ محمد إسماعيل جودة
شيخ مشايخ بنزلة همام بك المشهورة باسم الشيخ
جابر قسم صدفا أسبوط " كلمة غير مقروءة " وبوجود
الشيخ حسن إسماعيل ووجود معوض مسعود قد قبض
واستلم محمد آغا شمشرجي لطيف باشا المقيم الآن في
نزلة همام بك من محمد إسماعيل جودة مبلغ قدره
ستين جنيه بنتو ومائة جنيه فرنكي وقد باع له ستون
فدانا والمنزل الذي بها والشجرات الكائنة في
قبالة الدير في زمام العزبة المنوه عنها المشهورة
بانعام فخامة لطيف باشا حضرتاري وقد قبض المبلغ
بالتمام والكمال واصبح البيع باتا فروغا ونزولا لا
رجوع فيه والمشتري استلم الأطيان وعليه دفع أموال
الدوان . وقد تحرر هذا للعمل بموجبه عند اللزوم "

شاهد بذلك	شاهد بذلك	المقر بما فيه
حسن اسماعيل	معوض مسعود	
"ختم"	" ختم "	

كاتبه

محمد آغا شمشرجي

قرأتها عدة مرات حتى شعرت بعرق بارد يتصبب
على بدني ، وجفاف في حلقي ، وكأن " الكاكولة " قد

أطبقت على صدري فضاك نفسي لولا أنني خلعتها ، ثم تراخت يداي حتى سقطت الورقة فانتبعت مذعورا وأعدتها إليّ ثم دستتها بين أوراق المصحف وأعدته إلى مكانه بين الكتب ونمت نوما أقرب إلى الإغماء .

ولقد عرفت حين أفقت بعد نحو أربعين يوما أنني قد مرضت مرضا كاد يفقد أهلي الأمل في الشفاء . وأنه كانت نوبات متصلة من الإغماء كان جسمي خلالها يكاد يحترق من الحمى ، وأنهم قد عالجوني بكل ما يعرفونه من الأعشاب ، وحمامات الخل ، وعصير الليمون ، وأحجية شفاء كتبها مشايخ مشهورون في القرى القريبة والبعيدة ، وأن والدتي التي نقلت مقرها إلى منضرتي قد أصرت على ألا أنتقل أو أنقل من داري لألتمس الشفاء في أسيوط عند الأطباء ، فهي تحس بقلبها ، وقلب الأم لا يخطيء ، أنني لو انتقلت من هذه الدار سأنتقل إلى الدار الآخرة خاصة أنها لن تكون معي لضعفها كيفما يكون الانتقال ، وقيل لي أن أهل القرية كانوا يسألون عني ولا يزورونني لأن أمي منعت الزوار من غير بيت إسماعيل حتى لا يقول أهل القرية أنني جننت ، ذلك لأنني قضيت أغلب أيام مرضي الطويلة لا أكف عن " الهلوسة " سرا أو جهرا وأنني كنت أردد كلمات لا يجوز أن يسمعها غير أمي أو أخوتي الذين صبروا عليّ صبرا أيوب ..

إلى أن زغردت نعيمة ..

قالت والدته بخاتي بنت عبد اللطيف لقد صعب عليّ أن يرى أحد ولدي فيما كان عليه من مرض وجنون فانتقلت إلى " مطرحه " لأرعاه بنفسي ومنعت زيارته ، منعت زوجتي أخويه ، وأعمامه وأولادهم وأولاد خاله ، كل الناس منعتهم سترا لمصيبته ، مرسي واسماعيل فقط كانا يدخلان عليه كل يوم ينظران إليه من بعيد ويسألانه عن حاله ثم ينصرفان وهما يبكيان . لا . مرسي هو الذي كان يبكي ، ولما تفاقت حالته وعجزت منفردة عن ان أقضي ما هو في حاجة إليه أرسلت إلى نعيمة بنت جاد الكريم التي كنت قد آويتها وداويتها يوم ان عادت من الرياينة بعد مقتل زوجها ، فحضرت فاتفتت معها على أن تبقى معي ونرعى معا ولدي عباس وتكتم سر مرضه ، وافقت ، الله يسترها ،

وظلت مقيمة تخدمه وتخدمني ورسول بيني وبين صفية وبخيتة طوال الشهر الأخير ، فلما بدأ يسترد عافيته انفقت معها على أنه حين يفيق ويقعد ويأكل ويتكلم تخرج من المنضرة إلى الحوش وتزغرد زغرودة تسمعها كل البلد ، فوعدت وأوفت فعرف أهل البلد أن عباس بخير وتوافد الزائرون .

كان أول الوافدين مرسي واسماعيل وعمه الحاج مشهور وعمه عبد الرحيم أحمد وولد خاله عبد اللطيف فتركت لهم المنضرة وعدت إلى " مطرحي " داخل الدار تساندني نعيمة فزغردت صفية وبخيتة ونعيمة مرة أخرى .

(١١)

بعد نحو اسبوع زارني الشيخ محمود عبد اللطيف نائب العمدة والشيخ عمار زيدان وأحمد عبد اللطيف وعزيز حسين وسيد عبد النبي وعمي مشهور وعمي عبد الرحيم أحمد معا ، قادمين من المسجد بعد صلاة الجمعة ، فاستقبلهم مرسي أخي وقد وجدني جالسا وبخير ، ذكرت لهم طرفا مما كنت أعانيه واذكره من كراهية الأكل وشعور كاذب بانتفاخ في البطن والكوابيس المتكررة فحمدوا الله على أنني نجوت من الحمى ، وتطوع عزيز حسين فقال أن سبب كل هذا ضربة شمس تحولت إلى حمى لأن الشيخ عباس كان قد نزع العمامة طوال المشوار من البداري والشمس حارقة ولما هموا بالانصراف قلت لعمي مشهور أريد ان اتحدث معك ياعم وأنت كبير عائلتنا وفي حضور كبار العائلات . أريد أن أعرف منك ومن كل من يتذكر ما هي حكاية الجزيرة " من طقطع لسلاموا عليكم " صمتوا جميعا وهم يتبادلون النظرات . وقام الشيخ محمود عبد اللطيف وقال ما دام الأمر كذلك فأنصرف أنا لأنني لا أعرف شيئا عن حكاية الجزيرة ثم خرج . خرج على أثره عزيز حسن . قال عمي مشهور ممتعضا : أولا تعرف يا ولدي ؟ كيف إذن عرفت أباك وأمك وأخوتك وعائلتك وبلدك .. قال سيد عبد النبي لا تقسو عليه يا مشهور لقد عاش مغتربا في مصر . قلت خجلا : أريد فقط ان أعرف فقد وجدت بين أوراق والدي " حجة "

شراء الجزيرة فكيف بدأت الحكاية من البداية أي من قبل الغارة .

تحدث عمي مشهور وعمي عبد الرحيم أحمد وروى أحمد عبد اللطيف ما سمعه من أخيه ومن والده . واسهب سيد عبد النبي أكبرهم سنا في سرد تفاصيل أحداث الغارة . وختم الشيخ عمار زيدان الحديث بما حدث حين زيارتهم الساحل ومقابلة عبد الرحمن بك محمود وأكد أن عبد الرحمن بك كان سيترك الجزيرة لأهلها لولا صديق حماد . وهكذا عرفت قصة الجزيرة ، لما أن وقفوا لينصرفوا قال لي عمي مشهور بحدة : لكن يا ابن أخي ما فائدة هذه الحكاية . الجزيرة أخذتها الحكومة وأعطتها لمن أعطتها . ولا ننسى نحن العواجيز ما فعلت بنا الحكومة حين عارضناها . وقد سمعت من عمك سيد عبد النبي بعض ما حدث من بهدلة ، فأرجو ألا تتهور وتكتب عرائض ضد الحكومة فتعرضنا لما لا طاقة لنا به ، ثم ساخرا ، أم أنك تعرف طريقا سحريا لتأخذ الجزيرة في غفلة من الحكومة . قلت أردت فقط أن أعرف المشكلة ولكني لا أعرف كيف يكون حلها فلا تغضب يا عم . قال لست غاضبا ولكني خائف عليك . نهض مرسي فجأة وواجهنا قائلا : أنا أعرف . نظر إليه الجميع وقال عمي عبد الرحيم أحمد ماذا تعرف يا مرسي وضحك ساخرا وشاركه إسماعيل . قال مرسي بحزم قاطع . أستم تقولون أن الحكومة أخذت الجزيرة . ثم بجدية واثقة : " يبقى مافيش طريقة غير أننا ناخذ الحكومة فترجع لنا الجزيرة " تحول الضحك إلى قهقهة وانصرفوا جميعا بينما بقي مرسي واقفا منفعلا غاضبا من أن أحدا لم يفهم ما قال :

(١٢)

في مكتب الاستاذ أبو شقة . أصبحت لي ، أخيرا ، قضية هي ذات قضية أهلي .

رويت له ملخصا وافيا لقصة الجزيرة ورجوته فيما يشبه الاستغاثة أن يرفع قضية ترفع ظلم الحكومة عن أهل القرية وترد إليهم جزيرتهم . وأكدت له أنني المسئول عن أتعاب المكتب أيا كان

مقدارها ، وأن لدي الدليل القاطع على حقنا في الجزيرة ، وقدمت إليه الورقة .

قرأ الابوكاتو عبد الكريم ابو شقة الورقة مرة ثم مرة . ثم في المرة الثالثة أخذ يكتب ، كلما قرأ ، اسطرا على ورقة من عنده ، مد يده إلى صوان كتب وراء مكتبه وأخرج كتابا صغيرا ذا غلاف أسود . تصفحه ثم أعاده وعاد يقرأ الورقة . ثم كتب اسطرا على ورقة ثانية منعنده وألقى بالورقة الأولى في سلة المهملات ، أخيرا رفع رأسه ونظر إلى نظرة ثاقبة ثمقال ، قبل أن يقرأ من ورقته ، يا شيخ عباس أجب بصدق واختصار :

- هل تعرف لماذا لم يوقع والدك أو يختم على العقد وهو المشتري ؟

- لا .

- هل لديك اعلام وراثه بوفاة والدك وأسماء الورثة ؟

- لا .

- هل تعرف حدود الأرض المبيعة على الطبيعة ؟

- لا .

- هل لديك اثبات رسمي بأن نزلة همام بك هي الهمامية الحالية ؟

- لا .

- هل لديك اثبات رسمي بأن الجزيرة كانت تسمى قبالة الدير ؟

- لا .

- هل لديك شهادة رسمية بوفاة كل من حسن اسماعيل ومعوض مسعود ؟

- لا .

- هل لديك شهادة رسمية بوفاة محمد آغا
شمشرجي ؟

- لا .

- هل تعرف اسم ومحال اقامة ورثته ؟

- لا .

- هل تعرف من اين تستطيع الحصول على هذه
الأوراق الرسمية ؟

- لا .

ياشيخ عباس ، هذه الأوراق لازمة نها الحد الادنى
لاثبات جدية المطالبة . بعد هذا يأتي تطبيق
القانون . وفي قضيتك هذه تتوقف النتيجة على اثبات
وضع يدكم على الأرض لمدة مستمرة لا تقل عن خمس
سنوات من تاريخ العقد . دعنا الآن نركز على جدية
المطالبة خاصة وأن خصمك في الدعوة ستكون الحكومة
ورثة محمد آغا شمشرجي . واني لارد اليك مستندك
أسفا . يمكنك العودة الى المكتب اذا رغبت بعد
استيفاء مستندات الاثبات . هاهي مكتوبة على ورقة
من مكتبي يمكنك الاحتفاظ بها لتهدي بها الى أن
تستوفيتها .

قلت لا أعرف من أين استوفيتها .

قال كلها ماعدا البند الأول أوراق رسمية . وكل
أصول الأوراق الرسمية تحت يد الحكومة تجدها في "
الحفظخانة " بالقلعة في مصر ، ان اردت فاذهب الى
مصر واطلب صوراً رسمية من تلك المستندات . ولأسهل
لك الأمر بقدر ما أستطيع خذ هذه البطاقة وقابل
الاستاذ محمد علي بك علوية المحامي . عنوان مكتبه
مكتوب على البطاقة . وقد كتبت اليه على البطاقة
أوصيه بك خيراً وان كان لا يحتاج الى توصية حين
يتصل المر بأحد أبناء اسيوط فهو " بلدينا "
بالاضافة الى ما هو معروف عنه من الشهامة والشجاعة
والكفاءة .

قلت : هل تسمح لي بسؤال .

قال : طبعاً تفضل .

قلت : ما دامت أصول هذه المستندات تحت يد الحكومة فلماذا أطلبها ولا تقدمها هي .

قال : لأن القانون يضع عبء الاثبات على عاتق المدعي وليس المدعى عليه وأنت في موقف المدعي .

قلت : ما الذي يحدث لو أن المدعي لم يتمكن من الحصول على المستندات من الحكومة .

قال مبتسماً ابتساماً ساخرة : يخسر قضيته .

قلت وأنا عاجز عن الفهم : حتى لو كان الحق معه .

قال ضاحكاً : حتى لو كان الحق معه شيخ عباس .

شعرت بأنني اثقلت على الرجل الكريم فأخذت أوراقاً واستأذنت في الانصراف وأنا اتذكر حكمة الشيخ محمود عبد اللطيف حين سخر منغفلة الذين " يشكون الحكومة الى الحكومة " .

قال الشيخ عبد الجواد وهو يرحب بي في فندقه هل قرأت جرائد اليوم ؟ قلت : لا ، هل ثمة أخبار جديدة . قال نعم . لقد انكسر الجيش التركي ودخل اللينبي فلسطين واستسلمت تركيا . قلت قبل أن أفكر: الحمد لله . قال أتحمده يا شيخ عباس على هزيمة دولة الخلافة . قلت : دولة الخلافة لم تكن طرفاً في الحرب يا شيخ عبد الجواد إنما هي دولة الاتحاد والترقي ، واللهم لا شماتة ، ولكني أحمده على عودة يونس عبد الله ألف حمد . قال : ومن هذا المسمى يونس عبد الله . قلت : واحد ممن اخذتهم السلطة ، أعز واحد عندي . قال بسخرية : الله يشفيك وهم بالانصراف فرجوته أن يأتيني بإحدى جرائد اليوم .

قرأت : انتصار حاسم لجيوش الحلفاء . جيوش الحلفاء تجتاح العراق وتدخل بغداد . اللينبي يكتسح الحشود التركية على الحدود الشرقية ويتقدم في فلسطين . ايقاف عملية الجمالة (المتطوعون) . مائة وسبعون ألف متطوع يعودون الى الوطن .

حملت الصحف وعدت الى القرية أكاد أطيير فرحا لولا أن الحمار الذي حملني وراء صاحبه العائد من البداري مبالغ في بلاذته . حمار . لو لم يكن حمارا لأدرك أنني احمل الى القرية بشرى " قرب " عودة ابنها يونس عبد الله فطار . ولكنه حمار . أما صاحبه فهو انسان عديم الاحساس . سألني ما سبب فرحتك . قلت له أن يونس عبد الله سيعود من السلطة . قال ببلاذة باردة هل أنت متأكد . قلت قرأت في الجرائد أن كل الذين أخذتهم السلطة سيعودون . قال ببرود بليد هل ذكروا يونس عبد الله في " الجرنان " قلت لا ، قال : هل قالوا في " الجرنان " إن الذين ماتوا سيعودون . قلت لا : طبعا ، قال : اصبر اذن الى أن يعود يونس عبد الله ثم افرح كما تريد . كما لو كان قد صب على رأسي دلوا من الماء البارد . انكتمت بعد صمت طال حتى وصلنا الى " المصي " وبانت القرية من بعد ، قال يا شيخ عباس هل " زعلت " قلت بحدة طبعا ان يونس عبد الله عزيز علي . قال بذات البلاذة الباردة : يا شيخ عباس أنا لا أقرأ ولا أكتب فلا أعرف ما تقوله " الجرائين " ولكن أعرف بلدنا وكيف تفكر انصحك ، لمصلحة البلد لا لمصلحتك ، أن تكتم الخبر حتى يعود يونس عبد الله . انك اذ تذيعه كما صدقته ستدق الطبول وتقام الفراح لأن أهل بلدنا قد اعتادوا تصديق ما تقول . " فلنفرض " أن يونس عبد الله قد مات ، فهل يرضيك أن تتحول أفراح البلد الى جناز وكيف يكون موقفك . أصبر يا شيخ عباس . الصبر جميل وان الله مع الصابرين . لا مانع من أن تقرأ لهم الجرائد كعادتك ولكن لا تبشرهم بعودة يونس ولا تضيف لبي الجرائد امنياتك الشخصية أنت رجل متعلم فكيف يغيب عنك كل هذا . . لقد وصلنا وسأتركك عند " تاية ولد سطوحي " لأنني ذاهب الى الجزيرة ، وتكمل انت طريقك الى بيتك مع السلامة و " تزعل " مني .

قابلت كثيرين في الطريق الى بيتنا النظرات باردة والتحيات مقتضبة ، كما لو كانت القرية غاضبة . دخلت دارنا الى منضرتي فوجدت عمي مشهورا وأمي يتحدثان ، وامرأة " تزغنفت " وخرجت جريا فلم استطع تبين من هي . احتضني عمي مشهور حامدا الله

على سلامة عودتي وصافحت يد أمي وهي تصافحني ، ثم قلت " جلسة في الحرم " قالا معا : عقبالك وصمتا . قلت قاطعا الصمت ، من هذه التي جرت " مزغنفة " خارجة حين دخولي . قالت أمي " دي نعيمة " قلت مستغربا ولماذا تجري نعيمة وتزغنف كأني غريب .

قالت أمي وعلى غمها ابتسامة عريضة : يرد عليك الحاج عمك مشهور ، أما انا فسأترككما لحديث لا يدور الا بين الرجال ..

قلت : ايه الحكاية يا عم مشهور .

قال : يا ولدي لقد كنت مرضت " مرضة وحشة " لمدة طويلة فقدت في أغلبها وعيك ، فانتقلت والدتك الى هنا لتكون معك ولتحجبك عن عيون الآخرين حتى لو كانت عيون زوجتي اخويك .. ولقد كنت تقول مالا يقوله عاقل . ولم تكن قادرا على أن تتحكم فيما يدخل جسدك أو يخرج منه . وكنت في حاجة متكررة للاغتسال واستبدال الملابس فلم تستطع أمك بحكم سنها أن تؤدي لك ما كنت في حاجة اليه وأن تسترك . فاستعانت بأرملة محمد ظرطور على ما كنت عليه . ولقد صاحببتها - الله يسترها - أغلب أيام مرضك وأشدها حرجا . ولم يكن كل هذا أو حتى بعضه يعجب الناس أو يتفق مع علاقات بلدنا وعاداتها . ولقد بدأ الحديث همسا وتردد جهرا في لقاءات الموردة حيث لم ينسبوا اليك ولا اليها ما يشين فقد كان مرضك شائعا ولكنهم توقفوا عند عجز أمك منفردة عن أن تقوم بجهد اغتسالك المتكرر واستبدال زوجتي ولديها بنعيمة . ويعلم الله أنها لو استعانت بزوجتي ولديها لما اعانتها على ما هو غير مباح إلا للأمهات والزوجات . فشاورتني في كيف تقطع ألسنة السوء ، وانتهينا ، هي وأنا وأخوك مرسي الى أن نخطب لك نعيمة على أن يكون الزواج بعد نجاتك من المرض . فذهبت أنا وأخوك وتحدثنا في هذا مع الشيخ محمود عطية كبير عائلة أولاد عمران . عائلة نعيمة . شاورها في الأمر فوافقت . وقرأنا الفاتحة . شاعت الخطبة في البلد ولكن صدقها بقي ، في الضمائر معلقا على مصيرك . فلما " زغردت " نعيمة وعرف الناس أنك قد عوفيت انتظروا الزفاف ولكنك ما ان عوفيت حتى شوهدت

خارجا من البلد الى حيث لا يعلمون ، فظنوا وبعض الظن اثم انك " مشيت " من البلد وأعادوا ذكر ما فعلت في مطلع شبابك . ولقد تفاقم الشك حتى كاد يكون اتهاما صريحا دعنتي أمك فحضرت لنتدبر ماذا نقول أو ماذا نفعل وانضمت الينا خطيبتك نعيمة ولقد دخلت فجة سعدنا بعودتك وحجبت نعيمة وجهها وانفلتت خارجة كما تحجب كل خطيبة عن خطيبها . فأرجو ألا نكون ، أنا وأمك وأخوك ، قد حملناك مالا تحتمل .

قلت صادقا : لا والله ياعمي ، انني قابل وسعيد بأن اتزوج " أنيسة " .. وضحكت . قال عمي وقد تجهم وجهه فبرزت غضونه : أنيسة من يا ولدي نحن نتحدث عن نعيمة فضحكت حتى كدت أثير غضبه .

قال بحزم ليس في الزواج ضحك ولا هزل يا ولدي . نعيمة محمد جاد المولى من عائلة أولاد عمران الذي هو أخ جدك الكبير مشهور أولاد فرج قداح فماذا تقول .

قلت : أقول ياعمي نعم اتزوج نعيمة .

فانفرجت أساريره كما لو أنني اخيرا صححت خطأ ارتكبته .

قال : على بركة الله . متى نكتب الكتاب . قلت : خير البر عاجله .. أرجو فقط ان تراعي (وكيت له بالتفصيل قصتي مع الجزيرة ، بما فيها خاتمها مما قاله الاستاذ أبو شقة من ضرورة الذهاب إلى مصر لا استخراج المستندات من دار المحفوظات ، وما يحتاجه ذلك من وقت طويل ومال وفير) .

قال عمي مشهور : بارك الله فيك . سنكتب الكتاب يوم الخميس القادم بإذن الله . وقد عرفت من أمك أنها منذ خطبت لك نعيمة " المهر جاهز " أما تكاليف سفر مصر والقضية فستشترك في توفيره العائلة كلها ويكون جاهزا بعد المحصول الشتوي .

ضحكت وقلت : وماذا عن تكاليف الفرع يا عمي .

فقال ساخرا : لازلت غريبا عن الهمامية ياعباس . ألا تعلم يا ولدي أن أفراح الزواج لاتقام في

الهامية إلا للبنات البكار . مبروك يا ولدي .
حمدا لله على سلامتك ، سأقوم لأذهب وأقابل الشيخ
محمود عطية لأبلغه بالموعد .

توقف وقال : كم ستكون المصاريف ؟ قلت لا أدري
ولكني اعتقد أن مصاريفي ومصاريف استخراج الأوراق
واتعاب المحامي لن تقل عن مائة جنيه . قال : لن
تتوافر إلا بعد ضم المحاصيل فلا تضم اليك زوجتك إلا
بعد أن تعود من مصر منتصرا باذن الله لأنك اذ تخرج من
جوارها بعد مدة قصيرة الى غيبة قد تطول تسيء
اليها بما لا تستحقه ، أما والدتي فقد قالت جادة :
" يا ولدي أريد أن أرى " قبل أن أموت ، ما يقولون
عنه أنه سرير بأعمدة من الحديد ودولاب بمرآة
كبيرة . وزواجك آخر فرصة لي " اصطنعت الجدية وقلت
لها : " أني ذاهب إلى مصر بعد جمع المحاصيل فلا
بد ، إذن ، من أرجاء " الدخلة " إلى أن أحضر هذه
الأشياء من مصر " .

وافقت وهي سعيدة . ولم أر زوجتي إلا بعد نحو
عام . والواقع أنني لم أنكر على القرية أن اختارت
لي ، بأساليب شتى ، الزواج والزوجة وموعد الزواج .
بل اعترف بأنني " ارتحت " حين أجابت عني على
أسئلة كثيرة عن رغبتي الزواج : متى ، وممن ، أين ،
ولماذا ؟ وكيف مانت تراودني من حين إلى حين وتبقى
بدون أجوبة .

وتفرغت لهمي المقيم : كيف ومتى يعود يونس عبد
الله من حيث ذهب بديلا عني .

(١٤)

كنت أتوقع ما أتمنى أن يعود يونس قريبا
فكأنني أردت أن أكون أول مستقبليه ، وهكذا قضيت
أكثر من شهر أذهب ثلاث مرات كل اسبوع إلى البداري .
أربط كل يوم في المقهى المواجه للكوبري ، مدخل
المدينة ، متوقعا أن أراه قادما ، جامعا كل ما
يصل إلى البداري من صحف أقرأ كل كلمة في كل واحد
منها لعلني أجد خبر عودته منشورا مع العائدين . كدت
أياس من عودته ففكرت ألا أعود إلى القرية لولا
الزوجة التي تنتظر .

ثم كدت أياس من حياتي فتمنيت لو لم أكن حيا .
ثم يأتي خبر منشور في الصفحة الأولى من كل جريدة
يعيد إلى الأمل وحب الحياة . انتهاء الحرب والاعداد
لمؤتمر الصلح قرأته وعدت استحث حماري لادرك القرية
سريعا وأعلن الخبر لأهل القرية ، أو أسر به لأم
يونس عبد الله خاصة ، لولا أنني تذكرت حديثا " بارداً
" سمعته من قروي حكيم من قبل فاكتفيت بأن اصطنع
الحكمة فأتلو على أهلي خبر انتهاء الحرب وأتجاهل
من سأل عن مصير الذين " أخذتهم السلطة " .

وتراكت الأخبار يوما بعد يوم حتى طردت من
ذهني يونس عبد الله وسيرته وبعثرت كل ما كان يشغلني
من أفكار متفائلة عن استرداد الجزيرة . وقد شغلني
ما توالى نشره عن كل شيء ما عدا تلاوة أخبار الصحف
التي احضرها ، كل يوم ، من البداري لأقرأها على من
يريد من أهل القرية وأذيعها وعلق عليها لمن
يريد. وقد كان المريدون يتكاثرون يوما بعد يوم
كما تطوع كثيرون باحضار الصحف أكثر أيام الاسبوع .

كانت أخبار الأيام الأولى محيرة :

قرأت أن الانجليز قد قبضوا على سعد زغلول
ومحمد محمود واسماعيل صدقي وحمد الباسل ونفوسهم
الى مالطة . ليه ؟ لم استطع أن أذهب إلى المأمور ،
ذات المأمور الذي زج بي في السجن من قبل ، فإذا
به يرحب بي كأنه يراني أول مرة ثم يسألني ما
شأنك ، فلما ان عبرت له عن رغبتني في فهم ما هو
منشور أو ما وراءه ، لم يجب . مد إلى يدا بحزمة
من الأوراق المطبوعة وقال : من أجل هذا " خذها
واجمع عليها توقيعات " ، ثم ضحك وقال فإن لك خبرة
في هذا ولا أقول " سابقة " .

أخذتها وخرجت بدون استئذان أو تحية .

قرأت في المقهى : " نحن الموقعين على هذا قد
أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا
وعبد العزيز فهمي بك ومحمود باشا واحمد لطفي
السيد بك وعبد اللطيف المكباتي بك ، ومحمد بك
أعضاء الوفد المصري ولهم أن يضموا اليهم من

يختارون في ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة
حيثما وجدوا سبيلا لاستقلال مصر التام " .
أحفظه طبعاً كما حفظه كل جيلي .

حيرني أن يكون من بينهم سعد زغلول ، عدو
الحزب الوطني ، الساخر من مصطفى كامل صديق الأميرة
نازلي فاضل مدمن لعب القمار ووزير مصطفى فهمي
خادم الانجليز كما حيرني أن أعرف هل محمد علي بك
هو الابوكاتو محمد علي علوية الذي اسعى لمقابلته
لاسترداد الجزيرة أو شخص غيره .

إن يكن هو فقد خاب مسعاي وانهارت آمالي وآمال
أهلي . ولقد دفنت تلك الآمال بعد يومين . نشروا
قائمة أسماء قيل أنهم أعضاء في الوفد . قرأت
واستعدت بالله من الشيطان الرجيم ودعوت الله أن يلطف
بنا ، رئيس الوفد محمود سليمان باشا ومعه خمسة
وأربعون كلهم باشوات وبكوات ، والأدهى أن من بينهم
عبد الرحمن بك محمود . لا حول ولا قوة إلا بالله . لا
أدري لماذا اعتبرتها مسلمة أن أعضاء الوفد هم ملاك
الراضي في بر مصر ميراثا أو ايجارا او استيلاء .
مادام الرئيس محمود سليمان والعضو الرئاسي محمد
محمود ، والعضو العادي عبد الرحمن محمود حارم
قرية الهمامية من جزيرتها وأن غايتهم استقلال مصر
ليستقلوا هم بأرضها دون الفلاحين .. فاستعدت بالله
..

لم اذع تلك الاخبار وإنما اذعت غيرها التي
غيرتني ..

اضراب الطلبة . اضراب المحامين . قطع
المواصلات في المديرية . مظاهرة السيدات . مذبحه
في قطار في ديروط . ثورة في زفتي . طائرات مائية
تسقط قنابل على اسيوط ، مذبحه في العزيزية ، ابن
القباقبي الطفل يقتل في طولون . كل الأمة تقاتل
الانجليز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاتجتمع
أمتي على ضلالة " . إنها إذن الثورة التي سمعت
الدعوة اليها منقولة عن جمال الدين الأفغاني يوم
ان كنت أتردد على مقهى متاتيا ، ثورة ضد "السلطة"
فعاد إلى ذاكرتي يونس عبد الله والشهيد محمد ظرطور

والغلبة الذين نهبت أموالهم والمساجين في زنازين التراحيل حتى رحلوا .. وأذعت كل تلك المعاني في الهمامية حتى جاء يوم جمعة فخطبت في المصلين عن الثورة وختمت الخطبة صائحا : يسقط الانجليز ، ردها المصلون ثم أضفت " يحيا سعد " فزار بها المصلون ، ثم ذهبت إلى منضرتي وبقيت حتى صباح اليوم التالي انسخ التوكيلات بخطي فيوقعها أو يبصمها من أدعوه ، أما من لم استطع دعوته فقد " بصمت له " وذهبت بها إلى ساحل سليم وسلمتها إلى محمود باشا سليمان في " الذهبية " .. وقد كنت أعرف من الخبر أن الانجليز قد أمروه بأن يغادر القاهرة فغادرها إلى ساحل سليم .

(١٥)

حددت يوما لزواجي بدون الاعداد " لفرح " كما هي التقاليد . غير أن الله أراد أن يكون ذاك اليوم فرحا للقريه جميعا . لعلت الزغاريد في كل البيت . ودقت الطبول في الرهبات وصدحت البنات بأغاني عودة الغائبين في الرهبات ، وتبادل الأهالي التهاني على المصاطب ، لا فرحا بزواجي ولكن لأن يونس عبد الله قد دخل القرية في ذات الليلة التي " دخلت " فيها .

بعد يومين طلب مني نعمان ولد الشيخ عمار زيدان وفكري عبد النبي أن استمع اليهما في خلوة . لماذا ؟ قال فكري عبد النبي حتى لا يعرف أحد . قال فكري أنه سرنا ونحن نأتمنك عليه . هل تتذكر ما ذكرته عن قتل الانجليز في قطار ديروط ؟ قلت نعم وما شأنك في هذا . قال كنت معهم هناك واشتركت في القتال وقتلت . لم أعرف ماذا أقول ، فقال نعمان :

" عليّ الطلاق " صح . فقبلت جبين فكري ومسحت على ذراعه الأيمن وقلت له " يسلم ذراعك " . وحكى نعمان قصتهما وانتهيا إلى انهما يملكان الآن السلاح اللازم لاسترداد الجزيرة بالقوة . ويطلبان رأيي . قلت لهما : نفكر في هذا بعد طرد الانجليز واسترداد أرض مصر ومنها الجزيرة . قالا معا . هل هذا مؤكد ؟ قلت .. المؤكد يا فكري ، يانعمان ، أن الله قد خلقنا لنعيش ونتمتع بالحياة في الأرض التي استخلفنا فيها لا ان نلقي بأنفسنا إلى التهلكة . وستعود إلينا

الجزيرة لأنها حقنا طال الزمان أو قصر إذ لا يضيع حق وراءه مطالب . قلت هذا بلغة أزهريّة مقعرة لتكون أكثر تأثيراً ، وقد تأثراً فعلاً ولكنهما لم يتراجعا صراحة . قال فكري متى تعود الجزيرة وإلى متى يمتد الصبر على الفقر . قلت لهما من ذا الذي كان يستطيع أن يقول قبل يومين متى يعود يونس عبد الله وإلى متى تمتد غربته . إن هناك ألوفا من الناس يقاتلون الانجليز بكل سلاح لتعود إلينا أرض مصر . بعدها سنسترد الجزيرة .

بعد بضعة أشهر جاءني رسالة منالشيخ عبد الجواد بأن أوافيه " فوراً " في لأسيوط ، ذهبت . مالخبير ؟ قال ألا تريد أن تستأجر جزيرة الهامية . قلت أنها مؤجرة إلى عبد الرحمن محمود . قال ساخرًا: هل توقفت عن قراءة الجرائد . قلت لا ولكني لا أرى لهذا علاقة بالموضوع . قال : ألم تقرأ في الجرائد خروج محمد محمود على سعد باشا والوفد . قلت قرأت . قال إذن ستفهم ما أقول . كل الناس مع سعد باشا وضد الخوارج عليه ومنهم محمد محمود وعبد الرحمن محمود . وقد آن أوان تجديد تأجير جزيرتك لعبد الرحمن محمود . أعضاء اللجنة . لجنة الايجارات في المديرية كلهم وفديون . وهم يعتبرون أن من يخون سعد باشا يخونالثورة ويخون مصر فهم مصممون على ألا يجددوا الايجار لعبد الرحمن محمود ، فإن كان لديك ما يكفي ولو ايجار سنة ، احضر به الاسبوع القادم واحضر المزاد ولن يحضر عبد الرحمن محمود وسيرسو عليك مزاد الجزيرة فتستأجرها . كيف هذا . كيف لن يحضر عبد الرحمن محمود . قال إنهم يطبقون الدروس التي تعلموها منه . فقد كانت تؤجر له ، وتجدد ، بدون أن يحضر .

عدت الى القرية . ثم عدت إلى المديرية بعد اسبوع ومعني فكري ونعمان . وذهبت بهما الى ديوان المديرية . قال فكري إلى أين نحن ذاهبون . قلت له لنسترد الجزيرة فبهت الاثنان . بعد أقل من ربع ساعة كنت أحمل في يدي عقد ايجار الجزيرة لمدة اربع سنوات قابلة للتجديد إذا لم يحضر المزاد أحد غيري . قال فكري كيف تم هذا سهلاً . قلت له شجرة

الثورة الصعبة قد طرحت ثمرة سهلة و " ياما هتطرح
."

عدنا الى الهمامية . وعادت اليها الجزيرة .
عادت على أهل القرية " كلاتهم " كما كانت من
قبل لأن " ما فيش حد أحسن من حد " .

قال الراوي :

إن تزر تلك القرية ، " النظرة " نسبة الى
قبيلة " عرب مطير " كما يزعم أهلها ، أو " الشيخ
جابر " نسبة الى الشيخ الصحابي جابر بن عبد
العزیز الذي اعتكف فيها حتى توفي ودفن في مقامه
كما يزعم أحفاده الأشراف من سكانها ، أو "
الهمامية " نسبة الى همام بك عميد عائلة اقطاعية
من قرية " ساحل سليم " كما أسمتها الحكومة في
أواخر القرن الماضي ، ستلفتك ثلاث مقابر من حجرات
غير ذات أبواب أو نوافذ تعلوها قباب ، متناثرة
بين مصاطب القبور فاقراً الفاتحة عند كل منها كما
يفعل أهالقرية حين يزورون تلك المقابر . ستعرف
ممن تسألهم ، إن المقبرة التي تكاد تنقض من القدم
هي مدفن فرح قداح مؤسس القرية وجد نبيها ، بناها
أولاده الخمسة منذ ما لا يدري أحد من السنين .
المقبرة الثانية هي مدفن " الشيخ ابو حسوب " قائد
المقاتلين من أبناء القرية دفاعاً عنها ضد الغارة
منذ ١٤٠ عاماً وأشجع المقاتلين كافة . المقبرة
الثالثة هي مدفن الشيخ " عباس " المدافع عن
القرية فيما بين الحرب والثورة الذي استرد لهم
جزيرتهم .

عليهم رحمة الله جميعاً آمين ...

الفهرس

- مقدمة بقلم مصطفى نبيل
- الفصل الأول - السلطة
- الفصل الثاني - الديمقراطية
- الفصل الثالث الجزيرة